تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر

الأستاذ الدكتور
عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أستاذ التاريخ الحديث ووكيل معهد
البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

الأستاذ الدكتور
شوقى الجمل
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

١٩٩٧

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهرانى - الفجالة
القاهرة ت / ٥٩٠٤٦٩٦

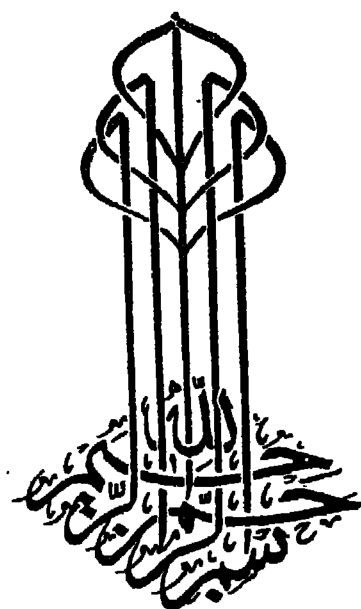
تاريخ مصر والسودان
الحديث والمعاصر

الأستاذ الدكتور
عبد الله عبد الرازق ابراهيم
أستاذ التاريخ الحديث ووكيل معهد
البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

الأستاذ الدكتور
شوقى الجمل
التاريخ الحديث والمعاصر
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

١٩٩٧

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهرانى - الفجالة
ت ٥٩٠٤٦٩٦ - القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تاريخ مصر الحديث له أهميته لنا بصفتنا مصريين وأيضاً لسبب علمي هو أن مصر اكتسبت في هذه الحقبة التاريخية مكانة خاصة ولعبت دوراً هاماً، لا بالنسبة لها فحسب لكن أيضاً بالنسبة لمستقبل العالم العربي كله . كذلك خضعت مصر في هذه الفترة لعوامل أثرت فيها وفي غيرها من الأقطار الأخرى المحيطة بها ـ فحتى في الوقت الذي اكتسبت فيه مصر شخصية قائمة بنفسها كانت خاضعة لعلل وعوامل ـ قد تكون أكثر ظهوراً في قطر عنها في الأقطار العربية الأخرى المحيطة به – لكن بوجه عام كانت العوامل والمؤثرات واحدة .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، فنحن نعلم مثلاً إنه في القرن التاسع عشرة، والقرن العشرين ـ من أهم العوامل التي أثرت في تاريخ مصر علاقتها بالدول الأوربية الغربية بالذات وازدياد النفوذ الأوربي بمظاهره السياسة والاقتصادية وغيرها، فالمشاكل بين محمد على والسلطان العثماني لم تقتصر على هذين الطرفين لكن تدخلت الدول الأوربية في حسمها ، كذلك تطور التدخل الأوربي في أيام سعيد واسماعيل وأنتهى بالإشراف المالي ثم الإحتلال العسكري ـ هذه ظاهرة مهمة في تاريخ مصر الحديث .

كذلك دخول الأموال والمشروعات الأجنبية بمصر ، وسكنى الأجانب فيها ، وتأثر المصريين بالحضارة الأوربية ـ هذه كلها نراها أيضاً ـختلف الأقطار العثمانية بإستثناء البلاد التى لا تشجع بطبيعتها الاستيكان الأجنبي بها كشبه جزيرة العرب مثلا ـ لكن نجد نفس ـرة فى الجزائر وتونس وبرقة والعراق وفارس .

ـثر من ذلك إذا حاولنا دراسة التطور الإجتماعى الداخلى بكل من لشعوب التى كانت خاضعة للسلطان العثمانى ـ نكاد نجد نفس ...ـور .

ولعل نقطة البداية السليمة فى دراسة تاريخ مصر الحديث هى بداية القرن السادس عشر الميلادى ـ أى العاشر الهجرى ـ ففى هذا القرن دخلت مصر تحت السيادة العثمانية وظلت على الأقل ـ من الوجهة الرسمية ضمن الأمبراطورية العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ـ أى ظلت كذلك حوالى خمسة قرون .

وفى هذا الكتاب سنتناول تاريخ مصر وتطور الأحداث بها من بداية القرن السادس عشر وحتى قيام ثورة يونيو ١٩٥٢ .

كما سنتناول تاريخ السودان الحديث ونتتبعه حتى استقلال السودان وقيام جمهورية السودان الديمقراطية فى عام ١٩٥٦ وسنزود الدارس بالمراجع التى يمكنه الرجوع اليها اذا أراد المزيد من المعلومات .

المؤلفان

" الفصل الأول "

مصر العثمانية

المحتويات :

- الأوضاع فى مصر والأقطار المحيطة بها فى بداية القرن ١٦م
- الصراع بين العثمانين والصفويين .
- العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية وتطورها
- أسباب ضعف النظام المملوكى .
- سقوط الشام ومصر فى يد العثمانين .
- نظام الحكم العثمانى فى مصر .

طبيعة هذا النظام وأدواته :

(الباشا العثمانى - الدفتر دار - الملتزمون - الحامية العثمانية - الصناجق - الكشاف)

- دراسة ميزانية مصر فى العصر العثمانى .
- مسألة الخلافة وحقيقة الأمر بشأنها .
- تدهور النظام العثمانى بمصر وما ترتب على ذلك من نتائج .
- حركة على بك الكبير ودلالتها:
  * انفراده بحكم مصر .
  * ضم الحجاز والشام .
  * خروج محمد بك ابى الذهب على سيده .
- اضطراب احوال مصر فى عهد ابراهيم ومراد .

الأوضاع فى مصر وفى الأقطار المحيطة بها فى أوائل القرن ١٦ م

لعله من المناسب أن نلقى نظرة سريعة على الأوضاع فى مصر ، وفى الأقطار المحيطة بها فى بداية القرن السادس عشر قبل أن نتعرض للمتغيرات التى طرأت على مصر وتاريخها والظروف التى أحاطت بهذه المتغيرات فى أوائل القرن السادس عشر .

فأول ما نلاحظه أنه فى هذا القرن تأكد فى أوربا الأنتقال من حضارة العصور الوسطى لحضارة العصور الحديثة ، ومن مظاهر ذلك الأنتقال نمو الروح القومية فى أوربا ، وإنفصام عرى الوحدة الدينية المسيحية فى القارة ، ويعتبر النصف الثانى من القرن الخامس عشر هو بداية التاريخ الأوربى الحديث ، ويتخذ البعض فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية فى ١٤٥٣ م بداية لهذا التاريخ والبعض يتخذ سقوط غرناطة فى يد الأسبان فى ١٤٩٢ بداية له .

واذا عبرنا من أوربا البحر المتوسط نجد فى مستهل القرن ١٠ هـ ١٦م ما يلى :

أولا : وحدات سياسية قديمة على حال من الإعياء تتمثل فيما يلى :

أ ـ ملك المماليك (العالم العربى) ويمتد فى مستهل هذا القرن الى مصر بحدودها التى استقرت عليها فى أيام سلطنة المماليك متضمنة الأجزاء العليا من النوبة ثم الأجزاء الملحقة بسلطان المماليك فى الشام لغاية أعالى الفرات ثم النفوذ المصرى المملوكى فى الحجاز، وكذلك النفوذ المصرى المملوكى فى ساحل البحر الأحمر المواجه لليمن (أى الساحل الأفريقى المشتمل على رؤوس العبور من أفريقية إلى بلاد

العرب) ويلحق بهذا الملك المملوكي نفوذ أحياناً وسلطان فعلى أحيانا في بعض جزر البحر المتوسط كقبرص بصفة خاصة .

هذه الوحدة القديمة رغم أنها كانت في مستهل القرن السادس عشر - كما قلنا - على حال من الإعياء لكنها وحدة هامة جداً تحتوى على جزء هام متميز من العالم العربي ، وهذه الصفة صحيحة بحكم أن اللغة العربية هي اللغة السائدة الوحية في هذه المنطقة ، ثم بعد ما أصاب بغداد والعراق بصفة عامة من غارات التتار - أصبح هذا القسم من العالم الإسلامي هو القسم الذى استمر يحيا وينبض وتجرى في عروقه معالم الحضارة الإسلامية .

ب - الوحدات الأخرى - نجد في هذا القرن في الغرب بعثرة سياسية عامة فليس هناك ملك قوى واحد بل أقطار كثيرة هي مراكز لنوع من الحياة السياسية والإجتماعية ، وهذه الأقطار الفرعية تتعرض بحكم هذه البعثرة السياسية في مستهل القرن ١٠ هـ (١٦م) لإغارات وحملات آتية من أوربا ، هي في الواقع نوع من الإستمرار للحملات الصليبية في العصور الوسطى أى هي تتمة للحروب الطويلة بين المسيحية والإسلام في الأندلس التي انتهت في نهاية القرن ١٥ م بإجلاء المسلمين تماماً عن الأندلس . وحملات الأوربيين في القرن السادس عشر كان مبعثها أسبانيا المسيحية وشاركتها في ذلك فرنسا ، وكانت قد أخذت تتكون في مملكة قوية ، وشاركت لحد ما بعض الجمهوريات الإيطالية ، إنما نصيب الأسد كان للقوى الأسبانية التي أرادت تعقب الإسلام في مستقره في المغرب فكانت محاولات كبيرة للنزول في نقط من الساحل الجزائرى والمراكشي والتونسي .

ثانيا : يقابل هذا العالم القديم المتعب عالم إسلامى آخر قوى فتى وهو ما يصح أن نعبر عنه بالمجتمع الإيرانى تميزاً له عن المجتمع العربى. وهذا المجتمع الإيرانى فى مستهل القرن العاشر الهجرى كانت فيه قوتان سياسيتان مهمتان ـ هما السلطة العثمانية والسلطة الفارسية الإيرانية . وقد اطلقنا على هذا المجتمع اسم المجتمع الإيرانى لأن السلطة العثمانية تنتمى فى حياتها وثقافتها لهذا المجتمع ، فلغة الحضارة فى ذلك المجتمع كانت اللغة الإيرانية أو الفارسية ، وقد انبعثت من جديد فى هذه المنطقة بعد أن مضى زمن كانت فيه اللغة العربية هى لغة العلم والأدب ـ هذا القسم تتحرك فيه أمم فتية .

وهكذا يمكن أن أقسم المسلمين فى هذه الحقبة الى قسمين ـ قسم قديم عربى وآخر جديد إيرانى .

وإذا ألقينا نظرة على القوتين السياسيتين الكبيرتين فى هذا المجتمع الإيرانى نجد :

السلطة العثمانية : ترجع فى الأصل لنواة ألقيت فى أرض آسيا الصغرى فى بيئة صالحة للنمو فقد كانت الدولة السلجوقية منقسمة لإمارات ، كما أن الدولة البيزنطية كانت تواجه عقبات عدة ، واتجه العثمانيون للبلقان ثم نقلوا مقر ملكهم من (بروسه) فى آسيا الصغرى الى (أدرنه) فى أوربا ، وانتهى الأمر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بفتح القسطنطينية فى عهد محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م) .

وفى مستهل القرن العاشر الهجرى أصبح العثمانيون قوة فريدة يتمركزون فى القسطنطينية بمركزها الممتاز ـ لكنها كانت فى ذلك الوقت فى مفترق طرق عدة :

أتتجه غرباً صوب العالم الأوربى ؟

أم تتجه شرقاً صوب السهول الروسية ؟

أو تصطدم بالسلطنة المملوكية ؟

أم تتجه لتصفية السلطنة الإيرانية الفارسية ؟

وقد تولى عرش الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن السادس عشر سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م).

قوة فارس : هى القوة الأخرى فى المجتمع الإيرانى ، فقد كانت فارس فى ذلك الوقت تحت حكم أسرة جديدة هى (الأسرة الصفوية) نسبة الى جد هذه الأسرة صفى الدين ، وكان رجلاً من الصوفية ، وكان الحكم فى مستهل القرن العاشر الهجرى فى هذه الأسرة فى يد الشاه اسماعيل الصفوى .

وكما سنرى إن سياسية الشاه إسماعيل الصفوى فى ذلك الوقت هى التى حددت الطريق الذى ستختاره الدولة العثمانية .

الصراع بين العثمانيين والصفويين :

سياسة إسماعيل الصفوى (١٥٠٠ - ١٥٢٤ م) هى التى ألزمت السلطان سليم على أن يتجه أولاً لمواجهة الصفويين فى إيران ـ فقد اتجه اسماعيل الصفوى الى تحويل المسلمين الى مذهب الشيعة ونشر هذا المذهب بحد السيف وتطلع بالذات إلى العراق لمركزه الاقتصادى كما أنه مركز الشيعة حيث توجد أهم مزاراتهم . وهذه السياسة جديدة فى بابها فالفاطميون مثلاً كانوا شيعة لكنهم لم يُرغموا قط المصريين على الدخول فى مذهبهم .

وقد وجد السلطان سليم أنه يجب أن يتجه أولاً وقبل كل شئ لتطهير الأناضول من هذه الفوضى التى سادت فاتجه للقضاء على الدولة الإيرانية والدفاع عن الإسلام الصحيح ـ من وجهة نظره .

وليصل لهذه النتيجة صبغ الدولة العثمانية بكل الصفات الإسلامية - وإنتهى الأمر بدخول سليم إيران وهزيمته للشاه فى موقعة (جالد يران) - ودخوله تبريز عاصمة الشاه واستيلائه على نفائس وحريم الشاه وانعم بهن على بعض صغار جنده ، لكنه لم يستطع الإستمرار فى هذا الموقف فاضطر للعودة ، لأن الجند العثمانى تذمر من متاعب هذه الحروب فى تلك الجهات الجبلية كما أن سليم خشى أن يهدد المماليك مواصلاته خاصة إنهم لم يستجيبوا لطلبه للتعاون معه ضد الصفويين ، فقد كان الغورى متذبذباً فى سياسته تجاه الطرفين، فرغم ميلة للصفويين وتقديره للنتائج الخطيرة التى تترتب على إنتصار العثمانيين على الصفويين لم يجرؤ وهوالحاكم السنى - ومصر المملوكية كانت معتبرة مركز الخلافة السنية العباسية - على أن يمالى الصفويين الشيعيين فكانت تعليماته لعمال الأقاليم بمملكته أن يلتزموا جانب اليقظة والحذر وألا يقدموا للجيش العثمانى المتقدم أية مساعدة .

والعلاقات بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية بدأت طيبة لكنها لم تلبث أن توترت لأسباب سنعالجها فيما بعد .

شكل ١

العالم العربى فى القرن ١٠ هـ - ١٦ م

العلاقات الطيبة بين الدولة العثمانية والمملوكية :

بدأت العلاقات بين الدولة العثمانية والمملوكية بداية طيبة حتى أن الدولتين اتجهتا الى التحالف ضد الخطر المغولى من الشرق ، وضد الخطر الأوربى البرتغالى بالذات خاصة بعد أن أكتشفت البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح للشرق فى عام ١٤٩٨ (رحلات فاسكوداجاما)، واتجهوا لضرب القوى الإسلامية بقطع شرايين التجارة الشرقية عن موانى مصر والشام ، وقد كانت هذه الشرايين هى أساس قوة المماليك وعزتهم الإقتصادية والحربية .

وفعلاً حين عزمت دولة المماليك على مجابهة االبحرية البرتغالية التى تجرأت على الوصول الى بلاد الشرق والهند - طلب السلطان المملوكى (السلطان الغورى) مساعدة السلطان العثمانى (بيازيد الثانى) وإمداده بالأخشاب اللازمة لتقوية وتدعيم أسطوله - لكن تحطم الأسطول المملوكى وأساطيل حلفائه فى موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩ ، وحدث اشتباك ثان بين السفن المصرية تناصرها السفن العثمانية وبين سفن (فرسان القديس يوحنا) تساندها قوة البرتغال بالقرب من ميناء الاسكندرية سنة ١٥١٠ م .

ومن مظاهر هذا التفاهم والود العثمانى المملوكى أن المماليك فى مصر كانوا يُعلنون إبتهاجهم بإنتصارات العثمانين فى أوربا ، وقد إحتفلت مصر المملوكية بسقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين ، فعلقت الزينات ودقت الطبول وأبرق السلطان المملوكى للسلطان العثمانى مهنئاً ومباركاً بهذا النصر .

توتر العلاقات العثمانية المملوكية :

لم يلبث أن إنقلب هذا الود الى عداء سافر ، وصدام كان لابد من وقوعه بين الدولة العثمانية الفتية التى تطمع فى زعامة العالم الإسلامى وبين دولة المماليك التى أخذت عوامل الشيخوخة تبدو عليها .

وقد شعر العثمانيون بقلق واضح تجاه منافسة المماليك حين إستولى السلطان المملوكي بارسباى فى عام ١٤٢٤م على جزيرة قبرص ، وكان التقاء الحدود بين الدولتين فى الشام نقطة صدام - كما أن مصر المملوكية أصبحت ملجأ للفارين - من الزعماء العثمانيين - من المذبحة التقليدية التى كانت تجرى حين يتولى حاكم جديد فيعمل للتخلص من إخوانه ومنافسيه فى السلطة ، فكان يفر من يستطيع منهم الفرار الى الشام ومصر ، وكانت دولة المماليك تُضفى عليهم حمايتها .

وقد اتسعت شقة الخلاف بين العثمانيين والمماليك حين نشبت الحرب بين العثمانيين والصفويين ، وبعد عودة السلطان سليم من الحرب - صمم على تأمين حدوده من ناحية المماليك بالنسبة للمستقبل فلا يتعرض من جانبهم لما تعرض له من تهديد ، كما أنه صمم أن يحول دون أى عمل مشترك بين الدولتين الإسلاميتين الإيرانية والمصرية فى المستقبل هذا من جهة ومن جهة أخرى رأى السلطان سليم أن يؤكد ويزيد فى الصيغة الدينية لدولته .

وهكذا بدأت الغيوم تتلبد بين الدولتين المملوكية والعثمانية . وبعد إنتصار العثمانيين على الصفويين فى فارس اتجهوا للدولة المملوكية فى الشام ومصر و بدأت نُذر الحرب بين الطرفين - العثمانيين والمماليك باستيلاء العثمانيين على بعض المناطق التابعة للمماليك على حدود الدولتين - وتبادل الجانبان السلطان سليم العثمانى والسلطان الغورى المملوكى الرسائل ، لكن إتهم كل فريق الآخر بإهانته لرسل الطرف الثانى مما زاد من حدة التوتر بين الدولتين .

ونجح العثمانيون فى أن يضموا لصفوفهم بعض أمراء الشام من حكام المماليك مثل (خيربك) نائب حلب ، وجان بردى (الغزالى) نائب حماه .

والسؤال الذى يفرض نفسه ـ هل اتجه تفكير الدولة العثمانية الى القضاء على سلطة المماليك فى الشام ومصر والإستيلاء على كل اقطارها تماماً ؟

قد يتجه التفكير إلى أن تأكيد الصبغة الإسلامية للدولة العثمانية ـ كان يستلزم أن يجعل السلطان سليم من نفسه ومن أبنائه فيما بعد أمراء للمؤمنين أو خلفاء بنقل الخلافة التى كانت قائمة فى القاهرة فى البيت العباسى ـ أى نقلها من القاهرة الى القسطنطينية إما بنقل الخليفة نفسه وإقامته بجانب السلاطين العثمانيين كما كانت الحالة فى القاهرة أو بتلقيب نفسه بلقب خليفة أى بنقل الخلافة لسلاطين آل عثمان.

ويكون تأمين الدولة العثمانية بالإستيلاء على أقطار دولة المماليك وجعلها ولايات عثمانية .

ما اعتقده فى هذا الشأن أن السلطان سليم لم يضع لنفسه فى عام ١٥١٥ كل هذا البرنامج المفصل ـ اعتقد أن برنامج السلطان سليم نما من نواة صغيرة لحد ما وإنه توسع فى تنفيذ أفكاره لما سَهُل عليه أمر المماليك ـ أى يصح أن نقول أنه فى أول الأمر كان يرمى أن يهزم جيش المماليك المجتمع على حدود الأناضول ويزيل خطره تماماً عن حدود الدولة وإنه يمكن لو انزل بالجيش المملوكى هزيمة يدرأ عن نفسه خطر المستقبل وأن يقوى حدوده فى شمال الشام بضم بعض الأجزاء المهمة ، ثم بعد ذلك يتوغل حسب الظروف فى الأقطار السورية التابعة لسلطنة المماليك وأن ينال بعد مجاورته لبلاد العرب من الشمال النفوذ الذى كان يتمتع به سلاطين المماليك فى الحرمين ، أى موافاة أهل الحرمين بالأرزاق اللازمة لهم ـ وبذا يكون السلطان سليم فى مركز يحقق أغراضه فيصير المتكلم عن الإسلام الصحيح والحامى للحرمين ـ أما فكرة محو سلطنة المماليك

تماماً ودخول مصر فهذا - في اعتقادنا - لم يكن في حساب السلطان العثماني .

حقيقة إن الوثائق المعاصرة لا تُهدينا كثيراً ، لكن لعل الظروف هي التي تجعلنا نعتقد بصحة هذا الاتجاه - لكن كيف تغير هذا وانقلب المشروع وتحول الى ازالة سلطنة المماليك نهائيا ونقل الخلافة إلى القسطنطينية ؟

السبب في ذلك هو انهيار سلطنة المماليك بعد هزيمة (مرج دابق) قرب حلب مما شجع سليم على تتبع المماليك المهزومين الى مصر وادماج دولتهم نهائيا في جسم الدولة العثمانية .

ولا شك في أن سليم لم يكن يرى أن قوة المماليك ستنهار وكما انهارت عام ١٥١٦م فالبوادر كانت تدل على عكس ذلك تماماً .

فما كان معروفاً حتى ذلك الوقت أن دولة المماليك دولة كبيرة غزيرة الموارد ، تتحكم في أقطار الشرق الغنية ، تتحكم في أقطار لها موقع جغرافي فريد للتجارة وللحرب ، تتيح للسلطان ثمرات كد الفلاحين المصريين مما تنتجه حقول مصر من الغلال وغيره ، وتحت يده أيضاً ثمرات الصناع المصريين ، والصناع المقيمين بأمصار الشام ، وهي أقطار لها شهرة في بعض الصناعات الهامة ، كما تمر في أراضي المماليك في مصر والشام الطرق التجارية الآتية من الشرق ويجبي المماليك على هذه التجارة المارة المكوس التي تُسهم في بناء قوتهم العسكرية .

فتحت تصرف السلطنة المملوكية إذاً موارد كانت تجعل سليم يتردد في الحكم على أنها كانت ضعيفة تنهار بعد هزيمة عسكرية واحدة ، ولم يغب عن ذهن السلطان العثماني أيضاً إنه في عهد أسلافه حين التحمت

الدولة العثمانية مع المماليك إستطاع السلطان قايتباى المملوكى هزيمة العثمانيين هزيمة لها قيمتها - فليست دولة المماليك إذاً دولة يستهان بها.

لكن السلطان سليم لم يدرِ فى الواقع أن هناك أسباباً جعلت السلطان المملوكى أضعف فى حقيقته من مظهره ، وأن الوقت قد حان لكى تأتى العوامل القديمة الفعالة بنتائجها المنتظرة .

بعض المؤرخين يُرجع ضعف المماليك فى ١٥١٦ ، ١٥١٧ م وانهيار هذه السلطنة الضخمة الى ظروف تتعلق بأخلاق القائمين بالحكم إذ ذاك إنما الحقيقة أن المسألة ليست مسألة الغورى ولا أمراؤه فى ذلك الوقت - إنما العيوب فى الحقيقة قديمة ترجع للنظام المملوكى نفسه ، وإنتصار المماليك فى الماضى يرجع الى أنهم لم يقابلوا إلا دولاً على شاكلتهم ولكن لما واجهوا دولة قائمة على أسس أخرى كانت النتيجة مخالفة .

ومن يُجرى مقارنة بين نظامين المملوكى والعثمانى يقف على سر ضعف المماليك ، فدولة المماليك دولة تُثير الإعجاب لأنها شخصيات سواء أكانت هذه الشخصيات قد وصلت الى مقام السلطنة نفسه أو الى مراتب الإمارة - هذا من شأنه أن يثير الأعجاب - بشخص أوتى به رقيقا ثم وصل بصفاته الشخصية من قوة الساعد ، وسرعة فهم الموقف فبفضل صفاته هذه وصل الى مقام كبير ..

كذلك تميز السلطان المملوكى باليقظة والنشاط المستمر - هذه حيوية لكنها فى الحقيقة حيوية منهكة ، كذلك تتميز الدولة المملوكية بعدم الإستقرار - نزاع مستمر على السلطة ، وفكرة الفردية مسيطرة على كل شئ ، سلاحهم الرئيسى الفرسان أما المشاة فهم لخدمة الفرسان فحسب .

لكن الأمر يختلف تماماً فى الدولة العثمانية ، فالسلطة وراثية فى بيت الملك ، وهناك فرق كبير بين النظامين العسكرين ، فالانكشارية اداة حكومية للحرب والحكم ، والفكرة الجماعية فيها هى الغالبة فهى اداة متحدة تدين بالطاعة والولاء للسلطان ، والى جانب الإنكشارية هناك رعية حرة تخدم فى الجيش . .

والجيش العثمانى فيه المشاه والمدفعية - وهما سلاحان يلعبان دوراً حاسماً فى الحروب العثمانية . المشاه مسلحون بالأسلحة النارية فالإنكشارية بيادة ، مشاه عسكرية تحارب على الأقدام ، ووجود المشاة فى الدولة العثمانية جعلهم يتفوقون على كل الأعداء الذين قابلوهم فى آسيا وأوربا ، أما المدفعية فهو سلاح جديد لم يكن معروفا فى العصور الوسطى ، فهم لم يعرفوا البارود . المماليك عرفوا المدافع إنما كان سلاحا ثانويا لأن اعتمادهم كان على الفرسان الخيالة - حاليا الخيالة فى الجيوش الأوربية تُستخدم للكشف عن مواقع العدو وكذلك عند العثمانين لتعقب الجيش المنهزم وجعل هزيمته تامة والإيقاع بالفارين من أفراده .

هذه الفروق الجوهرية بين النظامين العسكريين المملوكى والعثمانى - كما سنرى ظهرت بوضوح حين التحمت القوتان وأدت للنتائج الحاسمة التى عجلت بالقضاء على دولة المماليك نهائيا .

سقوط الشام ومصر فى يد العثمانين

فتح الشام :

خرج السلطان الغورى للشام فى أوائل صيف ١٥١٦ فى حفل كبير ، ومعه قضاة مصر على المذاهب الأربعة ، والخليفة العباسى المتوكل على الله ، وعدد كبير من رجال الدولة .

ويصف المؤرخون المعاصرون هذا الحفل الغريب الذي يشبه إحتفالات الأفراح والمراسم أكثر منه مظهراً لجيش خارج للقتال .

كان الغوري في القلب مع مماليكه الخاصة - بينما على ميسرته وميمنته قُدامى المماليك من أتباع أسلافه ، ومنهم نواب الشام مثل خير بك وجان بردى ، ودارت المعركة بين المماليك والعثمانيين عند (مرج دابق) في أغسطس ١٥١٦م . وفي المرحلة الأولى للمعركة بدا كأن المماليك على وشك أن يُحققوا النصر، ولكن أنسحاب خير بك وجان بردى الغزالي من الميمنة والميسرة ، وما أثاره من بلبلة في صفوف الجيش المملوكي إذ أشاعا أن السلطان الغوري يُريد التخلص من قدامى المماليك - أدى هذا الى اضطراب في الجيش المملوكي وازداد الأمر سوءً بسبب قوة المدفعية العثمانية :

ففي موقعة (مرج دابق) هذه قرب حلب نجد ملخصاً لكل ما ذكرناه عن النظام المملوكي وعيوبه - نجد تثاقل أمراء المماليك في الخروج للحرب حتى أن السلطان يُهدد أحياناً بقتل من يتأخر وفي الوقت ذاته يصرف من خزائن الدولة بلا حساب للإغراء - هذا بينما لا نسمع عن تباطؤ الإدارة العثمانية لا وعد ولا وعيد - أداة تُطيع طاعة تامة .

السلطان العثماني راسل بعض كبار أفراد المماليك وحصل منهم على وعود وإن شئت قل إنها وعود بالخيانة ، فصاحب حلب خير بك متفق سراً مع العثمانيين ، هو في العلن على الطاعة لسيده لكنه بقدر استطاعته يجتهد أن يُعرقل نجاح الجيش المملوكي ، وكذلك نائب دمشق الأمير الغزالي .

في الحرب نجد سمات العسكرية المملوكية الفردية - قيل إن الغوري يقدم في الحرب مماليك الأمراء بينما يحرص على حياة مماليكه - نحن لا نستطيع أن نجزم بصحة ذلك من عدمه لكن الفكرة شاعت في الجيش

المملوكى ، وكانت النتيجة أن دارت الدائرة على الغورى ، ويقال إنه أُصيب بالفالق ومات ودفن سراً ودخل سليم مدينة حلب بعد ذلك ، فقد سلم بها خير بك بدون مقاومة ، وإنهارت بعد ذلك كل مقاومة للماليك فى الشام فدخل الجيش العثمانى حلب ثم حماه ، وحمص ، ووصل الى دمشق ، وخُطب بإسم سليم على المنابر هناك فى يوم الجمعة ووفد عليه باقى أمراء الشام مقدمين فروض الطاعة والولاء فأمنهم وثبتهم فى مراكزهم .

فتح مصر :

حين خرج الغورى فى حملته الى الشام ترك طومان باى نائباً عنه فى حكم مصر - وكان السلطان سليم يأمل أن تؤدى معركة مرج دابق الى استسلام نائب السلطان المملوكى فى مصر دون قتال ، فارسل الى طومان باى يطلب منه الإعتراف بالسيادة العثمانية ، وأن يكون نائبه فى حكم مصر ، ووسّط فى ذلك الخليفة المتوكل .

وكان طومان باى شُجاعاً ذكيا ، وكان زاهداً فى السلطنة ، فقد كان المماليك متقسمين على أنفسهم ، وخزانة الدولة خاوية .

وكان طومان باى يُدرك أن فلول جيش المماليك المنهزم لا تقوى على مواجهة العثمانيين - لكن تحت ضغط الظروف أضُطر لقبول السلطنة ورفض عروض سليم وحاول بذل جهده لتعزيز قوة دفاع البلاد فاشترى من البندقية بعض الأسلحة وأقام خطاً للدفاع عند الصالحية لعرقلة الزحف العثمانى جنوب مصر وداخل حدودها .

غير أن العثمانيين استولوا على غزة ثم انحرفوا جنوباً مخترقين صحراء سيناء ودخلوا الدلتا عند بلبيس ، والتقوا بجيوش طومان باى

الذى خرج لمقاتلتهم عند (الريدانية)بصحراء العباسية بين المطرية والجبل الأحمر فى يناير ١٥١٧ م .

وأسفرت المعركة عن هزيمة طومان باى ودخول العثمانيين القاهرة ، وعرض سليم على طومان باى حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية لكنه رفض وتمركز فى الجيزة والمناطق المجاورة ـ لكن لم تُجد المقاومة وانتهت بهـزيمة طومـان باى وهربه الى الدلتـا حـيث سلمـه بعض العـربـان الى العثمانيين .

واستقبله السلطان سليم استقبالاً طيبا وحادثه طويلاً فى شئون مصر وإدارتها ، وأخيراً انتهى بشنقه على باب زويله .

هكذا انتهت دولة المماليك فى مصر وصارت مصر ولاية عثمانية .

بقى سليم فى مصر بعض الوقت يدرس أحوالها وأصدر فى القاهرة ـ أمراً بالعفو عن بقية المماليك وعدم التعرض لهم ولممتلكاتهم لكى يحتفظ بهم كعنصر هام فى ادارة البلاد .

وهناك ثلاث مواضيع تتصل بالوضع الجديد فى مصر هى :

أولا : نظام الحكم الذى وضع لمصر بعد أن فتحها العثمانيون .

ثانيا : آثار هذا الفتح والنتائج المترتبة عليه .

ثالثا : الخلافة الإسلامية وما حدث أو ما يقال إنه حدث فى تلك السنة (١٥١٧) بالنسبة للخلافة .

نظام الحكم العثمانى فى مصر
والآثار التى ترتبت عليه

نُشير فى البداية الى نقطة مهمة وهى أن فترة الحكم العثمانى فى مصرلم تُدرس علميا دراسة وافية ، ويرجع ذلك الى أن الكتاب عن هذا العصر يعتمدون إما :

١ - على الكتب الغربية المعاصرة - وأهمها الجبرتي وهو معاصر للأحداث ولذلك فهو مهم لكنه محدود بحكم ظروفه ، فهو يروى ما شاهد أو ما سمعه .

٢ - ما كتبه الرحالة الغرب - وقيمة هذه الكتابات أيضاً محدودة جداً لأن الإنتقال للأجانب على وجه الخصوص والاختلاط بالمصريين كان صعباً ، فالمعلومات التى يجمعها هؤلاء الرحالة لا تدل على حقيقة الوضع .

ومن أهم هذه المراجع الأوربية رحلة فولنى Volney وهو رحالة فرنسى زار مصر وكتب عنها ، والرحلة تلقى الضوء على وجهة نظر الحركة الفلسفية فى فرنسا فى ذلك العصر ، ولهذه الرحلة أهمية أخرى من ناحية تأثيرها على الكتاب والسياسين الأوربيين بل على بعض الكتاب العرب (١)

وترجع أهمية ما كتبه فولنى أيضاً الى أن الجيل الذى قرر احتلال مصر من الفرنسين - اتخذ معلوماته عن ضعف الدولة العثمانية فى مصر، وغير ذلك من المعلومات التى بنى عليها قراره من كتابات فولنى .

---

(١) جورجى زيدان أخذ عن هذه الرحلة الطابع الفلسفى

ولدراسة هذا العصر دراسة صحيحة يلزم الرجوع للوثائق والأوراق الرسمية .

للأسف فإن كثيراً من الوثائق الرسمية أصابه التلف نتيجة حريق حدث بدار المحفوظات في عهد محمد على ، كذلك فُقد كثير منها نتيجة عدم الإكتراث والإهمال وبيع كثير من الوثائق لباعة الورق ويرجع ذلك الى عدم الوعى بالأهمية التاريخية لهذه الوثائق .

والأمر يستلزم الرجوع للوثائق الموجودة فى مصر (الولاية) وفى الاسيتانة (مركز الحكم) .

وقد نشرت مصلحة المساحة المصرية - فى عهد الملك فؤاد - صوراً فوتوغرافية للفرامانات الواردة لمصر وللقضاة لكنها ناقصة .

وأشير الى أن العصر العثمانى يتميز بكثرة ما صدر فيه من تشريعات خاصة فى فترات معينة كعصر سليمان القانونى - ونرى هذا فى مصر فى عهد محمد على وهذا يترتب عليه غنى المادة التاريخية .

طبيعة نظام الحكم فى مصر العثمانية وأدواته

مقدمة :

١ - من سمات العصر العثمانى فى مصر أنه كان شديد الأضطراب مرد الأمر فيه الى القوة الغاشمة ، لكن الشكليات فيه كثيرة فكل شئ يسجل .

٢ - السلطان سليم - كما يبدو - لم يضع نظاماً تفصيلياً لإدارة مصر نستدل على ذلك بأمرين :

أ - لم نجد لوائح منظمة من عهد سليم .

ب ـ إبـن إيـاس [1] المعـاصر للأحداث يذكر أنهم كانوا يسوسـون الأمور اجتهاداً لا بموجب نظام دقيق موضوع ، خاصة أن (خاير بك) أول والٍ عثمانى لمصر كانت له خبرة سابقة فهو من رجال الغورى السابقين ، فسليم ـ كما يُستفاد من ذلك ـ وضع قواعد عامة لكنه لم يضع نظاماً مفصلاً .

مع هذا فقد تعددت الدواوين فى الدولة العثمانية ، وهذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من أنه عصر اغتصاب مرد الأمر فيه للقوة الغاشمة ، فهذا ليس بعيداً عن الواقع نجده فى كثير من فترات التاريخ .

وكلمة (ديوان) كلمة قديمة ، كانت تُستعمل فى عصور سابقة مثلاً فى بداية الدولة الإسلامية كانت كلمة ديوان تعنى ثبتاً بأسماء الناس الذين لهم مرتبات مثلا من دخل الدولة (ديوان الجند) ، لكن فى العهد العثمانى أصبح الديوان يعنى إدارة ـ أداة من أدوات الحكم كما أنها كانت تطلق أيضاً على الأجتماع الهام الذى يُعقد مثلا لقراءة فرمان صادر من الاسيتانة .

٣ ـ ما يُقال عن تقسيم الحكم بين ثلاث فئات متنازعة (الوالى ، الديوان ، الحامية العثمانية) بقصد بقاء مصر فى أيدى العثمانيين وعدم إنفراد هيئة أو شخص بالسلطة حتى لا يفكر فى الأستقلال، كذلك ما يقال عن (المماليك) الذين بقوا فى مصر بأنهم كانوا عنصراً متميزاً عن النظام العثمانى ـ لا أصل له ومبالغ فيه ، النظام المملوكى كان نظاما متغلغاً فى كل شئ . هم لم يكونوا أكثر من عصبية كعصبيات أخرى وحين تجد هذه العصبية أو فرد منها فرصة للإستيلاء على السلطة ستنتهزها .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور (بولاق ١٣١١هـ) .

٤ – من أهم الوسائل لدراسة نظام معين والوقوف على [illegible] أى عصر من العصور هو دراسة (الميزانية) ـ الدخل وأوجه الصرف لأن هذا يوضح أوجه النشاط المختلفة فى الدولة كما يوضح اهتمامات الحكام .

أهم أدوات الحكم العثمانى فى مصر :

١ ـ الوالى العثمانى :

هو ممثل سلطان فى حكم البلاد لكن نفوذه كان ضئيلاً إزاء العصبيات الأخرى المسلحة ـ كما أن مدته كانت قصيرة فقد كانت عاما قابلا للتجديد ، والسبب فى ذلك ليس الخوف من أن يكون حزبا ويكون خطرا على الأمن ـ كما تردد المراجع ـ لكن يرجع الامر للجشع لأن الوظائف الكبرى كانت تُشترى فجعلت المدة قصيرة قابلة للتجديد لفترة أخرى فالولاة كانوا يبذلون المال فى سبيل البقاء فى وظائفهم لمدة أخرى، ويتقاضى هذه الرشاوى أناس لهم صلة ونفوذ عند السلطان مثل والدته زوجته ، كبار الحاشية .

ومقر الوالى (القلعة) التى بناها صلاح الدين الأيوبى على أول جبل المقطم ، وكانت تشرف على ساحة الرملة وتتألف من قسم مرتفع لسكن الأنكشارية وغيرهم ، وعدد من القصور يسكن الوالى إحداها ، والباشا يرأس الديوان الذى يجتمع ثلاث مرات اسبوعيا .

٢ – الدفتدار :

هو رئيس المالية ، والادارة المالية المركزية تعرف (بالرزنامة) ويتبعها فى الأقاليم الملتزمون .

وفيما يتعلق بجباية الضرائب فقد بقيت كما هى ، وقيل إن سليم استطاع بمساعدة جامعى الضرائب إعادة الدفاتر التى أحرقها المماليك، كما أقر سليم الأوقاف الخيرية على الحرمين وغيرهما .

أما عن (الجزية) التي تُرسل للأسيتانة - فالعثمانيون لم يعتبروا مصر - كما يردد بعض المؤرخين - بقرة حلوب أى لم يعتبروها مصدراً يدر عليهم المال ، فقد كان المقرر أن ما يجمع من المال الأميرى ينفق على مصالح خاصة - سنذكرها فيما بعد ، . والفائض وهو ما يسمى (الجزية) يرسل للقسطنطينية ولا يتحدد بقيمة معينة ، فقد يزيد أحيانا وقد ينقص أحياناً أخرى وقد ينعدم فى بعض الأحيان .

ومنذ عام ١٨٤٠ بعد الخلافات والحروب بين محمد على والسلطان حُدد هذا المبلغ ، وفى عهد اسماعيل باشا زاد هذا المبلغ نظير الإمتيازات الخاصة التى طلبها ، وفى عهد الإحتلال البريطانى بعد عزل عباس الثانى تقرر أن تُخصص هذه الجزية وتحول لتسديد بعض ديون الدولة العثمانية .

وفى عهد وزارة سعد باشا زغلول فى عام ١٩٢٤ رأى أنه من الظلم أن تدفع مصر هذه الأموال بعد إنفصالها رسميا عن الدولة العثمانية - ولاظهار حسن نيته قرر رفع الأمر للقضاء ووضع أقساط الجزية فى البنك باسم الدائنين الى أن يحكم القضاء - وصدر حكم القضاء ضدنا وقد استمر دفع هذه الجزية الى أن إنتهى أمرها بالسداد أخيراً ضمن الدين المضمون .

الملتزمون :

الالتزام فى اللغة - يعنى أن يلتزم شخص أو يتعهد بتنفيذ الشئ - لكنها تطورت واستعملت للإلتزام بجمع الأموال الأميرية . وفى الماضى

كان أهم دخل للحكومة من الضرائب على الأرض والمبانى ، والحكومات سواء أكانت في الشرق أو الغرب كانت لغاية القرن التاسع عشر تعتمد في جمع ضرائبها على هذا النظام - نظام الإلتزام .

حالياً ضرائب الحكومة يجمعها صيارف لهم مرتبات ، وكذلك رسوم الجمارك تدفع لموظفين معينين ، لكن لا تزال آثار هذا النظام موجودة فى بعض النشاطات ، ففى مناطق صيد الأسماك مثلاً أو المعادى التى يعبر عليها الناس ، أو إستغلال المعادن من باطن الأرض (البترول) - الحكومة بعد أن تنتهى من أبحاثها الأولية تترك أمر الأستغلال لمن يريد من الأفراد أو الشركات - مثلاً هناك إلتزام باستخراج النطرون من وادى النطرون ، وكذلك إلتزام بتوريد الفحم النباتى - عريان من إسنا أو أسوان أو جرجا يلتزمون بذلك .

لكن أهم أوجه الإلتزام - الإلتزام بالأموال الأميرية على الأرض ، ويرجع اللجؤ الى هذه الوسيلة لسببين :

أ - سبب مالى : فالحاكم يفضل دخول المال جملة للخزانة ولا ينتظر جمعه يوماً بعد يوم .

ب - سبب إدارى : فالادارة التنفيذية فى الماضى لم تكن قوية ولم تكن متغلغلة كما هى الآن .

وقد ترتب على الإلتزام أن العملية لم تصبح عملية مالية فحسب بل تطورت وتغلغلت فى شئون أخرى لأسباب :

أ - فلابد أن يمنح الملتزم سلطة على الفلاحين حتى يستطيع جمع الأموال المطلوبة ، ويبدأ تحول هذا النظام الى حكم محلى بالإضافة الي أنه نظام لجباية الضرائب .

ب – يمنح الملتـزمـون مـزايا للقـيـام بهـذا العبء ، ولذا كـانت الأرض تقـسم الى قـسـمين ـ القـسم الأكبـر يوزع على الفـلاحين للقـيـام بزراعـتـه ، والأصـغـر وهو مـا يسـمى (بـأرض الوسـيـة) يزرعـه الفلاحون بالسخرة لحساب الملتزم .

ومن جـهـة توزيع الأرض على الفـلاحين فـقـد كـان هذا الأمـر يتم على حسب مقدرة الفلاح على استغلال الأرض ، وحسب قدراته المادية وكانت النزعة دائما نحو الأستـقـرار ، فالأرض تسـتـمر فى يد الأسرة طالما لم يكن داع لنقلهـا ، على أنه رغم ذلك فـهناك توزيـع كل سنة لأن النيل يزيد وينقص سنويا فالأرض الزراعية نفسها لم تكن مستقرة .

ونلاحظ أن نظام الإلتزام كـان موجـوداً فى مصـر المملوكيـة ، كمـا أن هناك وجه شبه بينه وما كان سائداً فى نظام الأقطاع الأوربى .

لكن نظام الإلتزام فى مصر العثمانية اختلف إختلافاً جوهريا عنه فى أيام المماليك ، كما أن هناك اختلافات عن الأقطاع الأوروبى .

فـالإقطاع الأوربى كـان فى أيدى أسـر شـريفـة توزع على عـدد من الفرسـان يقومون بخدمات حربية معينة نظير ذلك ، أما الأقطاع المملوكى فـلا دخل للملوك بحكم الأرض ، فـقط اسـمـه مـسـجل فى الدفـاتر فـيـأخـذ ايراد الأرض تبعاً لذلك ، وهو مرتبط بتموين الجيش ، فـهو طريقه لتموين رجـال الحـرب إذ تُقطع الأرض لرجال الحـرب وأصلهم أرقـاء وذلك بصـفـة مرتبات لهم .

أما فى مصـر العثمانية فالملتزمون أصناف من الناس ليس لهم عـلاقة بالخدمة العسكرية،أحياناً يكونون سيدات يرثن هذه الأقطاعات، وأحيانا تكون معاهد خيرية أو مشايخ ـ لا علاقة لها مباشرة بنفقات الحامية .

وهناك تفصيلات تتعلق بالمال الذى كان يجمعه الملتزم من حصة الإلتزام ووجوه انفاقه .

من هذا المال يدفع الملتزم ما يخص الإدارة الحكومية وهو ما عرف بالمال (الميرى) (أى ما يخص الأمير) . والباقى (الفائض) يحتفظ به الملتزم لنفسه .

ولم يكن الفلاح يدفع فقط المستحق للملتزم ، فقد كانت عليه أموال أخرى منها (حق الطريق) وهو ينفق على من يمر بالأرض من رجال الحكومة أو رجال العسكرية .

كذلك هناك (الكشوفية) وهى أموال تُجمع من القائمين بفلاحة الأرض ليصرف منها على نفقات الإدارة المحلية ، هذا غير الهدايا التى تقدم للملتزم ورجاله .

كذلك هناك ما يُسمى بالـ (حلوان) وهو رسم يدفعه الورثه حين تنتقل الأرض من شخص لورثتة بعد وفاته .

وتظام الالتزام له محاسنه وله مساوئه :

من محاسنه : يفترض وجود فكرة التضامن والتعاون لحد كبيرلأن من مصلحة الملتزم أن الأرض تأتى بثمرها ليأخذ ماله ، ولذا فهو يشد أزر الفلاحين فى أزماتهم ـ حاليا الدولة تقوم بهذا العمل .

لكن من مساوئه : تسلط أقليه على الكثرة ـ فالفلاح دائماً تحت رحمة الملتزم .

هذا وقد كانت الجمارك ـ رغم تحول الطريق الى طريق رأس الرجاء الصالح — مصدراً آخراً من المصادر المالية للدولة .

٣ـ الحامية العثمانية (الأوجاقات العثمانية) :

كانت فى مصر عدة فرق عسكرية من المشاة والمدفعية والفرسان ، كل فرقة منهالها قائدها ، وضابطها وسجلاتها الخاصة بها ، وعلاوة على المرتبات المخصصة للحامية ـ فقد خصص لها دخل جهة من جهات الإيراد، مثلاً جمرك الأسكندرية خصص لفرقة من هذه الفرق ، وقد أدى هذا الى تدخل رجال العسكرية فى أشياء لا تخصهم لأنه يهمهم أن يظل هذا يُدر أكبر دخل ، لكن هناك بقايا لهذا النظام ، مثلا لها أوقاف وادى الطمبلات أوقفه اسماعيل باشا على المدارس ، وسيؤدى هذا الى خلل فى النظام العسكرى .

ومن فرق المشاة الهامة فرقة (الإنكشارية) ، وكانت هذه الفرقة تزود بعدد من أبناء الأهالى المسيحيين ، يؤخذون من أسرهم ويعتنقون الأسلام ويتعلمون الفنون الحربية ، وكان الأنكشارية بمصر ينتخبون قائدهم ، وقد عهدت إليهم فى أوقات السلم أعمال خاصة كحراسة القنصليات الأجنبية ، بالأضافة إلى حراسة الموانئ كالقصير ، وقد خصصت لهم رواتب من المال الميرى ورسوم الجمارك ، وقد بدأ الضعف يدب فى الأنكشارية حين تيسر بعض ذوى النفوذ من الزج بأبنائهم وأقاربهم ضمن هذه الفرقة للحصول على رواتب وامتيازات ، بينما لم تكن لهم الميزات والصفات العسكرية اللازمة والتى كان يتحلى بها من تعلم فنون الحرب واستخدام السلاح من نعومة أظفارهم .

هذا وعلاوة على القوات البرية ـ وجدت قرات بحرية فى الموانى على البحرين المتوسط والأحمر ، وكانت هناك دور لصناعة السفن فى بولاق ، وفى السويس ، والإسكندرية .

٤ ـ الصناجق : عدد من الرجال العسكريين أطلق عليهم اسم (الصناجق) للقيام بمهام خاصة مثل :

أ ـ إدارة بعض الأقاليم ـ خاصة فى الجهات الهامة والحساسة

ب ـ إدارة الحج ـ وقد كانت مهمة شاقة فهم المسئولون عن سلامة الحجاج ، وكانت قوافل الحجاج فى ذلك الوقت تتعرض لهجمات القبائل العربية ، وقد جرت الحكومة على عمل إتفاقات مع القبائل العربية ، التى سيمر بها المحمل ، فتقسم المناطق الى أقسام يُعهد بكل لرئيس قبيلة وتدفع مرتبات لهؤلاء القوم فى نظير أن يكونوا مسئولين عن الأمن فى مناطقهم ـ لكن قد يحدث خلل أحياناً لسبب ما .

فقد لا تدفع الحكومة ما تعهدت بدفعه ، وأحياناً لأن قبيلة تريد التشفى من أخرى بأن ترتكب جرائم فى منطقتها الى غير ذلك من الأسباب .

جـ ـ توصيل الجزية للأسيتانة وهذه بالطبع تحتاج لحراسة .

د ـ قيادة بعض التجريدات التي يطلبها السلطان .

وكان الصناجق عادةً يختارون عن طريق الإنتخاب من بين رؤساء الجند ـ لكن فى العهود الأخيرة صار بعض ذوى النفوذ يتدخلون لإختيار الصناجق من رجالهم لتبقى إدارة الأقاليم تحت سلطانهم .

٥ ـ الكشاف : يكلفون بإدارة الجهات الأقل أهمية وخطورة ، وهم عادة من رجال الجندية ، وهم يشرفون على الأمن العالم فى هذه الجهات على وجه الخصوص ثم يشرفون على جمع الأموال الأميرية من الأرض .

الزراعية والأموال الأميرية التى يلتزم بها الملتزمون بهذه الجهات كما كان من مهامهم الأشراف على جسور النيل .

ولعل بعض العائلات اشتهر أفرادها بأنهم يُمارسون هذه الوظائف ولذا لصق بها هذا اللقب (لقب كشاف) .

٦ - **بكوات المماليك** : كانت مصر قبل الفتح العثمانى - تحت حكم سلاطين المماليك ، وبعد فتح العثمانيين لمصر - تركوا لأمراء المماليك مهمة إدراة الأقاليم ، وكان عدد بكوات المماليك فى مصر أربعة وعشرين ، وكان رئيسهم يُعرف (بشيخ البلد) وهو عادة أكثرهم مالاً وقدرة وأتباعاً، وقد ظهر منهم فى العصر العثمانى على بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب ، وابراهيم بك ، ومراد بك ، وعثمان بك البرديسى ، وكانت لكل منهم ادارة خاصة وكانت لهم قصورهم فى الأقاليم وفى العاصمة . [١] وكانوا يتسابقون فى شراء المماليك وتسليحهم وتدريبهم على اعمال الفروسية .

٧ - **الوظائف الدينية** : أهمها ما يتصل بالأزهر الشريف. ومشيخة الأزهر بالشكل الذى نراه اليوم مستحدثة ترجع للقرن التاسع عشر . وحتى عهد محمد على كان للأزهر ناظر من غير العلماء من الصناجق أو من رجال الجندية يُدير ماليته ،لأنه من الأهمية بمكان تدبير موارد لرزق العلماء والطلاب وكانت عادة توقف أوقاف للأزهر من السلاطين والخيريين ودخلها كان يسد حاجة هؤلاء .

---

(١) من أمثلة قصورهم الفاخرة قصر مراد بك بالجيزة ، وقد نزل به بونابرت بعد معركة الأهرام وقبل دخوله القاهرة ، وقصر ابراهيم بك فى مواجهة جزيرة الروضة وقد حوله الجنرال كليبر لمستشفى عسكرى يتسع لأربعمائة سرير.

ومن الوظائف الدينية الهامة (نقابة الأشراف) ومشيخة الصوفية ـ ثم القضاة .

٨ ـ **القضاء** : رئيس القضاة كان عادة يُرسل من الإسيتانة، وكان يعاونه عدد من القضاة ، وهناك ثبت بقضاة مصر المرسلين من الاسيتانة، ومدتهم أيضا لم تكن طويلة لنفس الأسباب التى ذكرناها عند الحديث عن الولاة ومدة حكمهم القصيرة .

ونشير الى أنه حتى فى أوربا كان شراء المناصب شئ شائع ومعترف به ولم تكن هذه معيبة بالدرجة التى ننظر بها اليوم لهذا الأمر .

دراسة ميزانية مصر فى العصر العثمانى

دراسة الميزانية تكتسب أهمية فهى تعطى فكرة كاملة عن الأصول الإجتماعية ولأقتصادية والثقافية وغير ذلك .

فإذا رجعنا لميزانية دولة من الدول حالياً ، نجد أوجه الدخل المختلفة ، ثم أوجه الصرف المتعددة فجزء للتعليم ، وآخر للجيش وثالث للأعمال العامة . ونستطيع أن نحكم على مدى عناية الدولة بالجيش أو التعليم أوالأعمال العامة من دراسة ارقام الميزانية ، فالأرقام لها دلالة هامة .

لذلك يجب أن نشير لأوجه الصرف التى قرر سليم أنه يجب أن يبدأ بسداد احتياجاتها قبل أن يُرسل أى مبلغ فائض للاسيتانة .

من هذه الأبواب :

ا - **نفقات الحامية** : فهذا أول باب من أبواب الإنفاق ، وتنحصر المبالغ المنفقة هنابصفة أصلية فى أرزاق الجند ـ بالطبع هذا له دلالته فهو يدل على أن شئون الحرب من دفاع أو غزو ـ كانت فى نظر الحكومة العثمانية فى المقام الأول ، وهذا أمر طبيعى فى دولة تغلب عليها الصفة الحربية .

٣ - **نفقات الإدارة :** وهذا هو الباب الثانى للإنفاق - المصاريف التى تُصرف على الإدارة .

بالطبع إذا قارنا بين هذا وبين الميزانيات الحديثة نجد إختلافاً واضحاً . ففى ميزانية فى عام ١٥١٧ أو أية سنة تالية لها حتى وقت محمد على لا نجد مثلاً باباً لمصاريف التعليم أو الصحة العامة أو ترقية الصناعة أو تشجيع التجارة .

هل نستنتج من ذلك إن الإدارة العثمانية فى مصر كانت تُهمل تلك المقاصد إهمالا تاما ؟

لو أخذنا بظواهر الأشياء نقول أن هذه الأشياء كلها قد أُهملت إهمالاً كاملاً إذ لا نجد ما وجه من ميزانية الدولة للصرف على المدارس أو المستشفيات أو لإنشاء مصانع أو تشجيع تجارة بحماية مثلا الصناعات الوطنية ومنع الإستيراد أو الحد منه الخ ... حقيقة الأمر إنهم، فى تلك الأوقات لم يهملوا تلك الأغراض إنما اتخذوا لتحقيقها وسائل أخرى وفهموها على وجه آخرغير ما نفهمه عليها الآن .

- فهم نظروا لأمر التعليم والتطبيب وإعانة الفقير - نظرة سامية وقدروها تقديراً - كبيراً لكن نظروا إليها علي وجه يختلف كل الأختلاف عن نظرتنا لهذه الأشياء ، هم اعتبروها ضرباً من أعمال الخير التى يُثاب الإنسان على القيام بها فى الآخرة إن لم يكن فى الدنيا أيضاً فهى أعمال ليتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى .

الأعمال الخيرية نوعان - منها ما تتكفل به الحكومة نفسها و يصرف عليها الحاكم نفسه من الأموال العامة تحت بند الأوقاف أو من أمواله الخاصة ، ومنها ما يتكفل به الأفراد المختلفون طمعاً فى مرضاة الله ونيلاً للثواب .

وبناء على ذلك لا تعتبر الدولة هذه الأعمال واجبات إجتماعية يُنفق عليها من الأموال العامة وتظهر في ميزانية الأموال العامة - إنما ما يظهر في الميزانية ما نطلق عليه (الأوقاف أو الارزاق) - بينما نجد الأغنياء يتقربون إلى الله بحبس أموالهم على تلك الأعمال المختلفة كالتعليم والتطبيب الى آخر الأغراض الخيرية المختلفة . وفى وقتنا هذا لا يترك أمر هذه الشئون للأفراد إنما تُعتبر الحكومة مسئولة عن ذلك مسئولية كاملة ولها سياسة خاصة بالتعليم والعلاج .. الخ - وهذه من واجباتها وهو حق للناس وليس إحساناً من الغنى .

- اذا انتقلنا الى شئون الصناعة والزراعة والتجارة نجد اليوم الحكومة تلتزم بسياسة معينة تجاه الصناعة والزراعة والتجارة .

وشئون الصناعة فى مصر العثمانية تختلف - فهى ترجع لأشخاص الحُكام فقد يأتى حاكم من الحكام - سلطان من السلاطين - يُعجب بصناعة ما كصناعة الغزل أو النسيج مثلاً أو صناعة السجاد - فيجتهد فى أن ينقل الصناع المهرة لعاصمته لإدخال أو ترقية هذه الصناعة هناك ونفس الشئ يقال عن الزراعة .. فهذه أمور ليست لها صفة الأستقرار متروكة لأمزجة الحكام . وهذا ما حدث حين نقل السلطان سليم مهرة الصناع المصريين الى الأسيتانه .

وفيما يتعلق بالصناعة فى مصر العثمانية تُرك أمرها لأصحابها ، فأصحاب كا صناعة ينظمونها ويشرفون عليها بواسطة الجماعات التى يكونونها والتى تشبه حاليا (النقابات) ويطلقون عليها لفظ (الطوائف) .

ونظام الطوائف يختلف اختلافا بيناً عن نظام النقابات الحالية ، فالنقابة حاليا تضم عادة الصناع الذين يشتغلون بأجر اسبوعى أو شهرى فى صناعة ما ، ومهمتها الأصلية رعاية مصالح هؤلاء الصناع

المشتغلين بأجر، والتكلم بأسمهم فى كل ما يهمهم وخاصة الناحية المادية - أما الطائفة فهى تجمع جميع المتصلين بصناعة ما مهما كان مركزهم وموقعهم فى هذه الصناعة ، فيها الرجل الذى يرتزق يومياً من تلك الحرفة كما أن فيها الرجل الذى يستخدم عدداً من الصناع - وليس مهمتها حماية مجموعة من الناس بل تهتم بكل ما يتعلق بالصناعة أو الحرفة ، فهى التى تحدد من يحترف هذه المهنة ومن لا يحترفها - فى وقتنا الحاضر وباستثناء حرف معينة تحتاج لدراسة وخبرة كالطب والصيدلة للإنسان أن يحترف أية حرفة طالما لا يمنعها القانون .

إذا أردت اليوم أن تفتح منسجاً تنسج فيه الأقمشة لا يسألونك هل عندك مؤهلات أم لا ؟ كل ما تحتاج اليه رخصة بأن الشروط الصحية متوفرة فى المكان وأنه لا يسبب ازعاجاً للجيران .

فى نظام الطوائف لابد من تمرين خاص قبل أن يُسمح لك بمزاولة حرفة لابد أن تمر بدور التمرين ، وعندما يُتم الصبى تمرينه ويحصل على الخبرة المطلوبة يُعطى له إذن يمارس بمفرده الصناعة ، وعادة يعطى الأذن فى إحتفال يُعقد فى بيت الذى سيأخذ الشهادة [1] حيث يدعو معلمه وشيوخ الحرفة الآخرين وعلى حسب مقدرته يوسع عليهم فى الأكل والشرب ويقرأ شئ من القرآن ويُعطى له الأذن - وبهذا فالطائفة تحافظ على مستوى الصناعة ويترتب على هذا عدم الخروج عن أصول الصنعة مثلا فى صناعة النسيج يحافظ على مستوى الصنعة من حيث عدد العُقد وطول الخيوط ونوعها وصنعتها - أصول متوارثة يحرصون على المحافظة عليها

(١) الأجازة : تعنى ترخيص ، ليسانس

ولهذا النظام فوائده وله مضاره :

أ - فهو يحافظ على مستوى الصناعة .

ب - النقابة (الطائفة) صلة الوصل بين الحكومة وأصحاب الصناعات .

جـ - أصحاب الحرفة الواحدة أسرة واحدة - لا مشاكل ولا نزاع بين الأجراء وأصحاب المصانع - فهو نظام أبوى ، صاحب المصنع رجل تدرج منهم ، ولد فى الصنعة وتربى فيها كما تربوا فيها جميعاً ويزاول الصنعة طوال حياته - فأهل الحرفة فى هذا النظام يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، فقد ترتب على ذلك مزايا الحكم الذاتى .

د - من مساوئ هذا النظام عدم التقدم وتجميد الأوضاع إذ يترتب على سيطرة أهل الحرفة نفسها النزعة نحو الجمود .

- فيما يتعلق بالتجارة - الدولة كانت لا تهتم من التجارة الا بوصفها مورداً مالياً للحاكم ، إنما لا يراعى وضع نظام للرسوم الجمركية لخدمة الإقتصاد القومى فمثلا - حاليا السياسة الجمركية تقوم على قواعد معينة لا يراعى فيها المال فقط ، كلهم يفرضون رسوماً عالية على الكماليات مثلاً وعلى الصناعة الأجنبية التى لها مثيل وطنى حتى لا تزاحم الصناعة الأجنبية الصناعات الوطنية فهناك اعتبارات كثيرة تراعى اليوم لتوفير الضرورات للشعب ولرعاية الصناعة الوطنية - لكن الرسوم على البضائع الواردة كانت فى العصر العثمانى مجرد مورد للدولة .

مسألة الخلافة وحقيقة الأمر بشأنها

لقد حقق سليم بفتحه الشام وتلقبه بلقب (حامى الحرمين) - أغراضه حتى أنه أعلن للمماليك أنه يكتفى بالجزية من سلطنة مصر - لكن المماليك وعلى رأسهم طومان باى أخذوا يستعدون لمحاربة سليم مما

أضطره لمتابعة مسيرته - فانتصر عليهم خارج القاهرة في موقعة الريدانية ثم دخل القاهرة وأنتهى الأمر بقتل طومان باى .

وقد ذكر كثيرون من المؤرخين أن الخليفة العباسي المتوكل على الله تنازل عن الخلافة لسليم ، وقد عالج هذا الأمر المستشرق الإنجليزى أرنولد في كتابه عن الخلافة لمعرفة الحقيقة فيما يتعلق بمسألة الخلافة فرجع لاقوال المعاصرين ، وقارن بينها وبين ما يردده المؤرخون في العصور التالية (١) .

ولم نجد في ابن إياس وهو مؤرخ معاصر للأحداث سواء في الأجزاء القديمة أو المكملة إشارة الى أن الخليفة العباسي بالقاهرة تنازل عن لقب الخلافة للسلطان سليم العثمانى (٢) .

ويدل هذا على أن مسألة تنازل المتوكل على الله - آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة لسليم غير صحيح للأسباب الآتية :

١ - الخليفة المتوكل على الله - آخر الخلفاء العباسيين - لا يملك أن يتنازل عن الخلافة لسليم - هو يستطيع عزل نفسه لكنه لا يستطيع إعطاء الخلافة لغيره - لأن الخلافة ليست رداءً يخلعه ليعطيه لآخر - هو لا يملك أن يُقيم شخصاً آخراً في مكانه - إنما تنتقل الخلافة عن طريق المبايعة من جانب أصحاب الحل والعقد ، فلابد من أن يبايع العلماء الخليفة العثمانى إذا شاءوا ذلك .

---

(١) Arnold ,Sir T.W : The Caliphate (QXford1924)

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق ١٣١١هـ)
- وقد عثرنا فيما بعد على مخطوط في الاسيتانة لكتاب بدائع الزهور أو في من الذى اتُخذ أساساً لطبعه بولاق ، وعلى أساس هذا أصدرت جمعية المستشرقين الألمان مجلدين مكملين لطبعة بولاق .

٢ ـ بحث السير أرنولد فى كل ما خلفه السلطان سليم من وثائق ، ونقود، وفرمانات ـ فوصل الى نتيجة هامة هى " إن ألقاب السلطان سليم قبل وبعد غزو مصر هى نفسها لم يزد عليها إلا لقب ـ خادم الحرمين " (١)

٣ – من كتابات المعاصرين نستطيع تتبع ما حدث للمتوكل نفسه ، فقد أرغم على مغادرة مصر مع الجيش العثمانى مع مظاهر الإحترام من السلطان سليم ، فأقام فى الآسيتانة فى شبه إعتقال عدة سنوات ، ثم صرح له سليم بعد ذلك بالعودة الى القاهرة . وفكرة سليم فى ذلك واضحة ـ نقله الى الأسيتانه لكى يضمن ألا يلتف حوله بالقاهرة أى من بقايا المماليك لأن هذا من بقايا الماضى ، مجرد ضمان إتخذه سليم ليأمن أى ثورة ـ أقام الرجل بالأسيتانة شبه أسير ، والحقيقة إنه ظهر أن شخصية المتوكل شخصية غير قوية وغير محترمة ـ عاش بالأسيتانة عيشة لهو وحرم أهله وأقاربه من الأرازق التى كان قد خصها لهم سليم ، ولما تيقن سليم من أن الرجل قليل الأهمية ـ صرح له بالعودة الى القاهرة ولم يتحرك أحد فى القاهرة لإستقبال الرجل والالتفاف حوله فعاش بها خامل الذكر حتى مات .

فالخلافة العباسية إذاً ماتت من نفسها ، أعطى لها الوقت الكافى لتنتهى ، لم يحدث إعدام أو تغيير .

---

(١) المرجع السابق الإشارة إليه

أمـا تصـوير المؤرخين المتـأخـرين للوضـع فـهـو تصـوير غـيـر سليم ، والعجيب إنه تصوير استمدوه من التاريخ الأوربى ـ من الفكرة الأوربية عن سلطة الأمبـراطور وسلطة البـابوية . فـالتمـييـز بين سلطان روحـانى صرف وسلطان دنيوى صرف ـ تمييز لا يعرفه الإسـلام ، لأن الدنيا مـا هى إلا مقدمة وتمهيد للآخرة ، المؤرخون المتأخرون صوروا الخليفة على إنه بابا وإمبرطور مجتمعين فى شخص واحد وصوروا الأحداث فى ضوء هذا المفهوم .

لكن أشير الى أن الدولة العثمانية فيما بعد حين إنتابها الضعف ، وخـرجت من تحت أيدى السلطان أقـاليم كـانت تابعـة له ـ إسـتـغل السلاطين فى العهود المتأخرة الفكرة الأوربية فادعى السلطان أن له نفوذ دينى على هذه الأقاليم التى كانت خاضعة له ، والأمثلة على ذلك متعددة ـ بلاد القرم مثلا حين ضمتها روسيا لحكمها اعترفت فى معاهدة (كوتشك كينارجى) التى عُقِدت فى عام ١٧٧٤ بين كاترين الثانية قيصرة روسيا والسلطان عـبـد الحمـيـد الأول بأن للسلطان بعض الحـقـوق الدينيـة على المسلمين فى بلاد القرم ، وحدث نفس الشئ عندما فتح الايطاليون ليبيا اعـتـرفـوا فى مـعـاهدة أوشى (لوزان) فى أكـتـوبر ١٩١٢ بأن للسلطان العثمانى حقوقًا دينية على أهل البلاد .

الذى روج للفكرة مؤرخ رومانى الأصل يدعى دوسون(Dhosson) (١) وهو يدور حول السلطات والادارات فى الدولة العثمانية ـ فقد ذكر إن السلطان سليم حين فـتح مـصـر عـام ١٥١٧ أخـذ من الخليـفـة المتـوكل سلطاته الدينية ، كما نقل للأسيتانة الآثار النبوية التى كان العباسيون

(١) D'Ohosson,I.M: Tableaux Géneral de l'Empitre Ottoman 7vols (Paris 1788-1824)

يحتفظون بها في القاهرة. فأصبح بذلك السلطان سليم بابا وامبراطوراً يجمع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، وإستساغ الأوربيون بالطبع هذه الفكرة - كما أن السلاطين العثمانيين المتأخرين وجدوا فيها - حين ضعفت الدولة وفقدت سيطرتها على كثير من ولاياتها - وسيلة لتأكيد شئ من السيادة على هذه الولايات ، ونجد ذلك واضحاً أكثر ما يكون في عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذى حكم ما يقرب من ٤٠ عاما فقد وجد في تأكيد صفة الخلافة ما يحقق له غرضين :

أ - **غرض داخلى** : فقد كان السلطان عبدالحميد يقاوم الحركة الوطنية لإقامة حكومة برلمانية في الدولة العثمانية . فتأكيد رئاسته الدينية يُضعف فكرة الحكم النيابي الذى يعتبر الحاكم مسئولاً أمام نواب الأمة ، فلا يستقيم وجود نظام نيابي صحيح مع تقديس الحاكم وإعتباره ظل الله في الأرض ، وإنه يكاد يكون ملهما .

وقد وجُد شعراء وكتاب حول السلطان عبدالحميد حثوا الناس على النظر إليه كخليفة للمسلمين - منهم من أشاع أن أداء الفرائض الخمس لا ينتفع الشخص بمثوبته إذا كان الخليفة غاضباً عليه - نحن نعلم أن الجيش العثماني قاوم ذلك واقام في عام ١٩٠٨ حكماً برلمانيا .

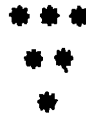
ب - **الغرض الخارجى** : رأى السلطان أن اعتراف الدول الأوربية برئاسته الدينية على المسلمين في كل الأرض فيه حماية لمصالح الدولة العثمانية ، في هذا شئ من النفع للدولة ، أن تعمل الدول الأوروبية حساباً لمشاعر المسلمين خاصة في البلاد التى تخضع لهذه الدول فهو شئ ملطف لسياسة الأوربيين تجاه الدولة العثمانية .

ومن الوسائل التى إتبعها السلطان عبدالحميد لتأكيد صفته الدينية -

الإهتمام بالحجاز والحج ، ففى وقت تجمع المسلمين للحج - كان ينطلق كتاب السلطان ومؤيدوه ، كما ينبث بين الحجاج معارضوه من المطالبين بالدستور يحاولون التقرب من المسلمين المتجمعين فى هذه المناسبة الضخمة وبث مبادئهم بينهم .

كذلك قام السلطان عبدالحميد ببناء سكة حديد الحجاز من حيفا الى دمشق جنوباً نحو المدينة المنورة لتيسير الحج ، بُنيت السكة الحديد بأموال اكتتب فيها المسلمون فى كل أنحاء العالم وكل ذلك يدعم مركزه .

حتى بعد الثورة الكمالية الكبرى-واجه مصطفى كامل مشكلة الخلافة ، وقد حاول الأتراك فى أول الأمر إقامة حكومة جمهورية فى بلادهم مع الأحتفاظ بصفة الخلافة لكن إنتهى الأمر بالغاء مصطفى كامل للخلافة نهائيا عام ١٩٢٤ .



تدهور النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم مصر وغيرها من ولاياتهم وما ترتب على ذلك من نتائج

استمر النظام الذى وضعه العثمانيون لمصر ولغيرها من الولايات العثمانية قائماً يؤدى أغراضه - ولكن لم تلبث أن أنكشفت نواحى الضعف والفساد لا فى مصر وحدها لكن فى ولايات الدولة العثمانية الأخرى أيضاً فى البلقان ، وفى الولايات الأفريقية والعربية الخ .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو ما هى أسباب هذا الفساد وذلك الضعف ؟

نُشير فى البداية الى أن هذا الفساد لم يغب عن أنظار العثمانيين أنفسهم فقد عرفوه بل منهم من كتب فى وجوه الإصلاح التى يجب إتخاذها لإصلاح الحال ، هناك مثلاً رسالة وضعها أحد رجال الحكم العثمانين يدعى (كوتشى بك) فى عيوب النظام القائم ووجوه الإصلاح ، وذلك بأمر من السلطان نفسه .

وفى رأى هذا الكاتب أن العيب يرجع إلى أن النظم العثمانية فى مصر وفى غيرها من الولايات لم تعد تطبق على وجهها الصحيح . والإصلاح الحقيقى من وجهة نظره إذاً يكون بالعودة لتلك النظم كما كانت فى صفائها الأول قبل أن تُفسدها عناصر حديثة طرأت عليها .

النظم فى حد ذاتها لاعيب فيها ، العيب هو فى عدم تطبيقها على وجهها السليم . وهذه وجهة نظر جديرة بالاحترام .

قال مثلاً إن النظام العسكري العثماني الذى وضعوه على أساس أن يجمع الفتيان بطرق مختلفة ، يعدون إعداداً صحيحا للعسكرية فيمنع إتصالهم بالحياة المدنية ولايسمح لهم بالزواج ولايسمح بدخول الخدمة إلالمن تربى هذه التربية ، كل هذا قد إعتراه الفساد والتغيير – فسمح

للإنكشارية مثلا بالزواج ، كما سمح لهم بإدماج ابنائهم في الخدمة العسكرية - فأصبحت في سجلات الجندية طوائف لم تُعد للخدمة قط .

تحدث عن النظام الإقطاعي وكيف فسد فأصبح أصحاب الإقطاعات لايقدمون ماهو مفروض عليهم من خدمة عسكرية وبذا وجدت الدولة نفسها مضطرة للإنفاق على الجيش .

ذكر أمثلة للفساد منها مثلا أن أحد السلاطين كافأ بعض المهرجين الذين احيوا حفلة ختان لأبنائه بأن ضمهم لصفوف المستحقين لرواتب الجنود .

واشار الى تدخل عناصر فى شئون الحكم رغم أنها لاصلة لها بذلك .

فكرة هذا المصلح قائمة على أن النظم فى ذاتها حسنة لاعيب فيها ، وأن المفاسد التى ظهرت وطغت ترجع الى سوء التطبيق . لكن لنا ملاحظة على وجهة النظر هذه - فقد فات هذا الكاتب أن يذكر لناهل هذه النظم التى وضعت للحكم فى أوائل القرن السادس عشر لاتزال صالحة للحكم فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، بعد أن طرأت متغيرات جذرية على الدولة العثمانية ذاتها وفى العالم كله .

<u>فى إعتقادى أن العلاج لم يعد بهذا اليسر لأسباب :</u>

١ - الدولة العثمانية فى القرن السابع عشر والثامن عشر لم تعد فى عنفوان قوتها ، ولوحاولت الدولة فى هذين القرنين مثلاً جمع الأولاد كما كانت تجمعهم فى عصر سليم الأول أو محمد الفاتح من الأمم المسيحية لتجندهم لوجدت الأمر متعذراً - فالدولة العثمانية لم تُصبح قويه - بل وهذه الدول الخاضعة لها لم تصبح بالضعف الذى يمكن الدولة من أن تجمع هذه الضريبة البشرية ، بل هل كان فى الإمكان أن تستمر الدولة العثمانية فى تجاهلها للطبيعة الانسانية

إذ أن الطبيعة الانسانية لا تسمح بالرهبنة والتفرغ لخدمة السلطان فقط ، فهذا الارغام غير مستطاع للأبد ، لابد من أن تتغلب فى النهاية الطبيعية علي قوة الحكومة .

٢- تغير مركز الدولة العثمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بالنسبة للدول الأوربية ، فبدلاً من أن تكون هى الدولة الغازية المنتصره أصبح العكس هو السائد - فقد تحركت الدول الأخرى وبدأت تغزو أقاليم كانت تابعة للدولة العثمانية فى البلقان ،وأرمينيه ، والاراضى حول البحر الأسود فى جنوب روسيا - فى مقدمة هذه الدول روسيا والإمبراطورية النمساوية .

قد يعترض قائل بأن تحرك الدولتين كان نتيجة لضعف الدولة العثمانية لا سبباً فى إضعافها - الحقيقة غير ذلك فإن المسألة ترجع الى وصول الدولتين فى هذه الفترة لدرجة كبيرة من القوة بعد التغلب على عناصر الضعف فيها ، تمت فى روسيا مثلا تحت أسرة (رومانوف) حكومة قوية قضت على عوامل الضعف فى بلادها ،كما قامت أسرة (هابسبورج) فى النمسا بنفس الدور فأصبحت النمسا دولة دانوبية لها أثرها الفعال فى البلقان وغيرها .

ترتب على هذا أن أصبحت الدولة العثمانية فى موقف جديد فنظم هذه الدولة التى وجدت فى فترة النصر وعاشت فى النصر وكان سريقانها متوقف على النصر - لم تعد قادرة على مواجهة الظروف الجديدة .

فيما يتعلق بمصر:

كان وضعها كوضع باقى الولايات العثمانية التى أصبحت فيها

السيادة العثمانية ضعيفة تكاد تكون إسمية وبرزت فيها عوامل الفساد التي عمت أرجاء الدولة .

وفيما يتعلق بنظام الحاميات العسكرية العثمانية بمصر – أصابها الفساد كسائر الحاميات العسكرية العثمانية ، فأصبحت سجلات الجند تحتوى على عناصر لا علاقة لها بالجندية بل أصبحت مرتبات الجند ملكاً يتصرف فيه أصحابه بالبيع والشراء كما يتصرف فى الأطيان أو العقارات المبنية ، ووصل الامر الى أن أناسا استثمروا أموالهم فى شراء مرتبات فى الجندية تجرى على أولادهم وبناتهم رزقاً ثابتاً – فأصبحت الحامية العثمانية بمصر إسماً على غير حقيقة – بحيث فى النهاية حين وصل الفرنسيون لمصر فى عام ١٧٩٨ لم نسمع عن حامية عثمانية تواجة الفرنسيين الغزاة .

ولما فسدت الحامية فسد النظام لأنها هى سند النظام ، وتبع ذلك أن أصبح المجال مفتوحاً لكل مغتصب ، وكل من يستند الى قوة يحصل بواسطتها على مايريد فأصبح مرد الامر فى النهاية لما نستطيع أن نطلق عليه اسم " العصبيات الخاصة " .

وهذه العصبيات متعددة ومتنوعة من أهمها :

١– قوة المماليك – التى تتبع الأمراء (البكوات) بصفتهم الشخصية فهم يستخدمون الأموال التى يحصلون عليها من أى مصدر لشراء مماليك ، ويعتمدون على هؤلاء فى حروبهم ضد بعضهم .

٢– عصبية القبائل العربية – تعتمد على نوع من العصبية القبلية فى وضع الأيدى على مساحات من الأرض ، وتقطع الطرق على من يتصدى لها.

٣– أرباب الفتوة من الأهالى – وهذه العصبية عادة توجد فى وسط هذا الاضطراب للدفاع عن النفس ، ففى الاحياء نجد رجالاً للدفاع عن أنفسهم وأتباعهم ومن يلوذون بهم .

٤- عصبية أهل العلم فى الأزهر من شيوخ وغيرهم - وهى عصبية تعتمد على الحق أكثر من القوة وعلى ما لهم من مكانة عند الناس وعند الحكام ، ويستخدمون نفوذهم للدفاع عن حقوقهم وأرزاقهم والتكلم فى رفع الظلم عن أهل البلاد .

فمجمل الوضع أن إنهيار القوة الشرعية ترتب عليه أن فتح المجال للقوات غير الشرعية ، وهذا طبيعى يحدث فى كل زمان وكل مكان - حدث فى اوربا حين عمت الفوضى وأصبح الفلاحون يضعون أنفسهم تحت حماية أصحاب الإقطاعات .

ويمتلئ تاريخ مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأثناء القرن الثامن عشر بحوادث الإغتصاب المستند الى القوة الخاصة ؛ والنزاع بين هؤلاء المغتصبين المتعددين طغى على كل الأحداث الأخرى .

لسوء حظ أهل البلاد إنه لم تستطع قوة مغتصب واحد أن تنتصر أو تستمر لمدة طويلة ، لأنه لوحدث ذلك لأمكن وضع حد للأضطراب ، ولحاول هذا المغتصب إذا كان مستنيراً - أن ينشر العدل .

ولعل أقرب مثل لذلك هو (على بك الكبير) الذى انتصر بمعاونة رجاله لفترة - لكن كما سنرى إن انتصاره لم يستمر طويلا - بضعة شهور فقط وخرج عليه من نفس الأمراء بل ومن أتباعه خارج استطاع أن يقضى عليه ، وهذا الأخير كما سنرى - كانت تستخدمه الدولة العثمانية ذاتها .

وكان الأمل أن يؤدى هذا الي حالة من الاستقرار تضع حداً للفوضى، وتحقيق هذا يمكن أن يتم بأحد أمرين :

١- إما أن يستطيع السلطان العثمانى أن يفرض سلطان الحكومة الشرعية فى مصر ويُعيد الأمور لما كانت عليه قبل فترة الإضطرابات التى أشرنا إليها .

٢- أو أن يحدث تدخل أوربي - فتفرض دولة أوربية سلطانها على مصر وتُعيد تنظيم الأمور بصورة أخرى .

وكما سنرى إن كلاً من التجربتين لم تنجح وأن الأمور تطورت في مصر الى وضع جديد كانت له آثار امتدت طوال تاريخ مصر الحديث في القرنين التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

حركة على بك الكبير ودلالتها

ا- وصوله الى مشيخه البلد :

هو مملوك يرجح إنه ولد في سنة ١٧٢٨، وأنه بيع كمملوك لأحد كبار رجال الجمارك بالإسكندرية ، وتعلم وتدرب على ركوب الخيل واستخدام الاسلحة المختلفة كغيره من المماليك ، وأصبح (كاشفا) في الثانية والعشرين ، ثم تقلد الصنجقية في عام ١٧٥٤ ، وكان على بك طموحاً في تزعم كل المماليك والوصول الى شياخة البلد بعد التخلص من المنافسين له في هذا المنصب .

ونجح على بك في عام ١٧٦٣ في التخلص من كل منافسيه فأصبح شيخاً للبلد وحرص على أن يكتسب الوالي العثماني الى جانبه ، كما أنه كسب رضاء السلطان بتسهيل إرسال (الجزيه) الى الاسيتانة ، والغلال الى الحرمين ، والأموال الموقوفه على فقراء الحجاز وباقي الأرض المقدسه ، كما عمد الي إرسال الهدايا للسلطان وحاشيته فاكتسب بذلك عطف الاسيتانه وتأييد الباشا العثماني كما حرص على علاقاته الطيبه مع القاضي العثماني والبارزين من رجال الدولة .

وفي الوقت الذى إستكثر فيه هو من شراء المماليك حتى بلغ اتباعه اكثر من٦٫٠٠٠ عمد للقضاء على نفوذ وسلطان باقي بيوت الأمراء

٢- انفراده بحكم مصر :

حين نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٧٦٨ وجد على بك في ذلك فرصة ذهبية لينفرد بحكم مصر – فتخلص من الباشا وانفرد بالسلطة في البلاد كاملة ، و لم تستطع الدولة العثمانية – خاصة بعد هزائمها المتعددة ضد القوات الروسية وتقهقرها عبر نهر الدانوب وخروجها من شبه جزيرة القرم – التصدى لعلى بك .

ولتنفيذ مخططه استصدر على بك أمراً من الديوان بعزل الباشا العثماني وتولى هو الأمر مكانه متخذاً لقب قائم قام ، وأبقى على بك مظاهر السيادة العثمانية كالخطبة للسلطان والعملة والجزية السنوية .

وأخذ على بك يبث رجاله في مختلف أنحاء البلاد ويضعهم على رأس المراكز الهامة ، فعين مملوكه (محمد بك أبو الذهب) رئيساً لشرطة القاهرة ، وبذا يمكن القول إن على بك كان يستهدف الإنفراد بحكم مصر مع اعترافه بسيادة الباب العالي ، وان مصر في السنوات التى خلصت فيها السلطة له لم تستقل استقلالا تاماً عن الدولة العثمانية بل ظلت تابعة لها والدليل على ذلك :

أ- انه لم يلقب نفسه أبداً بلقب سلطان مصر ، بل إن جميع الوثائق والفرمانات تشير إليه باسم (قائم مقام مصر) .

ب – العملة الفضية التى أمر بسكها في عام ١٧٦٩ نقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثماني وعلى الوجه الاخر ضُرب في مصر .

جـ – ذكر الجبرتي صراحة أن على بك لم يقبل أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة بدلاً من اسم السلطان العثماني .

لكن اضطرته المجاعة التى اجتاحت مصر في عام ١٧٧٠ إلى فرض المزيد من الضرائب ، كما استحدث رسوما جديدة ، ولجأ الى اجبار الموسرين والتجار الأجانب على تقديم القروض للدولة .

واتجه على بك الى تكوين جيش كبير يعتمد عليه فى السيطرة على البلاد ولتحقيق أطماعه الأخري فى التوسع .

ولما كان يد رك أن الدولة العثمانية لن تتركه وستتحين الفرصة للإيقاع به ـ فقد اتجه الى التحالف مع (ظاهر العمر) حاكم عكا والذى كان يطمع هو الآخر فى الانفراد بالسلطة ، وذلك لتأمين جناحه من جهة سوريا ، وقد أدركت الدولة العثمانية خطورة هذا التحالف فاتجهت الى والى دمشق (عثمان بك العظم) لتحول دون اتصال قوات على بك بقوات الشيخ ظاهر فى عكا .

٣- ضم الحجاز والشام :

بعد أن استقرت الامور فى مصر لعلى بك تطلع لإخضاع الحجاز ، وكان الحجاز فى ذلك الوقت خاضعاً لحكم (الأشراف) الذين اعترفوا بالسيادة العثمانية منذ أن دخلت قوات السلطان سليم مصر عام ١٥١٧م

وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية فى الحرب ضد روسيا بالإضافة الى النزاع بين الأشراف فى الحجاز ـ فأعد حملة بقيادة محمد بك ابو الذهب لمد سلطانه الى الحجاز .

<u>ويرجع إهتمام على بك بالحجاز الى عدة أسباب :</u>

أ- مركز الحجاز الدينى يمثل أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين ، فبسط نفوذه على الحجاز يرفع من هيبته .

ب - السيطرة على سواحل الحجاز وموانيه تمثل أهمية إستراتيجية واهمية اقتصادية بالنسبة لمصر .

جـ- إتجاه الدول الاوربية من جديد الى إحياء طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط المؤدى ، للهند والشرق الاقصى ، وكان الرحاله الانجليزى (James Bruce) قد زار مصر فى عام ١٧٦٨م وتناقش مع على

بك الكبير فى مشروع فتح الطريق التجارى القديم بين الهند وأوروبا بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح – وقد وجد على بك فى ذلك خيراً يعود على حكام مصر فى إعادة طريق التجارة اليها. (١)

ونجحت الحملة التى كان يقودها محمد بك أبى الذهب فى احتلال ينبع ، ومكة ، وعين أحد الاشراف الموالين لعلى بك (عبد الله بن حسن إبن يحيى بن بركات) فى مركز الشرافة ، وترك محمد ابى الذهب حامية فى جده ، وعين حسن بك الصنجق المصري لإدارة هذا الميناء وعاد ببقية جنوده الى مصر مرة ثانية .

وقد عقد على بك بعد ذلك إتفاقية تجارية مع شركة انجليزية تتعلق بالتجارة في البحر ألاحمر والرسوم الجمركية التى تفرض على البواخر الانجليزية المارة به ، وترتب على هذا إحياء الملاحة فى هذا البحر، وطرح على بساط البحث موضوع وصل البحر المتوسط والبحر الأحمر بقناة .

وقد شجع إنتصار جيوش على بك فى حملة الحجاز على التفكير فى إرسال حملة أخرى الى بلاد الشام – خاصة أن بلاد الشام فى ذلك الوقت كانت تُعانى كبقية الولايات العثمانية من الضعف والتفكك وتعدد الطوائف المتنازعة حتى أن سلطة ممثلى السلطان فيها لم تكن تتعدى نطاق المدن .

هذا بالاضافة الى أن على بك كان قد وعد بنجدة حليفه ظاهر العمر والى عكا والخارج أيضاً عن سلطان الدولة .

وقد أثار بعض المؤرخين تساؤلاً عما إذا كان على بك قد أراد بغزو الشام أن يصل الى القسطنطينية ويعتلى عرش السلطنة ؟ وهو نفس

---

(١) جيمس بروس رحالة اسكتلندى يرجع له الفضل فى الكشف عن منابع النيل الحبشية وقد سجل مشاهداته وأخبار رحلته فى خمس مجلدات :

Bruce, J. : Travels to Discover the Source of the Nile in the Years (1768 -1773)

ماقيل عن نابليون حين جاء لمصر على رأس الحملة الفرنسية – وما قيل عن محمد على حين خرج للشام لمحاربة قوات السلطنة العثمانية بها .

لعل على بك كان يرمي من حملته على سوريا تحقيق عدة أهداف منها .

ا – تأمين وضعه فى مصر إذ أن بلاد الشام هى الباب الشمالى الشرقى لمصر .

ب – تدعيم مركز حليفه ظاهر العمر .

ج – القضاء على قوة باشا دمشق وغيره من الباشوات العثمانيين الذين اتخذت منهم الدولة سلاحاً لمحاربة والى مصر وحليفه والى عكا .

د – ولتحقيق أهدافه اتصل على بك بالكونت ارلوف (Orlov) قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ،كما اتصل بجمهورية البندقية عن طريق التاجر البندقى روستى (Rosetti) لتقدما له العون فى حربه ضد القوات الموالية للعثمانيين فى الشام .

وتقدمت قوات على بك وعلى رأسها قائده محمد بك ابو الذهب صوب الشام فإستولت على غزة ، ونابلس ، ويافا ، والرملة ، واللد ، وصيدا وسقطت دمشق فى يده فى أبريل ١٧٧١ – وأصبح على بك بذلك سيد سوريا بلا منازع .

المناطق التي خضعت لنفوذ على بك الكبير

شكل ٢

المناطق التى خضعت لنفوذ على بك الكبير

خروج محمد بك ابى الذهب على سيده :

لم يستقر الأمر طويلاً لعلى بك فى سوريا فقد خرج عليه مملوكه محمد بك أبو الذهب الذى عاد على رأس قوته الى مصر ، وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد الشامية المفتوحة ، وقد نجح ابو الذهب فى أن يؤلب بكوات المماليك ضد سيده فوصفه بالكفر والإلحاد والأتصال بالروس والبنادقة أعداء السلطان والذين يسعون للقضاء على الإسلام ، كما نجح ابو الذهب فى أن يوهم كبار رجال جيشه بأن على بك يهدف بهذه الحروب إلى ان يقضى هؤلاء اعمارهم فى الأسفار والحروب والبعد عن الأوطان .

وقد تساءل البعض عن أسباب هذا الاتجاه من القائد المملوكى ضد سيده فذهب بعضهم الى أن ذلك يرجع :

١- الى أن محمد بك ابى الذهب أدرك أن الواجب على كل مسلم أن يقف الى جانب دولة الخلافة خاصة إذا كانت فى حرب مع دولة غير إسلامية .

٢- أطماع محمد بك أبى الذهب نفسه فى أن يحل محل سيده خاصة أن طبيعة النظام المملوكى تثير أطماع أى طامع فى الحكم .

ولاشك فى أنه مهما يكن الدافع وراء حركة محمد بك ابى الذهب فإن العاملين قد أثرا فى الموقف .

٣- يُرجع بعض المؤرخين الأمر الى أن الباب العالى قد اتصل بأبى الذهب سراً وربما تم ذلك عن طريق عثمان باشا والى دمشق والذى نجح فى إقناعه بالإنتفاض على سيده وصهره على أن يحل محله فى مشيخة البلد .

على كل استطاع أبو الذهب أن يؤلب بكوات المماليك ضد على بك الكبير ، وهرب على بك الى سوريا ليستعين بصديقه ظاهر العمر ، كما أنه اتصل بالكونت (أورلوف) قائد الأسطول الروسى ليرسل له مدداً من الجنود والمدافع والخبراء ، واستطاع على بك بمعاونة حليفة ظاهر العمر إستعادة نفوذه فى غزه ، واللد ، والرمله – لكن نجح ابو الذهب فى استدراج على بك الكبير الى مصر فأوعز لبعض بكوات المماليك الموالين له ليكتبوا لعلى بك يستنجدون به من ظلم ابى الذهب ويعد ونه بالمعاونة للسيطرة من جديد على مصر – ووقع على بك فى الشرك المنصوب له وتحرك بجيشه عائداً لمصر فكان جيشه مكوناً من بعض مماليكه ومن جنود الشيخ ظاهر العمر .

وبالقرب من (الصالحية) دارت رحى المعارك الحامية بين جيش على بك وجيش خصمه المنشق عنه وجرح على بك فى هذه الموقعه ووقع فى أسرابى الذهب ومالبث أن مات بعد أيام فى مايو ١٧٧٣ .

وأستأثر محمد بك ابو الذهب بكل النفوذ فى مصر واعتمد على تأييد العثمانيين له .

وقيل أن تلقبه باسم ابو الذهب يرجع الى أنه كان يُغدق الذهب على الناس .

وأظهر محمد ابى الذهب الولاء والخضوع للدولة العثمانية فأنتظم فى دفع الجزية ورحب بالوالى الجديد الذى ارسلته الدولة واحتفى به .

ولما استقر الأمر بمصر لمحمد بك ابو الذهب ـ فكر فى القضاء على سلطة ظاهر العمر حليف سيده فأعد حملة كبيرة فى مارس ١٧٧٥ م استولت على غزة ويافا التى سلمت له بعد مقاومة عنيفة من رجالها ، وانتقم محمد أبو الذهب من حاميتها شر إنتقام فأطلق العنان لرجاله

للنهب والتقتيل حتى أن الجبرتي يذكر إن هذه المجزره ترجح – سيئات محمد بك ابو الذهب على حسناته .

وانتهى أمر ظاهر العمر بقتله برصاص أحد جنوده وصدر فرمان بتعيين محمد ابو الذهب اميراً على مصر والشام – لكنه لم يلبث أن توفى فجأة في ٨ يونيه ١٧٧٥ .

إضطراب أحوال مصر فى عهد ابراهيم و مراد

ترتب على وفاة ابي الذهب أن عمت الفوضى مصر من جديد وكثرت المنازعات بين المماليك كلٌ يستبد بالأمر ويسعى لأن يحصل على المشيخة وبرز على الخصوص شخصان من المماليك ابراهيم بك ومراد بك وأصبحت القاهرة مسرحاً للمؤامرات والدسائس بين أتباع كل منهما .

وحاولت الدولة العثمانية أن تبسط سلطانها على مصر وأرسلت حملة بقيادة القبطان (حسن باشا) لردع المماليك وإخضاع البلاد للسيطرة العثمانية – لكن وإن كان هذا القائد العثماني قد نجح في السيطرة على الامور بالقاهرة. فقد عجز عن إخضاع الصعيد حيث فر المماليك وأتباعهم، كما اضطرت الدولة العثمانية لاستدعائه عندما تجددت الحرب بينها وبين روسيا، فاستعاد بكوات المماليك سطانهم علي القاهرة ، وأدت هذه الفوضى الى إرتباك إقتصاد البلاد فانتشرت المجاعات والأوبئة وجاء انخفاض مياه النيل ليزيد من هذا الضنك الذى عانى منه السكان .

ولم تقف هذه المعاناة علي المصريين من الفلاحين وغيرهم فقد امتدت أثارها على الأجانب الذين كان كثير منهم قد جاء للقاهرة والإسكندرية للتجارة ، فقد تعرضت متاجرهم للنهب والسلب ووصل الأمر. كما ذكر قنصل فرنسا في مصر. شارل ميجالون (Charles Magallon) الى أنهم اضطروا لدفع الاتاوات للمماليك لتأمين أرواحهم وأموالهم .

وقد أهمل مراد بك وابراهيم بك – اللذين إقتسما السلطة فيما بينهما – شئون البلاد فردم عدد كبير من الترع والقنوات وزحفت الصحراء على الأرض الزراعية ، ولعل تقرير (فولنى) الرحالة الفرنسى عن أوضاع مصر فى ذلك الوقت وعن حالة الضعف الذى وصلت إليها قوتها العسكرية يعطى صورة واضحة عن الأوضاع الحقيقية .

مراجع للمزيد من الدراسة

اولا : باللغة العربية :

١- جلال يحيى : مصر الحديثة (١٥١٧ - ١٨٠٥) ، القاهرة ١٩٦٩

٢- حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ - ١٧٩٨)- (جزء فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى) .

٣- حسين مؤنس : الشرق الإسلامي فى العصر الحديث (١٩٣٨)

٤- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٠)

٥- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ـ٣ اجزاء (القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٣) .

٦- عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر(بيروت ١٩٨٠) .

٧- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ - ١٩٢٢) (١٩٨٤) .

٨- محمد أنيس والسيد رجب حراز : المشرق العربى في التاريخ الحديث والمعاصر.

٩- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير (القاهرة ١٩٥٠ م)

ثانيا: مراجع اجنبية

1- Arnold sir T.w : The Caliphate (Oxford 1924)

2- Creasy E. s. : History of the Ottoman Turks from the beginning of their Empire to the Present time (london 1931)

3- D' ohsson ,I. M :Tableaux General de l Empire Ottoman7-vols (Paris 1788 - 1824)

4- Merriman R.B : Suleiman the Magnificent (1520 156) (N.y . 1966)

5- Witteck . P. : The rise of the Ottoman Empire (london 1930)

" الفصل الثانى "

الحملة الفرنسية على مصر

(١٧٩٨ - ١٨٠١)

محتويات الفصل :

مقدمة

* أحوال مصر قبيل مجئ الفرنسيين .
* تغير وضع البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وماترتب على ذلك .

اولا – دوافع الحملة الفرنسية على مصر .

ثانيا – الحوادث الحربية فى فتح مصر .

ثالثا – بونابرت فى مصر .

رابعا – موقف المصريين من الفرنسيين .

خامسا – حملة الشام ونتائجها .

سادسا – عودة بونابرت الي فرنسا .

سابعا – كليبر وقيادته للحملة .

ثامنا – مينو وقيادته للحملة .

تاسعا – جلاء الفرنسيين عن مصر .

عاشر نتائج الحملة .

أولا : أحوال مصر قبيل مجئ الفرنسيين

كانت مصر - كما أوضحنا سابقاً - أشبه شئ بطاحونة تدور باستمرار دون توقف ودون نتيجة واضحة ، فكان لابد أن تنتهي هذه الحالة وكان التغيير المنتظر :

١- إما أن أحد الامراء يتغلب على منافسيه ويكون أسرة حاكمة ترث الحكم كما عمل محمد على باشا فيما بعد - ولعل أقرب محاولة من هذا القبيل هى محاولة على بك الكبير ، لكن كما رأينا إنه لم ينجح فى محاولته هذه ونجح محمد على فيما بعد ، وذلك راجع لظروف عمل كل منهما - فمحمد على بدأ محاولته بعد أن فتك الفرنسيون بالمماليك وأضعفوهم ، وعمد محمد على كما سنرى لتصفية بقية العصبيات التى كانت موجودة . ولقد أشار الشيخ محمد عبده فى مقال له الي ذلك ، وهاجم محمد على بعنف وحمّله مسئولية تيسير مهمة الاستعمار الأوربى لمصر فيما بعد لأنه كما ذكر لولم يقضِ على العصبيات القومية التى كانت باقية بمصر - لاستطاعت أن تكون حكومة مقيدة واستدل على ذلك بأمراء الإقطاع فى اوروبا .

ولعل هذه الاتجاه مبالغ فيه وبعيد عن الصواب - ففى أوروبا لم يحدث أن سعى أمراء الاقطاع لتقييد الملكية اللّهم الا فى انجلترا ، كما أن هناك فرق كبير بين أمراء الإقطاع الأوروبيين وبين العصبيات فى مصر فهذه البيوت الإقطاعية الاوربية بعضها أقدم بكثير من الأسرات المالكة .

٢- الإحتمال الثانى - إن الدولة العثمانية نفسها تتدخل لتعيد السلطة الشرعية نفوذها - وحدثت فعلاً محاولة من هذا القبيل حين أرسلت الدولة

اسطولاً على رأسه (حسن باشا الجزائرى) فى عام ١٧٩٠، وقد نجح فى أن يقيم أحد المماليك (اسماعيل بك) مكان مراد وابراهيم، لكن مات اسماعيل بك وعدد كبير من أتباعه بالطاعون واستطاع مراد بك وابراهيم بك إسترجاع سلطتهما من جديد

وقد حاول حسن باشا أثناء وجوده بمصر إحياء العسكرية العثمانية فاستعرض الحامية العثمانية لكنه لاحظ أنها وصلت لدرجة لاتجدى فيها محاولة الإصلاح .

٣- الاحتمال الثالث للتغيير هو أن دولة أوروبية تتدخل ، ولم تكن الظواهر تشير الى حدوث هذا الحل أيضاً ، فبعد انتهاء الحروب الصليبية لم تكن مصر هى موضع أنظار أوربا بل سار الإتجاه الدينى نحو اخراج العثمانيين انفسهم من البلقان .

ثانيا : تغير وضع البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

بعد الكشوف البحرية تغيرت طرق التجارة – تجارة الشرق فاتجهت للمحيطات ، وفقد البحر الأحمر والمتوسط أهميتهما .

لكن تغيرت الاوضاع وبدأت الحياة تدب من جديد فى البحر المتوسط وتحقق هذا الإحتمال الثالث السابق ذكره رغم ماذكرناه عن إنه كان بعيد الحدوث .

أما العوامل التي جعلت للبحر المتوسط من جديد أهمية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فنجملها فيما يلى :

١- ضعف الدولة العثمانية الذى ظهر للعيان والذى تزايد وتضاعف نتيجة للفساد الداخلى والضربات التي وجهتها النمسا وروسيا للدولة وأملاكها

والدولة العثمانيّة تسيطر على مناطق إستراتيجية هامة مثل البسفور والدردنيل ، ومناطق تطل على البحرين المتوسط والأحمر مما جعل الدول الأوربية تفكر فى أن تحل محل هذه الدولة الضعيفة خوفاً من وقوع أملاكها في يد منافس لها - وقد أعاد هذا للبحرين الأحمر والمتوسط أهميتهما القديمة .

٢- تأكدت سيادة انجلترا في الهند فى منتصف القرن الثامن عشر وترتب على هذا إهتمامها بالطرق البحرية والبرية المؤدية للهند (اتخذت الملكة فكتوريا رسمياً لقب امبراطورة الهند فى سنة ١٨٥٧).

٣- قيام الثورة الصناعية الكبرى فى انجلترا وغيرها واعتمادها على الإستيراد والتصدير للأماكن البعيدة مما جعل للبحر المتوسط شأناً كبيراً فى هذا المجال .

٤- البحر المتوسط فى الأصل ميدان لفرنسا لأن لها واجهة هامة على هذا البحر ، ومنذ منتصف القرن الثامن عشر- أخذت فرنسا تنظر لهذا البحر نظرة خاصة باعتباره منطقة تمر فيها طرق عالمية ، خاصة بعد أن خسرت في ميدان التنافس الإستعمارى فى الهند ، وامريكا ، وجزائر الهند الغربية - فأخذت تفكر فى الاستعاضة عما فقد ته من مستعمراتها فى هذه المناطق بأملاك بعضها فى البحر المتوسط ، كذلك فكرت فى إحياء الطرق التجارية القديمة لتجني من وراء ذلك ماكانت تجنيه الجمهويات الإيطالية - وتحت مشروع الإحياء هذا تدخل السيطرة على ألاراضى العثمانية التى تنتهى إليها هذه الطرق التجارية ومنها مصر والشام وحتى إذا استدعى الأمر شق القنوات وتوصيل البحار ، ولعل هذا مادعا للتفكير فى بحث مشروع وصل البحرين .

٥- نظرت فرنسا الي أن إحياء الطريق البحرى - طريق البحر الأحمر والمتوسط يمكن أن يمهد للإنتقام من الانجليز - فإن لم يمكن طردهم من الهند فعلى الأقل يمكن تحريض الكارهين والمعارضين للحكم الانجليزى فى الهند - وهكذا أصبحت للبحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بالنسبة لفرنسا أهمية تمتد لماوراء هذا البحر وما يؤدى إليه من أقاليم .

٦- كذلك بدأت دول أخري فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر تنظر نظرة إهتمام للبحر المتوسط .

فروسيا : مثلاً التى نجحت فى الوصول للبحر الأسود - بدأت تشعر أن أهمية البحر الأسود ترجع إلي انه يوصل لأفاق أوسع بوصولها للبحر المتوسط - فبالاضافة الى أطماع روسيا فى السيطرة على الاسيتانة التى كانوا يعتبرونها مفتاح البيت الروسى - فإن البحر المتوسط والوصول إليه سيمكنهم من توثيق الإتصال مع الشعوب المسيحية فى الشرق الأوسط التى أخذت روسيا علي نفسها أن تحميها منذ عقدت عام ١٧٧٤ معاهدة مع الدولة العثمانية أصبحت بموجبها فى موضع حامي الكنائس المسيحية (الارثوذكسيه) وأدى بالطبع لمنافسة بين فرنسا وروسيا فى هذا المدمار ، بل قياصرة روسيا وضعوا أنفسهم موضع الحماة لفرسان القديس يوحنا فى مالطة مع أنهم كاثوليك .

كذلك اتجهت النمسا - فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر للإهتمام بمد نفوذها فى إتجاه بحر إلادرياتيك وسواحل البحر المتوسط . وبهدف أن تكون وريثة بندقية العصور الوسطى واحياء مركز البندقية القديم . وفى معاهدة (كمبوفورميو التى عُقدت في عام ١٧٩٧) اتجهت فرنسا والنمسا لتحقيق هذه الفكرة - ووضعت فرنسا يدها على الجزائر

والنمسا علي البندقية وممتلكاتها في الأرضى الايطالية ، واستمرت البندقية أرضاً نمساوية من سنة ١٧٩٧ على فترات حتى ١٨٦٦م حين تحققت الوحدة الإيطالية .

وأشير الى أن هذه المحاولات لإحياء البحر المتوسط ترتب عليها قيام شركات منحت من الحكومات حق إحتكار التجارة في هذا البحر ، وهذه الشركات لجأت للحصول من الحكومات ثم من أصحاب السلطات المحلية وبعضهم مغتصبين للسلطة علي حقوق واتفاقات تكفل لهم نجاح مشاريعهم .

دوافع (أسباب) الحملة الفرنسية على مصر[1]

أشير في البداية الى أن مايردده الكتاب من أن هذه الحملة ترجع للحروب الصليبية أو لمشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين الدول الكبرى خطأ للأسباب الآتية :

١- الدوافع التي دعت لفتح مصر في أيام الحروب الصليبية لاوجود لها في القرن الثامن عشر - ففي أيام الحروب الصليبية كان الاتجاه لمصر مرتبطاً بإضعاف القوة الإسلامية المدافعة عن بيت المقدس وهذا الامر لم يكن له أي وجود في القرن الثامن عشر .

٢- إرجاع أصل الحملة والهدف منها لمشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين الدول الكبرى خطأ أيضاً لأسباب نُجملها فيما يلي :

(أ) لأن أكثر هذه المشروعات التي برزت فيما بعد لم تكن معروفة وقت الحملة .

(ب) كما أن تقسيم الدولة العثمانية وأملاكها بين الدول العظمى في ذلك الوقت لم تكن في يوم ما قاعدة لسياسة خارجية للدول الأوربية حتى في الوقت الذي كان فيه تفاهم بين دولتين منها على إقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية - فإن التفاهم لم يتم طويلا ولم ينته لنتيجة ، ولقد أثبتت الأحداث إنه لاتوجد دولة أوربية تسمح لدولة أخرى باقتطاع أي جزء من الدولة العثمانية مهما كان المقابل .

---

(١) للمزيد من المعلومات يرجع إلى :
عبدالرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر - الجزء الأول

وقد ثبت أن جزءً كبيراً من مشروعات التقسيم هذه لم يكن لامن قبيل طرق السياسة التي يقصد بها إبعاد انظار دولة عن جهة ليتاح لأخري إبتلاع شئ أخر .

على كل حتى من يشيرون لمشروعات تقسيم الدولة العثمانية فهم يذهبون الي أن لفرنسا مركز ممتاز في الشرق العثماني وأن الطوائف المسيحية في سوريا وغيرها تعترف لفرنسا بهذا المركذ - وحتى مشروعات التقسيم هذه فيها إعتراف أوشبه اعتراف من الدولة بهذا المركز الممتاز لفرنسا في البحر المتوسط وفي بعض الأقاليم التابعة للدولة العثمانية المطلة عليه .

الأسباب الحقيقية للحملة الفرنسية على مصر :

أولاً : يرجع التفكير في توجيه حملة فرنسية لمصر في عام ١٧٩٧ الى (مسألة أوربية) صرفه هي قبل كل شئ (العلاقات الإنجليزية الفرنسية في ذلك الوقت) .

فد راسة وضع كل دولة من الدولتين في ذلك الوقت يوضح الأسباب الحقيقية وراء إرسال الحملة فرنسية لفتح مصر في عام ١٧٩٧م .

فرنسا : في ذلك الوقت نجحت في أن تدفع المغيرين عن بلادها بل نقلت ميدان الحرب خارج فرنسا ذاتها وفرضت سيادتها على الأراضي المنخفضة وسويسرا و ايطاليا وأضطرت كل القوى الأوروبية تقريبا الي عقد صلح معها .

لكن موقفها مع انجلترا كان غير مستقر لأن فرنسا كانت تدرك أن نجاحها لن يكون تاماً مادام الإنجليز غير معترفين بموقعها .

كانت فرنسا منتصره في أوروبا ، إنما انجلترا كانت في حرب معها فلم يكن معقولاً أن تهمل فرنسا شأن انجلترا لأنها تـ ـم أن انتصارها مؤقت مادام لم ينه المسألة مع انجلترا .

ففرنسا إذاً ميقنة بضرورة نهو المسألة مع انجلترا ، وكان التفكير مركزاً على – كيف يمكن ذلك ؟

بالطبع فكرت الحكومة الفرنسية أولاً فى غزو انجلترا أو إيرلنده لكنها أيقنت أن الاعتماد على الغزو وحده لن ينجح فلابد للجيش الغازى من الاعتماد على عوامل الاستياء في ايرلنده أو انجلترا – علي حدوث إنقلاب فى هذه البلاد . كان هناك تفكير في إرسال حملات – لكن بدا هذا المشروع فاشلاً لان الايرلنديين لم يكونوا مستعدين للخروج على حكومتهم فكان لابد من التفكير فى حل آخر .

انجلترا : ترتكز قوتها علي البحرية ، وفعلاً عملت البحرية الإنجليزية كل مافي وسعها ، فطهرت البحار من التجارة الفرنسية والبحرية الفرنسية– ووضعت يدها على كثير من مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار – لكن كانت انجلترا تعلم أيضاً إنه لن يكون لتصرفها هذا قيمة إن لم تنتصر في البر على فرنسا .

<u>ولكى يتحقق هذا كان أمام انجلترا أحد طريقين :</u>

ا– إما أن يكون لها حلفاء فى أوربا تمدهم بالمال والسلاح والحصار البحرى لينتصروا على فرنسا ، وفعلاً أمدت انجلترا أعداء فرنسا بذلك لكن لم ينجح حلفاؤها فى تحقيق النصر.

ب – أو إنزال جيش انجليزى برى الى أوربا – لكن لتحقيق هذا كان لابد من وجود ميدان يتصل بانجلترا بحراً بسهولة لتكون القوة الإنجليزية فى هذا الميدان على إتصال تام بانجلترا نفسها حتى إذا هزمت يمكن سحبها فوراً .

أويكون لانجلترا حليف يقاتل مع جيوشها بالقارة الأوربية ولم يتوفر هذا إلا أثناء ثورة (أسبانيا) فيما بعد أثناء حروب بونابرت .

ثانياً : ارتبط أيضاً التفكير فى مشروع ارسال حمله فرنسية لمصر عام ١٧٩٧ – بالأوضاع فى فرنسا ذاتها ولسياستها تجاه الدولة العثمانية .

١ - فيما يتعلق بأوضاع فرنسا :

أخذ كثيرون من المفكرين فى فرنسا يفكرون فى وجوب إتجاه الحكومة الفرنيسة الي سياسة الاستعمار، ومن هؤلاء تاليران (Talleyrand) وزير خارجية فرنسا الذي اعتقد أن حمي الثورات والانقلابات والعنف وفتك الاحزاب بعضها بالبعض الآخر التى اجتاحت فرنسا لاعلاج لها إلا بفتح ميادين أخرى لأن مثل هذه الميادين سيترتب عليها :

(أ) أن ينصرف الشباب الفرنسي لهذه الجهات الجديدة ، يصرفون فيها حماسهم ونشاطهم الذى بعثته الثورة فيخفف ذلك من حوادث العنف التى كانت تعانى منها فرنسا .

(ب) تعويض فرنسا عن مستعمراتها قبل الثورة فى (الهند وكندا) ، ولعلهم كانوا يرون في وادى النيل خير تعويض عما فقدته فرنسا خاصة لحاصلاته إلاقتصادتة المتنوعة وموقعه التجارى والإستراتيجى الهام .

٢- فيما يتعلق بسياسة فرنسا تجاه الدولة العثمانية : فقد كانت من فترة طويلة سياسة ود وتقارب ، وبناءً على ذلك كان لفرنسا إعتبار خاص فى التجارة مع الدولة العثمانية ، وكان لها إعتبار خاص بأعتبارها حامية للكنائس المسيحية فى الدولة العثمانية – لكن ضعف الدولة العثمانية المتزايد فى القرن الثامن عشر جعل الحكومة الفرنسية تُعيد النظر فى سياستها تجاه هذه الدولة – وكان هناك تساؤل هل من الصواب والحكمة الإستمرار فى سياسة مساندة الدولة العثمانية رغم أن هذا لن ينقذ هذه الدولة من مصيرها المحتوم- وهو الزوال، أليس من الأفضل أن تتجه السياسة نحو أخذ شئ من

أراضى هذه الدولة الضعيفة السائرة فى طريقها للزوال - علي كل رغم هذا التفكير ورغم أن عدداً من الكتاب كتبوا في هذا الإتجاه. ان الحكومات الفرنسية فضلت كلها تقريباً السير على سياسة المحافظة علي الدولة العثمانية ، بل ذهب بعضها الي أكثر من ذلك الى معاونة العثمانيين على إصلاح أمرهم .

ثالثا : ظروف الحرب مع انجلترا :

أدت الأوضاع التى آلت اليها العلاقات الانجليزية الفرنسية الى أن الحكومة الفرنسية قررت إعداد حملة بحرية وأخرى جوية لغزو انجلترا ، وأتخذت الإستعدادت فى موانى فرنسا المختلفة لهذه الحملة ، وأنيط بالجنرال بونابرت أمر قيادة هذه الحملة - لكن فى زيارة القائد للموانى للوقوف على الاستعدادات للحملة ومناقشته للأوضاع مع معاونيه - وجد أن إحتمال النجاح في مثل هذه الحملة المزمع القيام بها لغزو انجلترا ضئيل ، فأوقف حكومته على رأيه هذا - وعرض على حكومة الإدارة فى فرنسا - كبديل لحملة الغزو هذه - فكرة توجيه هذه الإستعدادت كلها نحو تحقيق مشروع غزو مصر لضرب انجلترا عن طريق تهديد مواصلاتها مع الهند جوهرة التتاج البريطانى

الإعتراضات التى وجهت للمشروع ورد بونابرت عليها :

كان ثلاثة على الأقل من أعضاء حكومة الادارة الخمسة معارضين لفكرة مشروع الحملة على مصر - وتتلخص أهم الاعتراضات على هذا المشروع والردود عليها فيما يلى :

أ- قيل إن الجو السياسي في أوربا ينذر باحتمال نشوب حرب، فالصلح الذى عُقد بين فرنسا وأعدائها لم يكن إلا هدنة لم تحل أسباب الخلاف بين الدول - فهل من المنطلق أن تبعد فرنسا جيشاً من

٤٠٠٠ر٤٠ مقاتل عنها وتبعد أسطولها الحربي الوحيد ، والجنرال بونابرت ، وأكفأ القواد الآخرين فى وقت قد تحتاج فيه إليهم لحماية الوطن ذاته فلا تجدهم .

وكان الرد على هذا الإعتراض أن فتح مصر لن يستغرق وقتاً طويلاً فسيتم هذا الفتح في وقت قصير ثم تنشأ فيها حكومه جديدة وتترك لتعمل - كما أن إمتلاك مصر سيجعل فرنسا إذا دخلت الحرب ضد انجلترا في مركز اقوى مما هي عليه الآن .

ب- قيل لبونابرت إننا أعلنا أن سياستنا سياسة تحالف وتعاون مع تركيا- فهل من الأخلاق بعد ذلك أن نقتطع جزءً من أملاك هذه الدولة بدون مبرر ؟

كان الرد على هذا أن السلطان في الحقيقة لانفوذ له في مصر فقد اغتصب المماليك السلطة ومنعوا إرسال الأموال للسلطان ، وارهقوا الاهالى والتجار الأجانب بالضرائب - ففتح مصر سيترتب عليه أن يرد السلطان سلطته ، ويؤدب المماليك ، ويحمي الطبقة المنتجة فى مصر وبذا تؤدى للسلطان خدمة عجز هو عن ان يؤديها لنفسه .

جـ - قيل لبونابرت هل تعرف ما ستلاقيه الحملة من مقاومة ومدى ما يتوقع لها من نجاح فى مهمتها ؟ .

كان الرد أن جميع الأقوال اثبتت أن مصر لا حامية عثمانية فيها إلا على الورق ، والأهالى فى حالة ضيق فسيرحبون بكل أجنبى يخلصهم مما يشكون منه - فالحملة سوف لا تلقى مقاومة إلا من المماليك، وبالطبع ستثبت الأحداث أن الوطنيين سيقاومون الحملة وأن هذه الأفتراضات كلها بعيدة عن الصواب .

د ـ قيل لبونابرت إنه ليست لنا سيادة في البحر ـ فأليس من المجازفة إرسال مثل هذه الحملة في هذه الظروف ؟

و ـ ن الرد أن الإنجليز قد سحبوا سفنهم من البحر المتوسط وإننا سنمر فقط في هذا البحر بسرعة وأنه متى وصلت الحملة للسواحل المصرية وأنزلت حمولتها فقد إنتهى كل شئ .

على كل ما حدث أن هذه الأعتراضات لم توضع على بساط المناقشة والبحث الحقيقي وقد امتنع المعارضون عن معارضتهم وانتهى الأمر بإقرار مسألة الحملة .

الفلسفة وراء مشروع الحملة :

لعل مشروع الحملة الفرنسية على مصر هو في حقيقة الأمر فصل من فصول التطور الأستعماري الحديث ، فالفكرة الإستعمارية تطورت في القرن الثامن عشر وفي فرنسا بالذات فلم تُصبح قائمة على إستحواذ معدن نفيس في أرض المستعمرة أو على إستغلال المستعمرة كسوق تجارية ـ لكن الأمر أدى لإحياء الفكرة الرومانية القديمة ولعل ما أدى لذلك :

١ ـ مبادئ المساواة والأخوة التي أعلنتها الثورة الفرنسية فلم يعد الأمر استعباد شعب لشعب آخر ـ لكن عادت الفكرة الرومانية القديمة ـ فكرة أن المستعمرة تُصبح جزءً من أرض الوطن لأهلها كل الحقوق وعلهم كل الواجبات التي للمواطنين في الأرض الأم .

٢ ـ تجردت فرنسا بعد الثورة من أية صبغة دينية فأصبح من السهل أن تقبل كرعاياها أي أناس في أي قَطر ومن أي دين .

٣ ـ العقلية الفرنسية في عهد الثورة أصبحت تعتقد أن أى نظام موافق للمنطق يصلح لأى أمة مهما إختلفت هذه الأمم .

٤ ـ حركة الإنقلاب الإقتصادى فى أوربا فى القرن الثامن عشر التى ترمى إلى إزالة الحواجز بين الأمم ، وإباحة الحرية التامة للتجارة بين الأمم المختلفة .

ولعل هذه الأفكار كلها وهذه الفلسفة كانت وراء هذه الحملة من الفنيين والعلماء من الرياضيين والكيميائيين التى اصطحبها نابليون معه ـ وكما سنرى إن الإنتصارات التى حققها هؤلاء فى غير ميادين الحرب هى فخر الحملة الفرنسية وهى الباقية إلى الآن ، مثل تنظيمات نابليون الإدارية وتشريعاته فى فرنسا فهى باقية رغم زوال إنتصاراته .

الحوادث الحربية فى فتح مصر :

١ ـ كانت الأوامر التى صدرت لنابليون تقضى بما يلى :

أ ـ الإستيلاء على جزيرة مالطة .

ب ـ إنزال أكبر ضرر بمستعمرات انجلترا فى الشرق .

جـ ـ احتلال مصر .

د ـ دراسة مسألة توصيل البحرين المتوسط والأحمر بقناة .

٢ـ قررت الحكومة الفرنسية أن ترسل سفيراً للأستانة ليقوم إما باقناع السلطان العثمانى بقبول الأمر الواقع على أن تكون له السلطة الشرعية الرسمية وترسل له الأموال المعتادة ـ أو اذا رفض السلطان هذا العرض أن يُعرض عليه أن تستولى تركيا على الجزر فى بحر الأدرياتيك التى أخذتها فرنسا فى معاهدة (كمبوفورميو) فى مقابل ترك مصر لفرنسا .

٣ ـ الوقائع الحربية فى عملية الفتح :

جزيرة مالطة : استولت الحملة فى طريقها على جزيرة مالطة بدون مقاومة من فرسان القديس يوحنا وسمح نابليون لفرسان يوحنا بمغادرتها ، ويرجع أصل هؤلاء الفرسان الى بيت المقدس ، فحين سقط فى يد المسلمين هاجروا الى رودس لكن نجح السلطان سليمان القانونى فى طردهم منها ، فذهبوا الى جزيرة مالطة واستقروا بها وبقوا فيها حتى عام ١٧٩٨ ، وكانت وظيفتهم هى المحافظة على التجارة المسيحية فى البحر المتوسط ضد القرصان وغيرهم ، فهى وظيفة عسكرية دينية وهم من عدة دول فلا قومية لهم ، وحين وصل بونابرت الى مالطة كانوا فى حالة سيئة ويرجع ذلك لأن مهمتهم الدينية والعسكرية انتهت ، كما أن ظهور القوميات ترتب عليه النزاع بين الولاء للوطن أو لمبدأ الفرسان .

على كل احتلال الفرنسيين لمالطة كانت له أهمية كبرى فقد فتح العيون لموقع مالطة الهام ، وبذا تفتحت عيون الإنجليز وتركزت عليها .

٤ ـ فيما يتعلق بالإنجليز و موقفهم من الحملة :

لما بلغ الإنجليز نبأ حشد الأساطيل والجيوش الفرنسية فى الموانى الإيطالية ثم خروجها من هذه الموانى عهدوا الي نلسن(Nelson) بقيادة أسطول البحر المتوسط وأمروه بالبحث عن الأسطول الفرنسى وإيقاع أكبر ضرر ممكن به وبالجنود الفرنسيين ، ولم تكن فى الحقيقة قد وضحت للإنجليز وجهة الأسطول الفرنسى فقد كثرت التنبؤات فى الأوساط الإنجليزية عن ذلك .

بالطبع من حسن حظ نابليون أنه لم يلتق بالأسطول الإنجليزى فى عرض البحر لأن السفن الفرنسية كانت حوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ سفينة شراعية متباينة السرعة ليست فى قافلة واحدة محروسة ـ نلسن استنتج مما سمعه عن أن الفرنسيين أخذوا معهم من إيطاليا مترجمين يعرفون العربية ـ أن مصر هى مقصدهم ـ فجاء الى الإسكندرية قبل مجئ بونابرت ، لكن المماليك لم يكن عندهم أى فكرة عن الحملة ـ أفهموه أن مصر تابعة للسلطان العثمانى والسلطان حليف لفرنسا فلا يمكن أن تكون مصر هى المقصودة بهذه الحملة، ولذلك اتجه بسرعة لسواحل آسيا الصغرى ظناً منه أنه أخطأ التقدير.

٥ ـ وصول نابليون إلى مصر : وصل نابليون لميناء الإسكندرية فى ٢٧ يونية ١٧٩٨ م ولما علم بخبر مجئ نلسون أسرع وأنزل جيشه قرب الدخيلة غرب الإسكندرية ، فى أقرب نقطة من الإسكندرية على البحر ليتخلص من الجنود ، وتحرك صوب الإسكندرية وكانت محاطة بسور يقيها من الغارات الخارجية من البر . وبعد ثلاث ساعات قاوم فيها الأهالى وحاكمها السيد (محمد كريم) سقطت المدينة واقتحم الفرنسيون أسوارها .

<u>ولعل أول ما يلفت النظر فى هذه المراحل الأولى من الفتح ما يلى :</u>

أ ـ عدم ظهور أية فاعلية للسلطات العثمانية فقد كانت مهمتهم هى الهرب، وهذا يدل على مبلغ ما وصلت إليه القوة العثمانية من تدهور ـ لقد كانت كل المقاومة من المصريين والمماليك .

ب ـ منذ نزول نابليون غرب الإسكندرية لقى مقاومة من المصريين والعرب الموجودين فى هذه المناطق، وأدرك أن للصحراء ظروفها الخاصة ،

ومن ثم وضع ما سمى بسياسة الصحراء ، وكل حكومة مصرية مستنيرة يجب أن تكون لها سياسة إيجابية نحو هؤلاء القوم الذين يشون بالمناطق الصحراوية فلا تعمل فقط على إتقاء شرهم ، ولا على صبهم فى قالب أهل المدن ـ لكن تقدر ظروفهم الخاصة وتستغل إمكانياتهم ومميزاتهم فهم مثلاً يتفوقون فى كشف مواقع العدو .

جـ ـ من المبدأ شعر الفرنسيون بخيبة أمل إذ وجدوا الإسكندرية على غير ما توقعوها ، وغير ما علموا عنها من كتابات الرحالة مثل (فولنى)(١) وغيره ـ كانوا يعتقدون أن مصر هى بلد (ألف ليلة وليلة) وبلاد الشرق بخيراتها وجناتها . والحقيقة كانت الإسكندرية أسوأ بكثير من حالة القاهرة ، وكانت مساحات واسعة منها لا تعدو أن تكون أكواخاً صغيرة، وكان الأهالى فى حالة يرثى لها ، وروح الإستياء هذه التى بدأت تظهر بين ضباط وجنود الحملة لها أهميتها لأنه ترتب عليها وجود حزب قوى من بين رجال الحملة يعارضون فى البقاء فى مصر .

٦ ـ منشور نابليون وموقف المصريين منه : بمجرد وصول نابليون نشر منشوره المشهور ـ ولعل من المفيد أن نُلقى نظرة على ما جاء بهذا المنشور .

فى هذا المنشور ذكرهم نابليون بماضى مصر الفرعونية المجيد وأرجع التدهور الذى وصلت إليه مصر للمغتصبين من المماليك وغيرهم ، وذكر أنه سيفتح لهم أبواب الثروة والمناصب ويرد لهم حقوقهم ، وتكلم عن الجمهور الفرنسى الذى يعشق الحرية والمساواة ، وذكر أنه سينشر كل ذلك هنا فى مصر ، ثم تكلم عن احترامه للدين الإسلامى والشريعة

---

(١) Volney : Voyage en Syrie et -en Egypte(1785)

الإسلامية. وإذا حاولنا أن نصل إلى آثار هذا المنشور على الرعية المصرية مستندين إلى موقف المصريين من الفرنسيين نرى أن المصريين سواء من قرأ منهم هذا المنشور أو من سمع عن محتوياته لم يفهموا كل ما جاء به وما فهموه منه لم يلق إستحسانا وقبولاً من الرعية بدليل المقاومة التى لقيها الفرنسيون ، فعامة المصريين كانت تتحين الفرص للإيقاع بالفرنسيين .

٧ ـ إحتلال القاهرة : فى ٣ يولية ١٧٩٨ بدأ نابليون زحفه صوب القاهرة، وقد اتخذ الطريق الصحـروای من الإسكندرية الى كفر الدوار فدمنهور ، ثم بمحازاة السكة الحديدية الى (الرحمانية) ثم الى شبراخيت، ومنها اتجه بمحازاة النيل الى إمبابة ، وكان الطريق شاقاً ، ولقى الجيش أهوالاً فى سيره لعدم توفر الماء والزاد .

وكانت هذه صورة مغايرة تماماً لما قيل لهم عن خصوبة أرض مصر ووفرة خيراتها وجمال مناخها .

هذا بينما أرسل نابليون بعض السفن الخفيفة من أسطوله البحرى فى فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة .

فيما يتعلق بالعثمانيين والمماليك والمصريين بالقاهرة ، فحين سمعوا بنزول الجيش الفرنسى فى الإسكندرية أصابهم إضطراب شديد خاصة أن المصريين منذ وقت طويل ـ من أيام الحروب الصليبية لم يسمعوا عن محاولة أجنبية للإستيلاء على مصر فجاء أمر هذا الغزو مفاجئاً لهم ـ بينما استقر رأى المماليك والعثمانيين على أن يسير مراد بك مع قوة كبيرة لملاقاة الفرنسيين ويبقى إبراهيم بك مع الباشا العثمانى بالقاهرة .

وقد عبرت قوات مراد بك ومعظمها من الفرسان النيل وتقدمت لملاقاة الفرنسيين عند (شبراخيت) - وترجع أهمية هذه المعركة إلى أنها كانت أول إختبار لقوة الطرفين ، وقد انتهت المعركة بإنهزام المماليك وقتل عدد كبير منهم وفر الباقون صوب القاهرة .

بعد معركة شبراخيت قرر مراد مقابلة الفرنسيين فى السهول بين إمبابة والقناطر الخيرية ، فعمد الى تحصين إمبابة ليحول دون الفرنسيين والالتفاف حول المدينة . وقد انتقد البعض هذه الخطة وأشاروا الى أنه كان يجدر بمراد أن يترك الفرنسيين يتحملون مشقة عبور النيل ويتحصن مثلاً فى جزائر بولاق والروضة ويهاجم الجيش الغازى أثناء عبوره - وهذه الخطة طيبة لكنها تحتاج الى مشاة ومدفعية منسجمة مع المشاة ، ومراد كما نعلم يعتمد على الفرسان ، والبعض أشار الى أن مراد كان يجب أن يتعلم من معركة شبراخيت أن يتجنب الإلتقاء مع الفرنسيين فى معركة حاسمة تضعف من قوته، وأن يتبع الخطة التى إتبعها فيما بعد فى الصعيد والتى ترتب عليها أن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يدعوا أنهم أستولوا على الصعيد، حتى أن (كليبر) وجد نفسه مهدداً من العثمانيين والمماليك فاضطر للأعتراف لمراد بحكومة الصعيد جنوب (أسيوط) على أن يدفع مبلغا من المال .

مهمة نابليون فى (إمبابة) كانت سهلة - فقد استطاع بمركباته أن يكتسح خط مقاومة المماليك الذى كان مكوناً من الخنادق والحوائط من الطين ، ثم حصر عدداً من فرسان المماليك بين النيل وقرية إمبابة فأفنى عدداً منهم وغرق عدد آخر ، وانسحب مراد بعد ذلك للجيزة فالصعيد .

أما إبراهيم بك فقد فر متجهاً الي سوريا حاملاً معه أمواله ونفائسه ، وصحبه الباشا العثماني والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف وقاضى القضاة العثماني .

وفى ٢٤ يوليه دخل بونابرت القاهرة بدون مقاومة وأرسل الجنرال ديزيه (Desaix)لطاردة مراد فى الصعيد ،كما أرسل الجنرال (رينيه) لمطاردة ابراهيم فى الشرقية ، وقد تقابل هذا الأخير مع فلول المماليك الفارين عند (الصالحية) ، لكن تمكن ابراهيم من الفرار الي سوريا - بينما وصل الجنرال (ديزيه) فى مطاردته لمراد ورجاله الى أسوان ونقش خبر وصوله على معبد فيله هناك ، لكن انتصاره على المماليك فى الصعيد لم يكن فى الحقيقة انتصاراً حقيقياً - لقد احتل الفرنسيون فى الظاهر كل المدن الكبرى فى مصر لكن فى الحقيقة فإن عوامل المقاومة كانت تتربص بهم فى كل مكان .

٨ - موقعة ابى قير البحرية : بعد انزال الجنود الفرنسيين قرب الاسكندرية أصر نابليون على أن يبقى الاسطول الفرنسى فى الشواطئ المصرية فاضطر قائد الأسطول الجنرال بروييس (Brueys) على أن يُبحر بإسطوله الى خليج أبى قير - فقد كان المعتقد أن عمق المياه فى ميناء الاسكندرية لايسمح برسو الاسطول وبقائه فيها ، كما أن الفرنسيين اعتقدوا أن الخليج سيكفل لسفنهم مكاناً أمناً من ميناء الإسكندرية.

عاد نلسون قائد اسطول البحر المتوسط للإسكندرية حيى تاكد أن مصر هى المقصودة ، وحدثت معركة بحرية بين الاسطولين فى اول اغسطس ١٧٩٨ والاساطيل كانت نوعين إما متحركة أو ساكنه وقد

اختار القائد الفرنسى أن يبقى فى مكانه فى مياه الخليج وأن يحارب الأسطول الانجليزى فى مكانه ، ولعل ذلك يرجع لقلة ثقته فى مهارة رجاله، وحرب الحركة تحتاج لمهارة ، وذلك راجع لتدهور حال الاسطول الفرنسى منذ الثورة بعكس الجيش فقد بعث من جديد للدفاع عن أرض الوطن – كما أن (برويس) قائد الأسطور الفرنسى اعتقد أن الاسطول الانجليزى لايمكن أن يخاطر بالدخول بين السفن الفرنسية وبين البر إذ أن عمق المياه فى خليج ابى قير لم تكن معلومة ولذا ظن أنه بتمركز الاسطول الفرنسى فى الخليج سيواجه نيران الإنجليز من جهة واحدة – جهة البحر فقط .

وقد وقعت معركة ابى قير البحرية فى الليل فى أول اغسطس ١٧٩٨ وحدث أن أحد ضباط نلسن حاول ونفذ ماظنه القائد الفرنسى محال التنفيذ ، فتوجه بسفينته وتبعه بعض السفن الأخرى ليحول بين الأسطول الفرنسى والبر وانحصر الفرنسيون بين نارين وانجلت الموقعه عن تحطيم كل الاسطول الفرنسى ماعدا أربع سفن .

نتائج موقعه أبى قير البحرية :

كانت لهذه المعركة نتائج خطيرة نجملها فيما يلى :

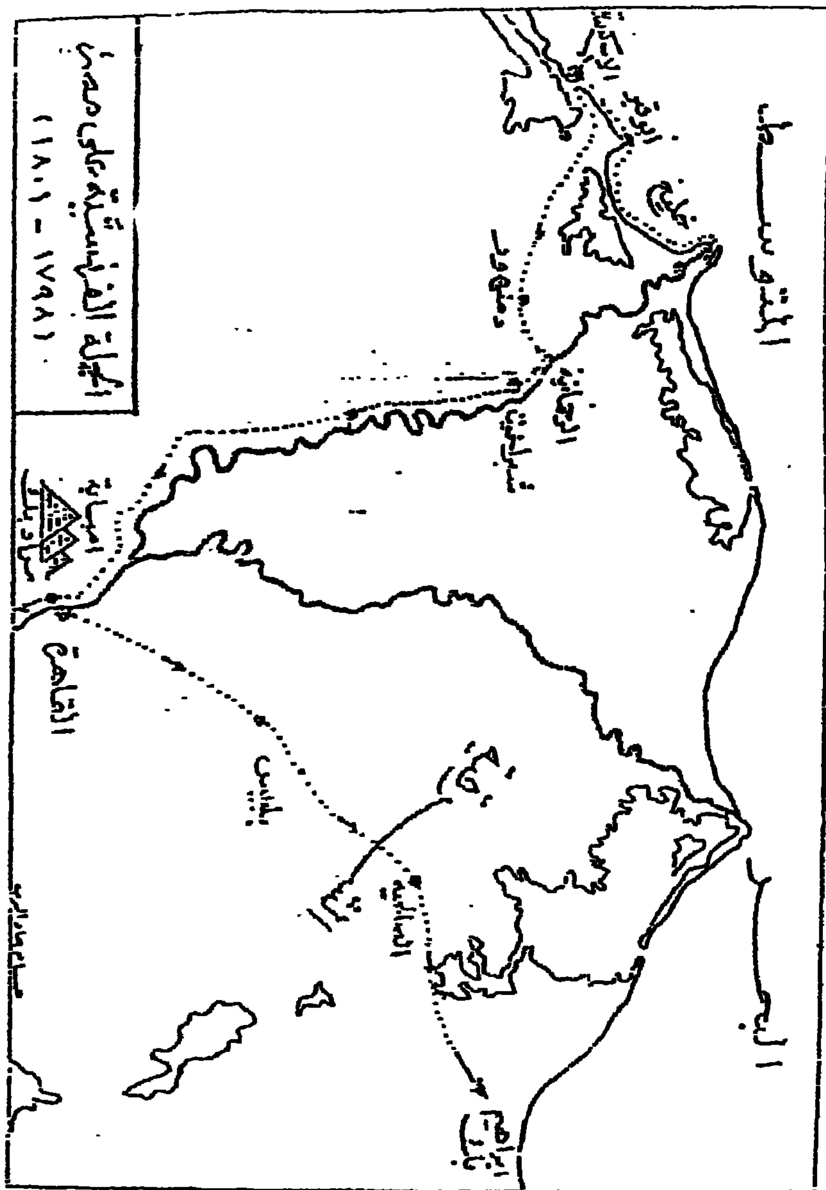
أ– انقطع الاتصال بين الجيش الفرنسى بمصر وبلاده فأصبح لايستطيع أن يعتمد على نجدة من بلاده ، كما أن فرنسا أصبحت لاتنتظر من جيشها بمصر مساعدة إذا اضطرتها الظروف للدخول فى حرب مع الدول الأوربية ، خاصة أن انجلترا بعد هذه المعركة فرضت حصاراً بحرياً على الشواطئ المصرية .

ب - كما أن الفرنسيين بمصر إضطروا للاعتماد كلياً في سد احتياجاتهم على موارد مصر ذاتها ، وهذا مما دفع بونابرت لمحاولة التقرب أكثر من المصريين ، ومحاولة كسبهم الى صفه .

جـ- كانت للمعركة أثارها على معنويات الجنود الفرنسيين الذين شعروا بخيبة أمل فقد لمسوا أن الواقع يخالف الصورة التى أعطيت لهم عن مصر وخيراتها ، فكانت هذه المعركة مكملة لذلك الشعور بخيبة الأمل عند الضباط الفرنسيين ، الشعور بأن حملة مصر كانت خطأ لا يغتفر للحكومة والقائد .

د- جعلت هذه المعركة - الحكومة العثمانية تتخذ قراراً حاسماً وصريحا تجاه الفرنسيين بمصر - بعد أن كانت متردده فى اتخاذ مثل هذا القرار خشية أن يكون هناك اتفاق بين الدول على تقسيم أملاك الدولة العثمانية ، وأن فرنسا بحملتها علي مصر تنفذ هذا الاتجاه الدولي- لكن معركة أبى قير البحرية ، وماأعقبها من تأكيدات إنجلترا للدولة العثمانية - أكدت للدولة أن بجانبها حليفاً قوياً ، كما أمنت نتائج المعركة الدولة من جهة البحر بعد أن تحطم أسطول فرنسا البحرى ، وجاء استنكار روسيا بعد المعركة - للحملة الفرنسية مؤكداً لذلك .

هـ - كانت المعركة عاملاً مؤثراً فى الوصول لاتفاق بين السلطان العثمانى والانجليز يقضى بأن تعاون انجلترا السلطان فى الجهد الحربى المبذول ضد الفرنسيين فى مصر ، وفى إدخال النظم الأوروبية فى الجيش العثمانى ، واتفق على أن ترسل الدولة العثمانية حملة من سوريا لطرد الفرنسيين من مصر ، وأن يصدر السلطان نداءً يحض أهل مصر على الثورة والجهاد ضد الفرنسيين ، وتدعم انجلترا من جانبها هذه الجهود الحربية المبذولة لإخراج الفرنسيين من مصر .



شكل ٣

خط سير الحملة الفرنسية فى مصر

سياسة الفرنسيين الداخلية فى مصر

أشير فى البداية إلى أن تقيمنا لسياسة الفرنسيين الداخلية فى مصر لاتعني أننا نقر أو لانقر هذه السياسة . كثيرون من الكتاب والمؤرخين يحرصون على تشويه كل مايقوم به المستعمر ظناً منهم أن ذلك يخدم القضية الوطنية .

الحقيقة أننا نستنكر الحكم الأجنبى لا لأنه قصرفى هذا المجال أثناء وجوده لكن لانه وضع غير طبيعى يعتدى على كرامة الناس وحقهم فى حكم أنفسهم بأنفسهم .

حكمنا علي السياسة الداخلية للفرنسيين مثلاً بعد أن استقروا فى مصر هو موضوع آخر لايتعلق بالناحية القومية .

وفى الحكم على سياسة الفرنسيين الداخلية فى مصر وماكانوا يهدفون من ورائها ليس بالأمر السهل لأسباب متعددة منها :

أ- لم تكن لدى الفرنسيين مدة كافيه لفهم حالة البلد حتى يضعوا سياستهم على أساس فهم حقيقى للأوضاع القانونية ، فقد كانت مدة وجودهم بمصر قصيرة ، كما أنها لم تكن سنوات هادئة ، فقد كانوا مشغولين فيها بعمليات حربية لفتح مصر ولتأمين وجودهم ، كما أن الحصار البحرى الذى فرضتة إنجلترا على السواحل المصرية ترتب عليه - خاصة بعد تحطيم الأسطول الفرنسي - إنعدام ورود أى شئ لهم من الخارج - هذا بالاضافة الي العمليات الحربية فى الشام وما استلزمته من ترتيبات خاصة - لذلك فقد كان على الفرنسيين أن يقوموا بأعمال فى مصر ماكانوا يقومون بها في الظروف العادية - فمثلا لأنهم كانوا

بحاجة لسد نفقات هذا الجيش الكبير ، ونفقات هذه العمليات الحربية المتعددة فى الوقت الذى انقطع فيه إتصالهم ببلادهم – اضطروا لجمع المال بطرق شتى سواء على سبيل القروض أو الضرائب أو الغرامات الباهظة .

ب – الادارة المالية بالذات فى مصر كانت معقدة وتحتاج لوقت لفهمها وبدون فهم القديم لا يمكن أن يبني الإنسان وضعاً جديداً سليما .

جـ– لكى تحكم على السياسة الفرنسية كما رسموها لمصر حكماً سليماتحتاج أيضا لتصور ما كان ينتظر أن يقوموا به على أساس أعمال عملوها فعلاً ومنها يمكن أن نستنتج أشياء كانوا سيقومون بها ؛ ونحتاج أيضا لدراسة ماكتبوه – نابليون مثلاً كتب عن رفع مستوى الماء عند تفرع الدلتا وهو مشروع القناطر الخيرية الذى تحقق فى عهد محمد على ، كذلك لابد من أن نضع فى الاعتبار بعض المبادئ التى يتحتم على الفرنسيين التقيد بها فى عهد الثورة بظروفها ومبادئها، كما أننا يجب أن نضع فى الاعتبار سياستهم فى البلاد الأخرى التى حكموها .

فى ضوء هذه الاعتبارات وفى ضوء ماقاموا به فعلاً يمكن أن أتصور أن المبادئ التى يقوم عليها الحكم الفرنسى فى مصر هى :

١ـ ضبط الأمن : بالطبع سيحرص الفرنسيون على أن يخضع كل السكان لهم خضوعا تاماً ، فأوامر الحكومة ونواهيها وأحكامها لابد أن تنفذ بدقة .

٢– النهوض بموارد البلاد : كان على الفرنسيين أن يقوموا بثورة للنهوض بمختلف نواحى الانتاج فى مصر ، فالأمم الشرقية فى ذلك

الوقت لم تكن تعرف فكرة الإنتاج لأقصى حد ، فهذه فكرة أوربية وطبقتها الدول الاوربية فى مستعمراتها .

بناء على ذلك كان لابد أن الفرنسيين سيعملون علي تنمية الزراعة بكل الطرق ، يقضون على نظام الالتزام ، يُدخلون نظماً للري جديدة ، يدخلون زراعات جديدة ، (القطن مثلاً أدخل زراعته فى مصر فيما بعد فرنسى فى عهد محمد على) .

كذلك الصناعة – اعتقد كانوا سيتخذون سياسة شبيهة بماقام به محمد على – مينو حاول أن يعمل مدرسة صناعية فى مصر- لكن رفض (الميكانيكيون) الفرنسيون ماطلب منهم من تعليم المصريين أسس الصناعات المختلفة .

فى التجارة – لابد أنهم سيستغلون مركز مصر التجارى لأقصى حد - فيهتمون بالثغور ، ويفتحون قناة السويس ، لعلهم كانوا سيسعون للوصول لمنابع النيل ويفهمون أكثر سر فيضان هذا النهر ويبنون مشروعاتهم على أساس هذا الفهم .

٣- سياستهم تجاه المصريين : منذ البداية تظاهر الفرنسيون بإحترام الدين الإسلامى ،وبإحترامهم للتقاليد المصرية ،وقد عَبر بونابرت عن ذلك فى منشوره الذى أذاعه عند دخوله الاسكندرية فى ٢ يوليه ١٧٩٨ .

كما أنه فى منشوره الذى أصدره لجنوده قبل وصولهم للإسكندرية طالبهم فيه باحترام عادات المصريين وعقائدهم التي تختلف عن عادات الفرنسين وعقائدهم ، وحذرهم من أعمال السلب والنهب .

وفى الوقت الذى يعمل فيه الفرنسيون على النهوض بمصر وبالمصريين لأنهم يحتاجون لأيدٍ عاملة مصرية لزيادة الانتاج ، ويريدون من المصريين أن يسايروهم في الانتاج - فإنهم يرفضون الإعتراف بما يسمونه (القومية المصرية) ، ويترتب على هذا إنهم يحرصون على تقوية عوامل التفكك والإختلاف بين عناصر الأمة - كما فعلوا في المغرب مثلاً حرصوا على المحافظة على البربر ، و العرب كعنصرين منفصلين وإبرزوا أوجه الخلاف بينهما .

فمن مصلحتهم أن توجد مصالح وأهداف متضاربة حتى لا توجد (وحدة وطنية) .

ولذلك قد يعمل الفرنسيون على رفع مستوى التعليم بمصر لكن للحد وفى الإتجاه الذى لا ينمى الروح القومية .

بالطبع سيرحب الفرنسيون بمن شاء الإنضمام والاندماج فى القومية الفرنسية .

وبعد أن دخل الفرنسيون القاهرة حاول بونابرت أن يسير فعلاً على هذا النهج السالف الذكر فاشترك مع المصريين فى إحتفالاتهم الدينية ، فاحتفل بالمولد النبوى والإعياد الاسلامية وحرص على استمرار الشعائر الإسلامية ومشاركة المصريين في مختلف المناسبات ، وحاول التقرب من رجال الأزهر وغيرهم من رجال الدين لهم منزلة فى قلوب الناس .

وقد حاول نابليون أيضاً أن يُشعر المصريين بأنهم أصبحوا يشتركون فى حكم بلادهم ، ففى ٢٥ يوليه ١٧٩٨ أنشأ (ديوان القاهرة) ثم تبع ذلك بانشاء دواوين فى الأقاليم ليكون للعناصر الوطنية دور ولو محدود فى إدارة شئون البلاد الى جانب الحكام الفرنسيين - ولاشك فى أن

بونابرت كـان يرمى من وراء ذلك الى أن يكسب المصـريين الى جـانبـه فيستطيع أن يتفرغ لمواجهة الإنجليز وليجد من المصريين عوناً وسنداً وقت الحاجة .

موقف المصريين من الفرنسيين

رأينا كيف حاول بونابرت إستمالة المصريين بشتى الطرق – والسؤال الذى يفرض نفسه علينا هو ما موقف المصريين من الفرنسيين فى ضوء سياستهم وفى ضوء وعودهم التي وعدوا المصريين بها ؟.

لقد فوجئ الفرنسون فى ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ (بثورة القاهرة الأولى).

ثورة القاهرة الاولى (٢١-٢٣ اكتوبر ١٧٩٨) :

ترجع الثورة الى أسباب متعددة نجملها فيما يلى :

١- تحريض العثمانيين والمماليك الذين خرجوا من مصر للشام – المصريين للثورة على الفرنسيين الذين وصفوهم بالكفرة وأعداء الاسلام .

٢- ما استحدثه الفرنسيون من المتغيرات التى لم يألفها المصريون ولم يستسيغوا الهدف منها .

مثال ذلك إرغام الأهالى على إضاءة الشوارع والحارات والأسواق ، وتوسيع الطرق ، وازالة ابواب الحارات ، والاجراءات الصحية التى أوجدها الفرنسيون بخصوص دفن الموتى فى أماكن بعيده عن المدن ، وتشدد الفرنسيين في تطبيق هذه الأوامر .

٣- الفتح الفرنسى تبعه بالطبع تخريب وتدمير للقرى والبيوت والحقول .

٤- الحرية التى مارسها الفرنسيون ومخالطتهم للنساء - أمر غير مألوف عند المصريين لأنها غير ماتعود عليه الناس ، وبالطبع يميل الناس لعدم الخروج على المألوف وحتي وعود الفرنسيين للمصريين ببناء المجتمع المصرى الجديد على الحرية والمساواة والأخاء لم يقبلها المصريون فهم لايتصورون حكومة ومجتمعاً بهذا الشكل ، بل يرون فى هذا تحدى لمشيئة الله الذى أوجد الفروق فى المجتمع .

٥- ما لجأ اليه الفرنسيون من مصادرة الأملاك وجمع الأموال عن طريق القروض أو الضرائب - أثار حفيظه الناس .

٦- السبب المباشر للثورة هو الضرائب الجديدة التى فرضها المحتلون على الاملاك والمبانى ، والقضايا والحمامات ، والخانات والحوانيت والمقاهى ، وطواحين الغلال ، والمعاصر .

وقد كان للثورة زعماء من طلبة العلم بالأزهر، وأئمة الجوامع وفتوات الأحياء ، وقد بدأت بتجمع الناس عند بيت القاضى التركى لاجباره على الذهاب معهم لمقر قياده بونابرت للمطالبة بالغاء هذه الضرائب - لكنه هرب ورفض مصاحبة الجهاهير ، لكن سرعان ما اكتظت الشوارع خاصة حى الأزهر بالجماهير المسلحة بالبنادق والسيوف والعصى - وقد فوجئ الفرنسيون بهذه الثورة ، وكان بونابرت وقت اندلاعها خارج القاهرة فعاد مسرعاً .

وبعد إنتهاء الصدمة الأولى المفاجئة أمر نابليون بنصب المدافع على تلال المقطم ، كما أمر مدافع القلعة بإطلاق قذائفها على حى الأزهر .

واستمرت الثورة ثلاثة أيام ، ودخل الجنود الفرنسيون جامع الأزهر وهم راكبون خيلهم وسلبوا ماكان به ، واضطر وفد من العلماء والمشايخ لمقابلة بونابرت مطالبين بجلاء الجنود عن الأزهر الشريف ووقف قذف

الأحيـاء المدنيـة بالقنابل ،وانتـقم الفـرنسـيـون من سكان القـاهرة وضواحيها فاحرقوا العديد من البيوت وأعدموا من اتهموهم بالتحريض على الثورة وابطل بونابرت جلسات الديوان .

ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢٠ ابريل ١٨٠٠م) :

كانت هذه الثورة فى وقت تولى كليبر قيادة الحملة واستمرت مايقرب من شـهـر - وهى أخطر من الثـورة الأولى لأنهـا حـدثت بعـد الاتفـاق بين العثـمانيين والفـرنسـيين على الجلاء ، وكـان الجيش العـثـمـاني بقـيـادة الصـدر الأعظم قـد وصل الي (المطرية) على مـشـارف القـاهرة ، وقـد نجحت بعض فرق من هذا الجيش فى دخول القاهرة ، وكذلك عناصر من المماليك ، وقد ترتب على الخلاف الذى نشب بين كليبر وبين العثـمـانيين تجدد القتال بين الطرفين .

وقد لعب أعيان القاهرة من أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف مع نقـيب التـجـار دوراً اكـبـر مما لعـبـوه فى الثـورة الأولى ، وحـاول الثـوار إستـخـدام كل مـاتحت أيديهم من سـلاح لمهـا جمـة مـواقع الفـرنسـيين بل نجـحـوا فى إنشـاء مـصنـع للبارود وأخـر لإصـلاح المدافع ، كـمـا أقـامـوا المتـاريس فى الطرقات يتـحصنون وراءهـا ويصلون العدو ناراً حـاميـة من بنادقهم .

لكن نجح كليـبـر فى اسـتـمـالة الأتراك الذين كـانوا مع الأهـالى داخل القاهرة ، وكذلك بكوات المماليك ليتركوا مواقعهم مع الثائرين الذين كانوا هم أنفسهم قد حرضوهم على الثورة ضد الفرنسيين .

وبذا أضعف صفوف الثوار، وكان هذا من أسباب فشل هذه الثورة - ونجح كليبر فى إحاطة القاهرة بالمدافع وشدد الضرب على الأحيـاء التى تجـمـع بهـا الثـوار خـاصـة حي بولاق واضطر سكانهـا الى التـسليم ،

وتوسط المشايخ لدى كليبر الذى وعدهم بالعفو الشامل عن الثوار – لكن لم يلبث أن خمدت الثورة حتى انتقم إنتقاماً رهيبا من قادة الثورة – فأعدم بعضهم وسجن الشيخ السادات وعدد آخر من المشايخ .

ثورات الاقاليم :

واجه الفرنسيون أيضاً عدة ثورات خارج القاهرة – لعل أهمها كان في الوجه القبلي بالاتفاق مع مراد بك .

وترتب على هذه الثوارات قطع مواصلات الفرنسيين مع القاهرة ، وكان لهذا الأمر أهميته إذ كانوا يعتمدون على مايرد من القاهرة من بارود وخلافه ، ومن أشهر هذه الثورات ثوره بنى عدى قرب اسيوط .

كذالك تمثلت هذه الثورات في امتناع المصريين عن دفع الضرائب وكانت هذه الضرائب عينية من الحبوب التى تسد حاجة الجيش الفرنسى من الغذاء.

وقد اشترك فى هذه الثورات عرب الصعيد وأصحاب العصبيات ، بل جاء عرب من الحجاز لمشاركة الثائرين ومؤازرتهم بدافع ديني صرف .

وبذا نرى أن المصريين لم يقبلوا الحكم الفرنسى كما كان ولا ماوعدوا به وبتحقيقه في المستقبل . ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو هل ثورات المصريين ومقاومتهم للإحتلال الفرنسى كان لها أثر فى فشل هذا الاحتلال ؟

الحقيقة أن مقاومة المصريين السلبية والفعلية كانت لها مع العوامل الأخرى - أثارها على إخفاق الإحتلال الفرنسى لمصر – ولعل أكبر أثر لهذه المقاومة هو الانهاك العصبى للغزاة ، فقد أصيبوا بخيبة أمل حين ادركوا فشل محاولاتهم لكسب المصريين الى جانبهم وهو جزء هام من المخطط الذى رسم بونابرت خطته على أساسه .

ويقارن المؤرخون بين المقاومة العنيدة التى قوبل بها الفرنسيون عام ١٧٩٨ ، وبين الوضع فى حالة الإحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ إذ لم يظهر أثر يذكر لهذه المقاومة . ولعل السبب فى ذلك أنه فى عام ١٨٨٢ كان محمد على وخلفاؤه قد قضوا تماماً على العصبيات الموجودة فلم يكن موجودا إلاجيش منظم كالجيوش الحديثة فلما هُزم هذا الجيش انتهى الامر .

حملة الشام والنتائج المترتبه عليها

فى ١٠ فبراير عام ١٧٩٩ غادر بونابرت القاهرة على رأس نحو ١٦ر٠٠٠ مقاتل لغزو الأراضى السورية المجاورة لمصر .

أسباب هذه الحملة :

يردد بعض الكتاب القول بأن هذه الحملة كانت مقدمه لمشروعه الشرقى الكبير – الوصول للهند أو القسطنطينية . وهذا على ما أعتقد غير سليم ، حقاً إن مشروع فتح مصر كان القصد منه القيام بمشروعات واسعة – لكن هذا لايعنى أن حملة الشام فى عام ١٧٩٩ كانت تحقيقاً لهذه الأهداف الواسعة ، فالقوة الصغيرة التى أخذها بونابرت معه لايمكن أن يكون الهدف منها الزحف للهند أو القسطنطينية ، كما أن التفكير فى هذه الحملة كان يستلزم بالطبع قوة بحرية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وهذا أمر لايغيب عن فطنة قائد مثل بونابرت ، كذلك نحن نعلم أن بونابرت حين جاء لمصر عام ١٧٩٨ كان في نيته الرجوع لاوربا بأسرع مايكون ،لأنه كان يدرك أن بلاده ستحتاج اليه وأن الدول الأوروبية ستتحالف مرة أخرى ضد فرنسا ، وقد حدث هذا فعلاً حين عُقدت بين روسيا وتركيا فى (٢٥ ديسمبر عام ١٧٩٨) معاهدة دفاعية

لمدة ثمـان سنوات وبين انجلتـرا وتركـيـا مـعـاهدة مماثلة فى (٥ يناير ١٧٩٩) وتبع ذلك فى يناير ١٧٩٩ إعـلان النمسـا الحرب على فرنسـا . وهكذا أصبح الجو ممهداً لتأليف التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا فى نوفمبر عام ١٧٩٨ م .

والذين يرددون هذا القول يستندون الى مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه فى سنت هيلانة (Saint Helena)، لكن يجب أن نضع فى الإعتبار أن هذه المذكرات لاتمثل الواقع بقدر ما تهدف لتحقيق هدف آخر كان فى ذهن بونابرت وهو التمهيد لعودة ابنه لعرش فرنسا وقد تحقق هذا بعد مايقرب من ٣٥ عاماً من سقوط بونابرت باحياء الامبراطورية فى شخص إبن اخيه (الامبراطور نابليون الثالث) .

أما الأسباب الحقيقية لحملة الشام فيمكن أن نجملها فيمايلى:

١- كانت الشام هى مركز الإستعدادات لمهاجمة مصر - فيها تجمعت القوات العثمانية للصدر الأعظم ، والجزار والى عكا ، ومماليك ابراهيم بك - ولذا كان تحرك نابليون يهدف تأمين وضعه فى مصر بهزيمة تلك الاستعدادات القائمة وتحطيمها فى مكانها .

٢- ثغور الشام (العريش ، وغزة ، ويافا ، وحيفا ، وعكا ، وبيروت ، طرابلس ، اسكندرونة) كانت القواعد الطبيعية للإسطول البريطانى الذى يحاصر مصر - والأساطيل فى ذلك الوقت كانت بحاجة لموانى تتزود منها بالماء واللحوم والخضروات الطازجة ، فقد كان البحارة يصابون بأمراض خطيرة نتيجة الإعتماد على اللحوم المملحة ، فموانى الشام القريبة من مصر كانت مراكز لتموين الأسطول البريطانى فسقوطها فى يد الفرنسيين يحرم الاسطول الانجليزى من هذه الميزة.

٣- لعله كان يهدف بإخضاع الشام اتخاذها كوسيلة للضغط على الدولة

العثمانية سياسياً فيمكن مثلاً أن يتفاوض مع العثمانيين على أساس التسليم للفرنسيين بمصر فى مقابل الجلاء عن الشام .

وهكذا يمكن أن نقول أن حملة الشام كانت مرتبطة بموقف الفرنسيين ووضعهم فى مصر .

حوادث الحملة على الشام :

فى الوقت الذى بدأ فيه بونابرت غزو الشام فى عام ١٧٩٩ كانت الشام منقسمه الى عدة باشويات عثمانية – فلم تكن هناك فى الشام وحدة سياسية بل دويلات متمركزة حول العواصم الهامة ، وحتى سلطة الباشا لم تكن تامة ولم تكن تمتد الى الأراضى الجبلية أوشبه الصحراوية حيث أتاحت الطبيعة فرصا للأقليات للحياة فى هذه المناطق ففى جبل لبنان حتى اليوم طوائف لانظيرلها فى أى مكان آخر (الدروز مثلا) .

اتبع بونابرت للشام طريق البر، بالطبع الطريق البحرى أفضل بكثير لكن بعد تحطيم أسطوله وحصار سواحله لم يكن أمامه مجال للخيار. أرسل بعض مدافعه الثقيلة بالبحر وكانت هذه مجازفة ، وقد استولى الإنجليز على هذه المراكب بحمولتها وأهدوها لأحمد باشا الجزار والى عكا لمساعدته لمقاومة بونابرت .

استولى بونابرت على العريش ، وغزة ، والرملة ، واللد ، ووجد بهذه الاماكن الفارين من مصر، فك أسرهم بعد أخذ التعهد عليهم بعدم الاشتراك فى المعارك المقبلة ضده .

وفى شهر مارس وصل الى (يافا) وسقطت فى يده وسقط عدد كبير من الاسرى فى يده – أعدم عدداً كبيراً منهم وقد برر هذا العمل بأن عدداً كبيراً منهم كانوا ممن أسروا فى العريش وغيرها وتعهدوا بالأ

يحاربوه من جديد ـ لكنهم حنثوا بعهدهم ، كما برره بانه لم يكن عنده مايطعمهم به، لم يكن من الممكن تركهم دون حراسة في يافا ، ولم يكن من الم كن تخصيص عدد من جنوده للعوده بهم لمصر .

على كل حدث الإنتقام الالهى فقد ظهر الطاعون في جيشه بعد حملة يافا مباشرة – وحاول بونابرت التخفيف من حالة الهلع التى أصابت الجنود بسببه حتى قيل إنه كان يخالط المرضى ليثبت لهم انهم ليسوا مصابين بالطاعون .

بعد يافا احتل (حيفا) – ثم وصل الى (عكا) مركز باشوية صيدا .

وباشويه صيدا مقرها الفعلى كان فى (عكا) – كانت فى ذلك الوقت فى يد شخصية قوية هو (أحمد الجزار) ، وهو أصله من (البوسنه) فى شبه جزيرة البلقان من الذين اعتنقوا الإسلام حين انتشر الحكم العثمانى فى البلقان مثل محمد على – ويرجع نفوذه فى عكا للفوضى التى لازمت دخول على بك الكبير فى الأقطار السورية وما ترتب علي ذلك من فوضى وارتباك ، نفس ماحدث فيما بعد حين فتحت الفوضى التى احدثتها الحملة الفرنسية ومأعقبها من أحداث ـ الطريق أمام محمد على ـ حاولت الدولة العثمانية بالطبع التخلص من هذه الشخصية ـ شخصية الجزار التي فرضت نفسها وسلطتها فى هذه المنطقة ـ لكن لما عجزت الدولة عن ذلك ، ولم تجد محاولات تحريض الباشوات الأخرين عليه أضطرت للإعتراف به، وقد اشتهر الجزار بهذه للقسوة التى اتصف بها، كثرة ماسفك من دماء ، وستبقى هذه الباشواية فى يده حتى وفاته فى عام ١٨٠٤ولم يكن له ابن ، لكن نجح مملوكه (سليمان) فى أن يحل محله وهذا جعل السلطة وراثية فى بيته فخلفه ابنه (عبد الله الجزار) وهو الذى سيحارب محمد على فى عكا نفسها .

حاول بونابرت أن يكتسب الجزار لصفه أو أن يغريه بالتزام الحياد فى الحرب بين فرنسا والجيوش العثمانية فى الشام. لكن أحمد باشا الجزار الفرنسيون دكها بواسطة الألغام وغيرها – عاون فى ذلك فنيون فرنسيون وضباط فرنسيون من الكارهين للثورة والذين هاجروا من فرنسا من أمثال فيلبو (Phelppaux) وهو ضابط فرنسى كان زميلاً لبونابرت .

ورغم أن بونابرت نجح فى أن يوقع بالقوات التى جاءت لنجدة عكا من باشوية دمشق والباشويات الأخرى فهزمها فى عدة مواقع قرب بحيرة (طبريه) منها موقعة (الناصره) و (تل طابور) – لكنه بدأ يفكر فى رفع الحصار عن عكا خاصة بعد أن انتشر الطاعون بين أفراد جيشه بطريقة وبائية .

<u>وهكذا يمكن أن نذكر أن حصار عكا فشل لعدة أسباب :</u>

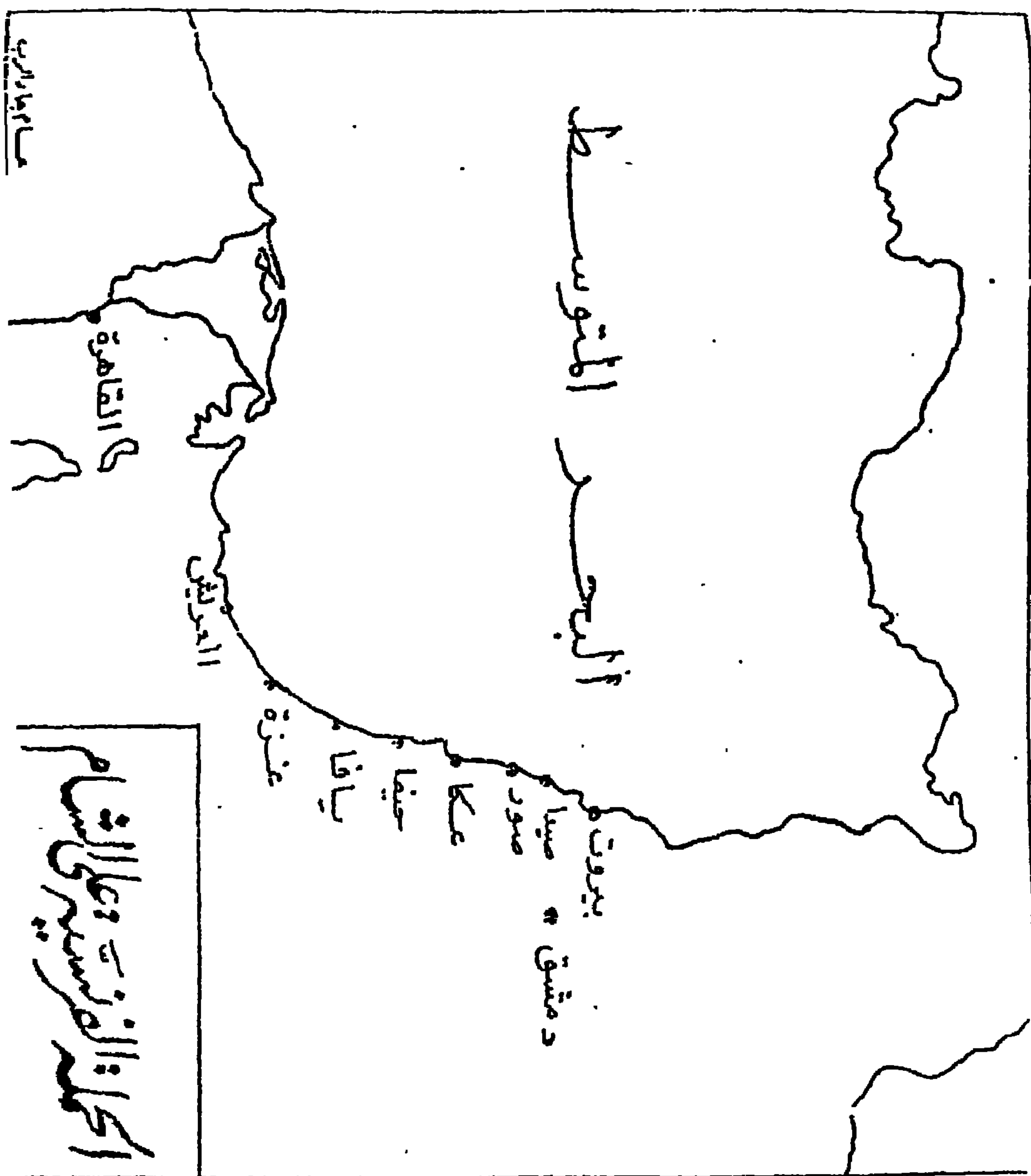
١- عزيمة الجزار وتصميمه على المقاومة .

٢- موقع المدينة وانفتاحها علي البحر .

٣- معاونة فنيين فرنسيين أكفاء على ترميم وتقوية حصون وأسوار المدينة .

٤- انتشار الطاعون فى الجيش الفرنسى .

قرر بونابرت رفع الحصار عن عكا والعوره لمصر مدعياً أنه حقق أهدافه من حملته على الشام فقد شتت وقتل أغلب القوة العثمانية فى يافا وحيفا وفى المواقع حول بحيرة طبريه .



شكل ٤

الحملة الفرنسية على الشام

وإذا حللنا نتائج حملة الشام نجد :

١- نجح بونابرت فعلاً فى هزيمة الجيوش العثمانية فى مواقع ، ونجح فى إبعاد الجزار وغيره من القواد العثمانيين عن الإشتراك فى الحرب ضده .

٢- لكنه لم يمس الجيوش التى كانت الدولة العثمانية تجمعها ضده بقيادة الصدر الأعظم ، كذلك المماليك الذين كانوا يعاضدون هذه القوات التى كانت تستعد فى الأناضول ضده .

٣- كذلك لم يحقق خطته القائمة على احتلال تنور الشام ليحرم الانجليز منها .

٤- كما أن فشله فى الاستيلاء على عكا كانت له أثاره المعنوية – فقد أظهر المماليك ولأهل مصر ، وأهل الجبال في لبنان وغيرهم أن بونابرت يمكن مقاومته ، وقد أشار الجبرتى الى ذلك فنكر انهم رجعوا بالطبول والأعلام كانهم منتصرين – لكن عُرف أنهم رجعوا خائبيين – والدليل على أثر هذا الفشل كثرة الاضطربات التى اجتاحت مصر في مدن البحيرة ، والصعيد بل وجد من أدعى المهدية فى البحيرة وأدعى أن لديه حصانة آلهيه ضد رصاص الفرنسيين .

موقعة أبى قير البرية : عاد بونابرت لمصر ، وهو يعلم أنه لايلبث أن يقابل غزو عثمانى عن طريق البحر –ولذا اهتم بونابرت إثر عودته بالقضاء على القلاقل والإضطرابات التى عمت الدلتا ، كما عمد لتقوية تحصيناته فى العريش والاسكندرية . نزلت القوة العثمانية بقيادة (مسطفى باشا) شرقى الاسكندرية عند أبى قير، وكان عددهم ١٠ر٠٠٠

جندى نزلوا فى حماية الإسطول الانجليزى - ونجحت القوة العثمانية فى المرحلة الأولى فلم تستطع قوة الدفاع الفرنسى منع نزولها على الساحل لكن استمرت القوة فى المكان الذى نزلت فيه مدة أطول من اللازم فقد بقـ فى مكانهم للراحة ولتكون فى حماية الاسطول الانجليزى - وهذا أعطى فرصة لبونابرت لجمع قواته ، فقد سحب جنوده من الصعيد تاركاً مراد بك يمد نفوذه مؤقتاً على الوجه القبلى الى أن ينتهى هو من العدو الكبير، وحصر هو العثمانيين فى هذا المكان حيث تصعب المناورة ، كما أنه من ناحية البحر كان يصعب على المراكب الإنجليزية الكبيرة الإقتراب من الساحل للمساعدة وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للعثمانيين وقتل عدد كبير من رجال القوة وأسر عدد آخر منهم القائد العثمانى (مصطفى باشا) .

وكان من نتائج هذه المعركة - أن أحجم ابراهيم بك عن الزحف بمماليكه على مصر من جهة الشرق ، كما اقتنع مراد بك بأن انتصار العثمانيين على الفرنسيين أمراً بعيد التحقيق ، وهذا مما أدى فيما بعد لقبوله المفاوضة والإتفاق من الفرنسيين - كذلك من نتائج المعركة أن بونابرت حصل من العثمانيين والانجليز علي معلومات عن الأوضاع فى أوربا وفرنسا - بعد أن كانت الاخبار قد انقطعت عنه من مدة طويلة وهذا مادعاه للتفكير للعوده لفرنسا .

عودة بونابرت لفرنسا :

عرف بونابرت من القائد العثمانى مصطفى باشا الذى وقع فى أسره كذلك من الصحف الأوربية التى حملها الضباط الإنجليز معهم للشواطئ

المصرية اثناء مفاوضاتهم مع الفرنسيين بشأن تبادل الأسرى – حالة فرنسا السيئة وتكتل الدول الأوربية ضدها وانهزام الجيوش الفرنسية ولذا قرر بونابرت الرحيل فوراً الى فرنسا .

لم يخبر بونابرت عن نيته في العوده لفرنسا إلانخبة من أصدقائه الشخصيين واحتفظ بالأمر سراً لكي لايحدث فتنه في الجيش – ترك القاهرة في ١٨أغسطس ١٧٩٩ بحجة القيام بحملة تفتيشية في مناطق السواحل ، وفي ٢٢ أغسطس رحل بونابرت مع قله من رفاقه على مركبين حربيين الى فرنسا تاركاً أمره بأن يتولى (كليبر) القيادة العامة للحملة ويبدو أن سدنى سميت (Sidney Smith) قائد الأسطول البريطانى في شرق البحر المتوسط كان يعلمُ بنية بونابرت على الرجوع لفرنسا وقيل إنه تعمد الابتعاد عن السواحل المصرية ليشجعه على ركوب البحر ليمسك به ، على كل سواء أكان هدف سدني سميت هو هذا أم أنه إبتعد عن السواحل لأسباب عادية كحاجته للماء النقي لجنوده فقد نجح بونابرت ورفاقه في الوصول للسواحل الفرنسية .

كليبر (kleber) وقيادته للحملة

يُرجع بعض المؤرخين إختيار كليبر لقيادة الحملة لكفاء ته – وليس لما كان بينه وبين بونابرت من محبة – بالعكس لم تكن بين القائدين مودة أو وفاق لأسباب منها :

١– كل منهما من مدرسة خاصة ، وهناك إختلاف جوهرى في إتجاهات وأفكار الرجلين .

فبونابرت رجل من الجنوب من جزيرة قورسيقا ، كليبر الزاسى ، وكان

كليبر في ذلك الوقت قد جاوزسن الخمسين بينما، بونابرت كان سنه ثلاثين عاماً .

٢- كان كليبر متحمساً للثورة الفرنسية لكنه كان يتطلع لفكرة القيادة الد ورية للقواد العسكريين .

٣- لم يكن كليبر متحمساً لفكرة الاستعمار واحتلال مصر - هو من وسط أوربا ، ولادخل له بالبحر المتوسط ، يمثل مدرسة أخري كما ذكرنا ، ولعل اختياره للقياده يرجع لمجرد الإحترام لكفاءته - كذلك لعل فيه عنصر مكر من بونابرت ، فكونه يضع فى القيادة العليا رجل ليس من أنصار الإستعمار ولا البقاء في مصر فهو بذلك يقيد حريته ، فتصرفه وهو قائد عام يخالف الوضع لو كان غير متحمل للمسئولية ، قد يكون على رأس المعارضة فى البقاء - أما وهو قائد فقد أصبح ينظر لمسألة الجلاء علي أنها مسألة تبحث في ضوء عدة اعتبارات أخرى .

على كل حين تسلم كليبر القيادة كانت هناك ثلاثة عناصر فى الجيش الفرنسي :

١- مجموعة على رأسها مينو (Menou) كانت تصر على البقاء فى مصر ، وكانت غير مؤمنه بالجلاء وتعتقد فى بقاء الفرنسيين بها واتخاذها مستعمرة فرنسية .

٢- مجموعة كانت ترى ضرورة الجلاء عن مصر ، فحملة الشرق أو حملة النيل (Battle Of the Nile) - فى نظر هذه المجموعة خطأ من البداية ، فالاوضاع فى فرنسا ذاتها كانت تحتم بقاء جيشها وقادتها فى بلادهم ، هذا بالاضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بقوة انجلترا

البحرية كان يجب أن يُعمل حسابها وتدعو لعدم المجازفة بهذه الحملة، واوضاع مصر – كما وجدتها هذه المجموعة ـ تغاير تمامًا ماقيل لهم عنها ،ومالاقته الحملة في الطريق الصحراوي وبين الاسكندرية والقاهرة وبعد موقعة ابي قير البحرية – زادت هذه الجماعة إعتقاداً بخطأ فكرة الحملة كلها .

وجاءت معارك الشام ورحيل بونابرت المفاجئ وتركه جنوده وهو ما عبروا عنه بان العصفور هرب من القفص تاركاً جنوده في هذا السجن ـ لتزيد من قوة هؤلاء الساخطين على بقاء الحملة في مصر – وكان كليبر من هذا الفريق .

٣– فريق ثالث كان أكثر اعتدالاً ويرى البقاء في مصر إلا إذا دعت مصلحة فرنسا الى غير ذلك فمثلاً يمكن إذا هزمت فرنسا في أوربا – أن يكن الجلاء عن مصر مقابل صلح شريف مع أوربا .

أما التعليمات التي تركها بونابرت لخليفته (كليبر) :

فأهم مافيها هو ما يتعلق بمسألة البقاء في مصر أو الجلاء عنها فهو لم يفتح الباب تماماً فيما يتعلق بالجلاء ولم يوصده تماماً – فقد ترك لخليفته حق تقدير الموقف – فاذا تعذر على الحكومة الفرنسية أن تمد جيشها في مصر بالأموال والرجال والسلاح اللازم ، أو إذا فتك الطاعون والأوبئة بالجنود بحيث نقص عدد الجيش (حدد عدد المتوفين الذي يدعو للتفكير في الجلاء بـ ١٥٠٠جندي على الأقل) – يصبح لكليبر في هذه الأحوال الدخول في مفاوضات مع الحكومة العثمانية للجلاء .

تقرير كليبر لحكومته :

أرسل كليبر الى حكومة الادارة في فرنسا تقريراً عن حالة الحملة في

مصر عند تسليم القيادة وأهم ماتناوله التقرير : (١)

١- تكر أن الجيش الفرنسي قد نقص عدد رجاله الى ما يقرب من النصف وأن الجنود أصبحوا بحاجة ماسة الي الملابس والأسلحة .

٢- أن المصريين علي استعداد للثورة في أية لحظة ضد الفرنسيين .

٣- التحصينات فى الثغور المصرية أصبحت فى غاية الضعف بعد أن استولى الانجليز على المدفعية الثقيلة التى كانت مرسلة للشام .

٤- الخزانة المصرية أصبحت خاوية ورواتب الجنود لم تدفع منذ عدة أشهر .

٥- العثمانيون يتأهبون لإستعادة مصر ، وهو يرى أنه من الأفضل فى ظروف الجيش الفرنسى فى مصر التى شرحها - أن يترك العثمانيون يتحملون عب ء عبور صحراء سيناء والتقدم للحدود المصرية بعيداً عن خطوط تموينهم ومراكزهم في الشام وحينئذ يمكن للفرنسيين التصدى لهم والقضاء عليهم .

وقد وقع هذا التقرير فى يد الإنجليز كما وقع عدد من رسائل الضباط الفرنسيين لذويهم فى فرنسا تعطى صورة قاتمة عن أوضاعهم فى مصر فكانت من داوافع تعنتهم فى شروطهم للموافقة على خروج الفرنسيين من مصر .

اتفاقية العريش (يناير ١٨٠٠) :

كان كليبر كما رأينا - ينظر لوضع الفرنسيين فى مصر - نظرة أخرى خلاف نظرة بونابرت نفسه - فبادر فى سبتمبر ١٧٩٩ بالكتابة

(١) مذكرات الجنرال كليبر Carnet du General Kleber

وكذلك مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر :

Notes du General Morand sur les opperations du General Kleber

الى الصدر الأعظم وكان فى ذلك الوقت بجيشه قرب الحدود المصرية يطلب فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر .

على أن الأمر لم يكن بهذا اليسر لأسباب منها :

١- المسألة لم تكن قاصرة على العثمانيين والفرنسيين ، فتركيا كان لها حلفاء - منهم انجترا التى كانت قابضة على البحر فموافقتها على خروج الفرنسيين من مصر كانت لازمة لإتمام وتنفيذ أى اتفاق .

٢- كانت فرنسا في حرب فى أوربا مع عدد من الدول (النمسا ، الروس، انجلترا) - فلم يكن من السهل أن توافق انجلترا على خروج جيش ضخم من مصر لينضم لجيوش بلاده فى الحرب ضد انجلترا وحلفائها . ففى ١٧٩٩ لعل من صالح انجلترا وحلفائها بقاء هذا الجيش فى مصر محبوساً الي أن تنتهي الحرب الدائرة فى أوربا.

٣- كان يمثل انجلترا فى منطقة البحر المتوسط أى فى سواحل المصرية والبلاد العربية ضابط بحرى هو سيدنى سميث (Sidney Smith) أعطى القيادة فى البحر المتوسط بعد انتقال نلسن للإستفادة به فى الحروب فى ايطاليا - وقد اعطت انجلترا لهذا القائد صفة أخرى بالاضافة إلى صفته الحربية ، فقد أعطى لقب (سفير مفوض) ولعل الهدف من ذلك تقوية مركزه لدى الدولة العثمانية - وكانت لهذا القائد أراء تختلف بعض الشئ عن أراء حكومته ، وكان له اتصال ببعض الفرنسيين المعارضين للثورة في فرنسا منهم (فيليبو) السابق الإشارة إليه أثناء حديثنا عن معركة عكا .

ويجب أن نضع فى الإعتبار أنه كانت للسفير فى ذلك الوقت حرية التصرف غير الوضع فى وقتنا هذا حيث الاتصالات سهلة وبسيطة

ويمكن إصدار التعليمات بسرعة بين الحكومات لممثليها فأصبح الممثلون اليوم مجرد (بوق) ينقل رغبات حكوماتهم .

على كل طلب سيدني سميث - حين علم بخبر ما يجرى من مفاوضات بين العثمانيين والفرنسيين أن يشترك في الأمر ، وكان مندوب فرنسا في المفاوضات (ديزيه) وفرنسي آخر من المدنيين مدير الادارة المالية في مصر .

ووصل الطرفان الى ماعرف (باتفاق العريش) وقد اتفق فيه على :

١- ينسحب الفرنسيون من مصر ويسلمونها للسلطات العثمانية بشرط أن يعاد الجيش الفرنسي سالماً لبلاده حاملاً سلاحه وذخيرته .
٢- تقدم الدولة العثمانية السفن اللازمة لنقل هذا الجيش لفرنسا .
٣- تناولت الاتفاقية بعد هذه الأمور الاساسيه أموراً أخرى تتعلق بتنظيم الأنسحاب على دفعات .

ونلاحظ أن اتفاق العريش لم يتعرض لمسألة الحرب عامة بين فرنسا والدولة العثمانية مثلاً وهذا شئ طبيعي فكليبر لم يكن من سلطته أن يتحدث عن حكومته بهذا الشأن ، كذلك الصدر الاعظم ، بالطبع بعد خروج الفرنسيين من مصر يسهل الصلح بين الدولتين بعد زوال سبب الجفوة بينهما .

فقد وافق السيرسدني سميث على الاتفاق ، ووجوده وإشتراكه جعل كليبر من ناحية والعثمانيين من ناحية أخرى يرون أن انجلترا ليست لديها معارضة لكن الوزير المفوض الإنجليزى لم يوقع على الاتفاق على أساس أنه ليس لديه تعليمات من حكومته بإمضاء المعاهدة .

بالفعل بدأ الفريقان كل من ناحيته تنفيذ الاتفاق بإخلاص فقد أخلي الفرنسيون مناطق تسلمها العثمانيون ، فقد سلمت مديرية الشرقية كلها ، وأصبحت الجيوش العثمانية على مشارف القاهرة .

لكن فجأة وردت رسالة الى الجنرال كليبر من القائد العام الانجليزى في البحر المتوسط وهو اللورد كيث (keith) وذلك في مارس ١٨٠٠ يخبره فيها إن حكومته أرسلت له تعليمات بأنها لاتسمح بخروج الفرنسيين من مصر إلا كأسرى حرب .

وقد غيرت هذه الرسالة معالم الوضع كله من أوله لآخره ، نظر البعض لهذا القرار الإنجليزى على أنه عدم التزام من الحكومة البريطانية بما قبله مندوبها - سيدني سميث - في اتفاق العريش .

والحقيقة التي وضحت بعد ذلك بجلاء أن الحكومة الانجليزية أرسلت تعليماتها هذه في ديسمبر ١٧٩٩ - قبل أن تصل أنباء إتفاق العريش لانجلترا ، ويبدو أن الحكومة الانجليزية لما علمت بالاتصالات الجارية بين الجنرال كليبر والصدر الأعظم للوصول لاتفاق - أرادت أن تعلن سياستها فأرسلت تعليماتها السالفة الذكر لكنها وصلت بعد أن كان الاتفاق قد تم وأتخذت خطوات لتنفيذه .

أرسل كليبر حين وصلته رسالة القائد الانجليزى للصدر الأعظم بلاغاً يطلب منه أن ينسحب من الأراضى المصرية ، ولما رفض الصدر الاعظم الإنسحاب وتقدم الى القاهرة من جهة عين شمس والمرج والمطرية - خرج كليبر لقتاله وسحق الجيش العثماني في معركة هليوبوليس (عين شمس) .

وفى أثناء هذه المعركة دخلت فلول من الجيش العثمانى القاهرة وانضمت للحركة الشعبية وقامت (ثورة القاهرة الثانية) التى سبق أن تحدثنا عنها - عند الحديث عن موقف القوي الوطنية من الفرنسيين،

فحين عودة كليبر من حملتة ضد العثمانيين وجد أبواب القاهرة مغلقة ، وتغلب على الثورة وانتقم بالذات من أهل حى بولاق والأحياء التي تجمع فيها الثوار .

فمعركة هليوبوليس وطرد العثمانيين من مصر والثورة التى واجهها الفرنسيون حطمت إتفاقية العريش نهائيا . بعد فترة جاء للقائد الانجليزى بأن الحكومة الانجليزية تقر الاتفاق لكن كان الامر قد انتهى والجيش العثماني قد هزم .

مقتل كليبر :

استقر كليبر بعد ذلك فى مصر ، وبدأ يدير شئونها مصمماً على إصلاح الكثير من أوجه الخلل التي كانت محتاجة لإصلاح لخدمة الجيش الفرنسى فى مصر .

لكن لم يلبث أن أغتيل كليبر فى ١٤ يونيه ١٨٠٠ على يد شاب من أهل حلب اسمه (سليمان الحلبى) حضر خصيصاً من الشام فى إثر الجيوش العثمانية لإغتيال القائد الفرنسى - وكان مدفوعاً بفكرة بذل روحه لنصرة الإسلام .

فقد دخل هذا الشاب حديقة منزل كليبر وتقدم للقائد العام ، وظن كليبر إنه متظلم فسمح له بالإقتراب منه ليسمع شكواه ، فهجم عليه سليمان وطعنه طعنات مميته قضت عليه فى وقته ، وكان مع كليبر مهندس حاول أن يهجم على القاتل لكنه طعنه فسقط على الأرض واختبأ سليمان الحلبى فى الحديقة الى أن قُبض عليه - وأمر مينو الذى تولى القيادة بعد كليبر باعتباره أكبر القواد سناً بتكليف مجلس لمحاكمتة -

وقد ثبت من المحاكمة أنه لم يكن هناك محرض لهذا الشاب لإرتكاب هذا العمل ، وبالطبع هناك فرق بين دعوة العثمانيين للمسلمين للجهاد وبين حادث الإغتيال - لكن ثبت أن الشاب كانت له اتصالات بثلاثة من مشايخ الشوام المقيمين بمصرو أنه ثبت إنهم نصحوه بعدم القيام بهذا العمل لكنهم أُدينوا باعتبار أنهم علموا بنية القاتل ولم يبلغوا السلطات عن ذلك لتتخذ احتياطاتها ، وقد عملت لجنة المحاكمة محضراً مفصلاً طبع ووزع على الناس باللغتين الفرنسية والعربية - وحكم على القاتل والثلاثة الذين أدينوا كشركاء في الجريمة بالإعدام .

والطريف أن الجبرتى يبدى عجبه لأن هؤلاء القوم تحت تأثير قتل قائدهم لم يندفعوا لأعمال التشفى ، كما كان يحدث فى مصر في العصور القديمة لكنهم ألفوا مجلساً وبدأ يتحرى بدقة عن الجريمة وأسبابها ومن اشترك فيها .

وقد دفن جثمان كليبر باحتفال عسكرى كبير لكن عند مغادرتهم لمصر اخذوه معهم حيث دفن فى بلاده .

مينو (Menou) وقيادته للحملة

تولى مينو القيادة بصفة مؤقته بحكم أنه كان أكبر قادة الحملة سناً بعد اغتيال كليبر فى ١٤ يونيه ١٨٠٠ م - لكن أصدرت الحكومة الفرنسية بعد ذلك فى نوفمبر ١٨٠٠ امراً بتثبيته فى القيادة .

وكانت لمينو مزايا ، وله مساؤى نجملها فيما يلى :

مزاياه :

١- كانت له أراء طيبة فى الإدارة ، وكانت له رغبة حقيقية فى البقاء فى مصر ، ولذا قام بعدة تدابير لتحقيق رفاهية جنوده ، ولإصلاح أحوالهم .

٢ ـ كانت له رغبة فى إصلاح شئون مصر ، وتحقيق المساواة بين المصريين كما أهتم بتثبيت ملكية الفلاحين للأرض التى تحت أيديهم حتى يعملوا بإطمئنان على خدمتها .

٣ ـ لما جاء لمصر اعتنق الإسلام ، بل تزوج من سيدة مسلمة من أهل رشيد ، ولعل هذا خدمه فى علاقته بالمصريين لكن من ناحية أخرى اضعف مركزه أمام جنوده .

مساوئه :

١ ـ كانت خبرته الحربية ضعيفة على الرغم من تقدمه فى السن ، وقد اشتغل فى فرنسا فترة بالسياسة كنائب فى الجمعية التشريعية ـ فهو إدارى أكثر منه قائد حربى .

٢ ـ كان ضعيف الإرادة كثير التردد ، وهذه صفة سيئة فى القائد.

٣ ـ كان مكروهاً من عدد كبير من رجال الجيش لمعارضته للسياسة التى أدت الى عقد اتفاقية العريش ، فقد كان على علاقات سيئة مع كبار قواد الحملة الذين عبّروا عن معارضتهم لسياسته فى مقابلتهم له فى (٢٨ أكتوبر عام ١٨٠٠م) قبل أن تَصدر الحكومة الفرنسية فى (نوفمبر عام ١٨٠٠) أمر تثبيته ، على أن تثبيته فى القيادة لم يؤد بالطبع لعلاج مشكلة إنقسام الجيش الفرنسى معارضين للبقاء فى مصر ـ وهم أكثريه ـ وراغبين فى البقاء فى مصر وهم أقلية .

سياسة مينو الداخلية :

بذل مينو جهداً طيبا لإصلاح أحوال الجيش الفرنسى بمصر ، فحرص على أن ينال الجنود مرتباتهم بانتظام ، وتحسين أحوال معيشتهم ، كما أهتم بالمرضى والجرحى من الجنود ، كما عمد لنشر

الأخبار المطمئنة عن الأحوال في فرنسا لبث الطمأنينة فى نفوس الجنود.

وقد إتجه مينو لتنظيم الإدارة المركزية بالقاهرة ، والأقاليم . وإهتم بشئون الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، فاعتنى بالرى وأدخل عدة نباتات جديدة ، كما إهتم بالنهوض بالصناعات القائمة ، وكان مينو يهدف من ذلك تحقيق الإزدهار الإقتصادى الذى لابد منه لسد حاجات الجيش الفرنسى بالإضافة الى حاجات المواطنين.

لكن هذه السياسة التى بدأها مينو لم تظهر نتائجها فقد كانت انجلترا قد قررت اتخاذ خطوات حاسمة لإجلاء الفرنسيين عن مصر .

جلاء الفرنسيين :

بعد فشل مفاوضات العريش وقتل كليبر - وجدت انجلترا أنه من الضرورى أن تقدم للسلطان العثمانى معاونة فعليه لطرد الفرنسيين من مصر فتقرر مهاجمة من عدة نواحى :

١ - من الشمال بجيش إنجليزى تركى .

٢ - من الشرق بجيش تركى يأتى من الشام .

٣ - من الجنوب بجيش يأتى من الهند فى البحر الأحمر .

الحملة الهندية

وصلت الى القصير ، وزحفت الى قنا ومنها بدأت تزحف صوب القاهرة - لكنها وصلت متأخرة وكانت المعارك قد إنتهت فلم تشترك فى المعارك ، لكن فكرة استحضار جنود من الهند للعمل فى مصر كانت لها أهميتها فى المستقبل فمنذ ذلك الوقت ربطت إنجلترا بين الهند ومصر ،

وزادت أهمية هذا الطريق بعد فتح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ م وانتهى الأمر بالاحتلال الأنجليزى لمصر عام ١٨٨٢ .

من حيث العمليات العسكرية نزلت الحملة الإنجليزية فى أبى قير فى أول مارس ١٨٠١ م وقد أثبت مينو أنه ليس على دراية بفنون القتال فقد أبقى جزءً من جيشه لمواجهة القوات التركية بقيادة الصدر الأعظم بدلاً من أن يتجه بمعظم جيشه لمقابلة الأنجليز فأضعف الجيش بتقسيمه .

كذلك أُخذ على مينو أنه لم يبذل أية محاولة لمنع الإنجليز من إنزال قوتهم للبر - وهو كان يعلم بنية الإنجليز على النزول على شاطئ البحر المتوسط - فكان فى الإمكان أن يوقع ضرراً كبيراً بالإنجليز أثناء عمليات الإنزال هذه خاصة أن ساحل أبى قير ساحل رملى ، فعمليات الإنزال تمت بقوارب صغيرة ، ومع ذلك فقد نزلوا بسهولة واخذوا بعد أن جمع شملهم يتحركون صوب الأسكندرية - وتمكنوا من هزيمة الفرنسيين فى (موقعة كانوب) فى ٢١ مارس ١٨٠١ ، وقد جرح فى المعركة القائد الإنجليزى أبركرومبى (Ralph Abercromby) ومات متأثراً بجراحة أما مينو فبعد المعركة أرتد الى الإسكندرية واستعد للمحاصرة فيها ، ولاشك فى أن هذه أيضاً خطة عقيمة لأن الأنجليز تركوه فى الأسكندرية وعزلوه عن بقية القطر بقطع الحاجز الأرضى بين ادكو ومريوط ، وبذا لم يحتاجوا لقوة كبيرة لمنعه من الخروج من الإسكندرية وهكذا وضع مينو نفسه فى هذا المأزق .

وتقدم الإنجليز صوب القاهرة ـ وأضطر القائد الفرنسي لحامية القاهرة أن يُسلم للإنجليز والعثمانيين في يونيه ١٨٠١ بشروط اتفاقية العريش .

وأضطر مينو حين إشتد الحصار عليه في الإسكندرية الى التسليم أيضاً في سبتمبر عام ١٨٠١ بشروط اتفاقية العريش ـ وتم جلاء الفرنسيين عن مصر ، وعادت ولاية عثمانية كما كانت قبل مجئ الفرنسيين .

نتائج الحملة الفرنسية على مصر

اضطر الفرنسيون لمغادرة مصر بعد إحتلال دام ثلاث سنوات ـ وقد كانت لهذه الحملة نتائج متعددة ، فقد إمتدت أثارها لسنوات طويلة بعد خروج الفرنسيين من مصر ونجمل أهم نتائج الحملة فيما يلي :

أولا : من الناحية العسكرية : فشلت الحملة لعدة أسباب منها :

١ ـ تحطيم الإسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية ، وسيطرة انجلترا البحرية في البحر المتوسط مما كفل لها فرض حصار تام على الشواطئ المصرية ، فإنقطعت صلة الفرنسيين في مصر بوطنهم ، وعجزت فرنسا عن إرسال النجدات والإمدادات لجيشها بمصر .

٢ ـ إنضمام العثمانيين الى أعداء فرنسا ـ فلم تنجح محاولات بونابرت لتصوير حملته على أنها جاءت لتأديب المماليك ، ولا محاولات الحكومة الفرنسية لمعالجة ما سببته الحملة من جفوة بين الفرنسيين والأتراك .

٣ ـ موقف المصريين العدائي من الفرنسيين رغم محاولات بونابرت ـ كسب المصريين الى جانبه ، وقد ظهرذلك في الثورات المتعددة التي

اشتعلت في القاهرة والأقاليم ، وفي حركات المقاومة والأنتقام التي قوبل بها الجيش الفرنسي في الوجهين البحري والقبلي .

٤ - الإنقسام الذي حدث في صفوف الجيش الفرنسي نفسه ، وروح اليأس التي دبت في نفوس الجنود ، بل وُجد من القادة أنفسهم من إنتقد فكرة الحملة ذاتها ، وكان معارضاً لها .

ثانياً :من الناحية السياسية :

١ - أظهرت الحملة بجلاء أهمية موقع مصر في الصراع الإستعماري بين انجلترا وفرنسا .

ومنذ ذلك الوقت وجد في السياسة الإنجليزية ما عُرف باسم (المسألة المصرية) ، وكما ذكرنا إن الربط بين مصر والهند في مشروعات الدفاع عن الأمبراطورية البريطانية - كان له أثره في السياسة الإنجليزية وفي موقف انجلترا من مصر طوال القرن التاسع عشر وفي المنتصف الأول من القرن العشرين ، فكان تدخل انجلترا في شئون مصر ثم إحتلالها لها في عام ١٨٨٢ ، وإصرارها على عدم الجلاء خاصة عن منطقة قناة السويس .

٢ - أظهرت الحملة ضعف قوة العثمانيين ، والمماليك ، وقد قتل عدد كبير من المماليك واختل أمرهم إختلالاً كبيراً وطردوا من مصر ولو مؤقتا ، فضعفت قبضتهم على مصر - وحتى بعد عودتهم لا يمكن أن يعودوا كما كانوا ، فقد كان بمصر باشا عثماني كبير ، بالاضافة الى الجيش الإنجليزي .

ويمكن أن نقول إن مسألة السلطة في مصر ومن يمسك بزمام الأمور فيها - وضعت من جديد على بساط البحث بعد جلاء الفرنسيين عنها.

٣ ـ كذلك إشتراك المصريين المحدود الى جانب الحكام الفرنسيين فى ادارة شئون بلادهم فى الدواوين وغيرها ـ كانت له أثاره فى خلق جو من الثقة بين المصريين والشعور بقدرتهم على إدارة البلاد وحقهم فى أن يكون لهم نصيب فى تسيير دفة الأمور فيها .

ثالثا : من الناحية الإجتماعية :

قضت الحملة على كثير من الجمود الذى كان يُخيم على المجتمع المصرى منذ قرون ـ وكان دخول الفرنسيين مصر ـ حدثاً فريداً فهو الأول من نوعه بالنسبة للشرق الأدنى ـ دخول جيوش غربية لأول مرة من مدة .

ويمكن أن نقول إن الحملة الفرنسية كانت صدمة عنيفة لأهل البلاد. الجبرتى يصف هذه الفترة بأنها فترة (النكسات) .

فقد فوجئ المصريون بجيش يهبط أرض بلادهم وهو مسلح بسلاح حديد ، وأفكار جديدة ـ بدأ المصريون يدركون أن هناك أمماً متفوقة على الأمم العربية ، تستطيع التغلب عليها وتحكمها.

وقد أحدث هذا هزة نفسية وعقلية ورد الفعل المنتظر إما :

أ ـ تفكير فى الأقتباس من النظم الغربية ـ وهذا ما حدث فيما بعد فى عصر محمد على .

ب ـ التمسك بما أخذ عن السلف ـ وقد ظهر هذا فى الحركات السلفية (الوهابية ـ السنوسية ـ المهدية) .

وبذلك يمكن أن نحمى المجتمع من التيارات الوافدة ، بالطبع الأمر يختلف من مجتمع لآخر ، فهناك مجتمعات مفتوحة ومستعدة للتأثيرات الخارجية، ومجتمعات مغلقة ومحافظة على القديم وتحارب هذه البدع ويقوم فيها من يتصدون لهذا التيار الجديد .

جاء مع بونابرت ـ كما ذكرنا ـ جيش من العلماء وقد اهتم هؤلاء بعمل دراسة لمصر وضمنوها فيما بعد فى كتاب وصف مصر (Description de l'Egypte)

<u>والكتاب ينقسم الى عدة أقسام :</u>

١ – قسم خاص بتاريخ مصر وآثارها :

وهو مبني على ما كتبه المؤرخون القدماء من أمثال سترابون وهيرودوت ـ لأن اللغة المصرية القديمة لم تفك رموزها إلا فى عام ١٨٢١.

لكن أهمية هذا القسم ـ إنهم وصفوا بالتفصيل وبدقة الكثير من آثار مصر ، والكثير من هذه الآثار التى كانت موجودة فى وقتهم غير موجودة الآن ، لأنه مما يؤسف له أن آثار مصر أصابها فى الحقبة الماضية من التخريب والتحطيم ما لم يصبها فى الآلاف السنين التى سبقت القرن التاسع عشر. فمعرفة الناس بقيمتها انتهى بتخريبها ـ فقد كانت هذه الآثار متروكة تغطيها الرمال وتحميها من عوامل الجو و من الإنسان ـ لكن إدراك أهميتها ترتب عليه عمليات تنقيب وكشف وسرقة ،كما أن حكومة محمد على كانت حكومة نشطة تبنى الكثير من المصانع والمدارس والمؤسسات الأخرى ، وأدى هذا تخريب للآثار القديمة لا مثيل له ـ كانت تؤخذ أحجار المعابد لتحرق وتحول لجير ـ هذا بالاضافة الى أن قناصل الدول من امثال ـ دروفتى (Drovetti) قنصل فرنسا فى مصر مثلاً فى عهد كليبر ـ قاموا بحركة واسعة لانتزاع الآثار المصرية وبيعها فى الخارج ، إما للمتاحف الأوربية أو لأشخاص أوربيين ـ وبذا فقدنا عدداً كبيراً من التماثيل والأوانى بل وجثث الموتى .

ولذا كانت أهمية وصف الفرنسيين للآثار. فكثير منها كآثار

ولذا كانت أهمية وصف الفرنسيين للآثار، فكثير منها كآثار الأشمونين ، هرموبوليس القديمة ، ومعبد إدفو كانت موجودة في أيام الحملة الفرنسية وإختفت الآن .

كذلك جمع الفرنسيون مجموعة كبيرة من النصوص ونقلوها من على جدران المعابد ، والمقابر إما بالتصوير أو بالرسم الدقيق وكانت هذه أساساً طيبًا وعونا كبيراً للحركة التي قامت لدراسة النصوص حين عُثر على (حجر رشيد) (١)- مما أدى لكشف رموز اللغة المصرية القديمة التي على جدران المعابد والمقابر وغيرها.

٢ ـ قسم خاص بما أطلقوا عليه ـ التاريخ الطبيعي :

وأهمية هذا القسم إنه كان أول دراسة علمية بعد عبد اللطيف البغدادي ـ للبيئة المصرية بعناصرها المختلفة ـ التربة ، والنباتات ، والجو، والماء ، والحشرات ، والحيوانات ، والنيل ، والبحيرات المختلفة فهي دراسة طيبة تمت على الطبيعة وعلى أساس الملاحظة .

٣ ـ القسم الثالث خاص بما أطلقوا عليه (الحالة الحاضرة في مصر) :

فقد درسوا عناصر السكان ، والعادات ، والتقاليد ، والكتاب لا يحتوى على مقالات وأبحاث ـ لكن جزء منه عبارة عن رسومات لآلات الزراعية التي كان يستعملها المصريون ، محاصيلهم ، والأزياء المختلفة التي يلبسونها ... الخ .

وقد صدرت ترجمات للكتاب في طبعات متعددة ، بعضها طبعات حديثة .

ولعل الآثار الثقافية للحملة هي من أهم ما بقي من آثار هذه الحملة .

---

(١) عثر عليه في يوليو عام ١٧٩٩ بين بقايا بعض الأبنية القديمة ، وهو من الجرانيت الأسود وقد نقش على وجهه نقش بثلاث لغات ، الهيروغلفية ، واللغة المصرية العامية القديمة ، واليونانية وظهر أن النقش يرجع لعصر البطالمة ، وقد نجح شامبليون في عام ١٨٢٢ في فك رموزه عن طريق موازنة الأسماء الموجودة في المجموعات الثلاث وبذا كشف رموز اللغة المصرية القديمة .

مراجع للمزيد من الدراسة

أولاً ـ مراجع عربية أو معربة :

١ ـ جلال يحيى : مصر الحديثة

٢ ـ حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث

٣ ـ عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٤أجزاء)

٤ـ عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر (جـ ١ ، جـ ٢)

٥ ـ علماء الحملة الفرنسية : كتاب وصف مصر

٦ ـ كريستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر (ترجمة فؤاداندراوس ـ ١٩٦٧ـ)

ثانيا_ مراجع أجنبية :

1- Berthier : Relation Des Campagnes du General Bonaparte en Egypte et en Syrie.

2 - Bertrand : Campagnes d'Egypte et de Syrie

3 - Description De l'Egypte

(مذكرات نابليون التى أملاها فى سنت هيلانه)

4 - Martin : Histoire de l'Expedition Francaise en Egypte (1818)

5 - Miot : Memoires Pour Servir á l'Histoire Des expeditions en Egypte et en Syrie .

6 - Marcet : Histoire Seientifique et Militaire de L'Expedition Francaise (10 Vols. 1830 - 1836)

7 - Napoleon : Correspondances de Nopoleon

8 - Norry : Histoire De l'Expedition D'Egypte.

9 - Kleber : Journal Du General Kleber.

10 - Volney : Voyage en Syrie et en Egypte (1784 - 1795)

عصر محمد على
(١٨٠٥ ـ ١٨٤٨)

محتويات الفصل :

ـ النزاع على السلطة ووصول محمد على للحكم .

ـ توطيد سلطان محمد على بمصر .

ـ سياسته الداخلية :

* التنظيم الادارى

*سياسته الأقتصادية

*الاهتمام بالتعليم والثقافة

*الجيش والبحرية

ـ سياسته الخارجية :

* سياسته تجاه الدولة العثمانية

* حروب مصر فى عهد محمد على :

١ ـ الحرب الوهابية

٢ ـ فتح اليمن

٣ ـ السودان فى عهد محمد على

٤ ـ حرب الموره

٥ ـ حرب الشام

ـ معاهدة لندن وتسوية المسألة المصرية .

النزاع على السلطة ووصول محمد على للحكم

بعد أن اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر - أصبحت البلاد كالمرجل المضطرب يشتد فيها النزاع والصراع بين القوى المختلفة التى كانت تحاول كل منها عبثاً - أن تصل إلى الزعامة آخر الأمر وهذه القوى هى :

ا - الأتراك العثمانيون:

ارادوا استرجاع سلطانهم كاملاً على مصر ، لكن أحوال الدولة العثمانية نفسها لم تكن تسمح بذلك .

فالوالى التركى لم يكن يجد من دولته ما يمكنه من السيطرة على الموقف ، فلم تكن تمده بالجند اللازمين للسيطرة على الحال ، وإذا أرسلت جنداً لم تمده بما يلزم من المال لدفع أعطياتهم (مرتباتهم) فإذا تأخرت الأعطيات ثاروا عليه وعزلوه أو قتلوه ، حدث هذا مراراً فى هذه الفترة مما أنتهى بالباشا التركى الى أن يُصبح عاجزاً تمام العجز عن تنفيذ ما يريد بل عن التأثير فى مجرى الأحداث مما أدى الى أنه هبط بسمعته ومقامه وجعله فى حال أسوأ مما كان عليه المماليك .

وكان الجند الأتراك الذين أختارتهم الدولة لمصر هذه الأيام شيئاً آخراً غير الجنود - سمهم لصوصاً ، أو قطاع طرق ولا تقل إنهم كانوا جنوداً ، فلم يكونوا يُشبهون الجنود فى شئ يصورهم لنا الجبرتى تصويراً دقيقاً ويذكر لنا طرفاً من أفعالهم ويعدد لنا مساوئهم ، ويصف لنا حال القاهرة وأهلها معهم فلا نملك أنفسنا من الأشمئزاز من هذه الحال السيئة التى لا مزيد عليها (١) .

كان جنود الوالى مؤلفين من الإنكشارية وهم القوة الرسمية ، ثم (الإمداد) التى كانت ترسل كالالبانيين الدلاة - وكان على رأس الألبانيين

(١) عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

قواد كثيرون نذكر منهم طاهر باشا ومحمد على ، وكان هذا الأخير يرقب الأمور فى هدوء وحذر وينتظر الفرصة المؤاتية ليفعل شيئا .

وكان الجند عامة فى ثورة دائمة واضطراب لا ينقطع لأن رواتبهم لا تُدفع ، وكانوا لا يجدون سبيلاً يحصلون منه على ما يريدون إلا إرهاق المصريين وابتزاز أموالهم .

وكان إذا ضاق الأمر بالوالى يلجأ لأحد أمرين إما فرض ضريبة جديدة ، فيثور المصريون أو رفض الدفع فيثور الجنود وبين هاتين الثورتين ضاع مقام الوالى التركى وضعف أمره ..

فإذا أضفنا الى ذلك أن الولاة الذين أختارتهم الدولة كانوا من نوع سيئ جداً ، لا خبرة ولا أخلاق ولا حزم لهم ـ استطعنا أن نكون فكرة كاملة عن وضع الأتراك فى ذلك الوقت فى مصر .

٢ - المماليك :

كانوا بعد حروبهم الطويلة مع الفرنسيين ـ قد بلغوا مبلغاً من الضعف لا تُرجى لهم معه قائمة ، وأصبحوا فئة من المشاغبين المتآمرين الذين لا يجدون لهم مكاناً فى البلاد ، فتارة هم فى البحيرة ، وأخرى فى الصعيد،لا ينفك الوالى التركى يمكر بهم ويحاول الإيقاع بهم فى سلسلة طويلة من المؤمرات نجوا من كثير منها ولكنها أضعفتهم على كل حال ، مؤامرات تركية تقوم على دعوتهم الى وليمة فى منزل أو سفينة ثم تصوب إليهم البنادق ويقتلون مقتله تُثير الإشمئزاز .

وإزاء هذا رحبوا بالتعاون مع أى حليف ، وصاروا يميلون الى الإنجليز وطوراً الى الفرنسيين ، لم تكن لهم سياسة مقررة ثابتة إنما كانوا يلتمسون العون من أى سبيل ، مالوا أول الأمر الى الإنجليز ورحب بهم هؤلاء وناصروهم علانيةً وتولوا حمايتهم من كثير مما أريد بهم .

لكن المماليك كانوا قد وصلوا فى هذه الأيام الى درجة من الإنحطاط المعنوى استحال معها الإعتماد عليهم أو التعويل على عهودهم ، كانت الدنيا قد أسودت فى وجوهم ، وكسرت الحملة الفرنسية شوكتهم فلم يعد لهم من الحول ولا المركز كما كان لهم فيها مضى ، وإنما أصبحوا ريشة فى مهب الريح ، ولا يكاد يتودد اليهم أحد ويعرض عليهم صداقته حتى يستجيبوا له ، لأن شعورهم بالضعف كان بالغاً فسهل على السياسية الفرنسية أن تجذبهم لصفها فى كثير من الأحيان ـ كما حدث حين وفد الى مصر ماثيو دلسبس (Mathieu DeLesseps) مرسلاً من قبل الحكومة الفرنسية فى أغسطس سنة ١٨٠٣ ـ اذ استقبله زعيم المماليك ابراهيم بك بالحفاوة وتقرب اليه .

ولما أحس مندوب انجلترا بهذا الإتجاه أسرع من جانبه يتقرب للماليك، وكان المندوب الإنجليزى يعلم السلاح الذى يمكن به تحقيق هدفه ـ فقد كان المماليك قد انتهت بهم الحال الى الحاجة الشديدة والعوز البالغ وأصبح المال إغراءً مؤثراً فى نفوسهم ، فلم يلبث المندوب الأنجليزى مسست (Misset) أن وزع المال ونشر الرشى فعاد المماليك إليه، فأسخط هذا مندوب فرنسا وأراد أن يقلد خصمه ولكن أين له المال وحكومة الجمهورية مفلسه لا تستطيع أن تمده بالمال اللازم لهذا الأمر فلم يجد أمامه إلا الخمر يقدمها للمماليك ليكسب ودهم . وكانت الخمر تدخل البلاد بإسمه معفاة من الضرائب ، وكانت رخيصة الثمن لا تكلف الحكومة شيئا كثيراً فأسرف دليسبس فى استعمالها ولم يستح أن يجعل فى داره حاناً كما قال الميجور مسست ، وهناك يتردد عليه المماليك فيحاول أن يكسب ودهم و يعيدهم الى حسن الظن به و بفرنسا .

٣ـ شخصية تحظى بالتأييد الشعبى :

فى هذه الظروف الصعبة كان لابد من رجل يخرج بالبلاد من هذه الفوضى وذلك قانون من قوانين التورايخ التي تصدق فى كثير من الأحيان .، كل فوضى سياسية ، وحروب أهلية تنتهى آخر الآمر الى ظهور رجل قوى يُسيطر على الحال ويُعيد الهدوء ويعلن الدكتاتورية . هكذا ظهر قيصر من فوضى الحرب الأهلية بين الأحزاب فى روما ، ونابليون من فوضى الثورة فى فرنسا ، وصلاح الدين من فوضى الإنقسام فى العالم الإسلامى المهدد بالحروب الصليبية .

وكتب أمريكى كان فى القاهرة سنة ١٨٠٤ م يقول : " إن مصر من غير رئيس لابد لها من رئيس جديد ، وأول متقدم سيُقابل بالترحيب ".

والواقع إن الغالبية كانوا يتوقعون إنه لم يكن هناك مخرج إلا باحتلال أجنبى أو ظهور مُخاطر على المسرح ، واستيلائه على السلطة ـ كان المماليك بأعدادهم القليلة عاجزين تماماً عن استرداد ما كان لهم من مقام وعن طرد الأتراك ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يجلبوا جنوداً جدداً من الشرق ، لأن الباب العالى قد حرم إدخال الصبيان إلى مصر .

فى هذه الأثناء كان محمد على رئيس الألبان ـ يرقب الأمور عن كثب ويدرك بفطنته ما سينتهى إليه هذا الصراع ، كما أدرك بفطنته شيئاً آخراً خفى على الجميع ـ ادرك أن الأحداث التى مرت بمصر قد أيقظت القوى الشعبية فى مصر لتدرك حقها فى بلادها وفى إختيار الحاكم الصالح الذى يقود السفينة فى وسط هذا البحر الهائج .

بدأ محمد على فأمرجنوده ألا يعتدوا على الشعب والا يؤذوا الناس ، وأن يتظاهروا بالغضب على الباشا العثماني وجنوده الذين يظلمون الرعية وأن يقولوا للناس صراحة :

« إنا منكم ، وأنتم الرعية العسكر ونحن لن نرضى بهذه الضرائب ورواتبنا على الميرى لا عليكم »

هكذا بدأت الأنظار تتجه نحو هذا الرجل ، وتُعلق عليه الآمال الكبار وتنظر إليه كمخلص وحليف ..

وهكذا خرج الألبان ورئيسهم من هذا العراك الحامى الذى سينشب بين الجند الأتراك وولاتهم ، وكلما أشتد الضغط على الجنود ، وزاد تأخر مرتباتهم حاصروا الوالى ، فلا يجد مفراً من الهرب إذا اسعفه الحظ - كأمثال خسرو فى أول مارس سنة ١٨٠٣ م .

فإذا هرب الوالى ، فإلى من يلجأ الجند إلا لهذا الرجل الذى يحرص أشد الحرص على أن يظهر بمظهر العادل الحكيم الذى ينفر من كل هذه الأعمال والتصرفات .

يذهب الكثيرون الى أن محمد على كان يستطيع أن يُصبح والياً فى هذه المناسبة - ولكنه آثر الزهد فى الولاية ، فقد كان أذكى من أن يقتحم الأمور هذا الأقتحام ، كان يتريث فى أموره ويحكم تدبيره ، ويحذر الحذر كله من أن يغُضب السلطان ورجال السلطان ، فأصر دائماً على أن يتنحى عن الميدان ، فجعل همه أن يوصى بتولية من يكون فى مصر من الباشوات فيعمل على ولايتهم وهو يعلم أن القاهرة فى هذه الفترة بركان ثائر ، وأن منصب الولاية كان أمام الفوهة - عليه ينصب غضب الناس الذين أستبد بهم الظلم - ونحوه تنطلق قنابل الجنود الذين لا تصلهم مرتباتهم ، كان هناك قائد آخر للألبان هو طاهر باشا أحق منه

بهذا المنصب لأنه باشا ، ولأنه لا يعرف الخطر الجاثم خلف قبول منصب كهذا . كان أسلوبا ماهراً لجأ إليه محمد على ليخلص من طاهر قائد الألبار حتى تنتهى اليه قيادة هؤلاء الجنود فيصبحوا بعد ذلك آلة فى يده يحقق بها مطامعه، كان هؤلاء الجنود هم العماد الثانى الذى أرتكزت عليه قوة محمد على ، أما العماد الأول فهم المصريون ، لقد عمل وعاون على ولاية طاهر باشا ورضى عنه ، ثم أخذ يحفر له القبر من خلفه .

كان على طاهر باشا أن يُجيب مطالب الجنود الثائرين وكان عليه كذلك أن يحول بينهم وبين المصريين ، وكيف يجمع بين النقيضين ويرضى الطرفين .

فلم يطل عمره ، فقد دخل عليه إثنان من قادة الجند وحدثاه فى رفع الظلم وصرف المتأخر من المال فأغلظ لهم القول ، فقتلاه وألقيا برأسه من الشباك ، وخلا الميدان مرة أخرى .

ونظر محمد على فإذا باشا ثالث مار بمصر فى طريقه الى المدينة المنورة ، فلِمَ لا يُقام والياً ولم لا يوضع فى الأتون حتى يفرغ من أمره وهكذا أقيم أحمد باشا واليا على مصر .

ولا شك فى أن محمد على كان يعمل جاداً فى هذه الأيام.فهؤلاء هم ولاة السلطان وجنوده متروكون لبعضهم كلما أكل الجنود باشا قدم إليهم باشاآخر ، فلا يلبثون أن يأكلوه ، لابد أن ينتهى الباشوات يوما من الأيام فيخلو الجو أمام غيرهم .

وكان هناك عنصر آخر لابد لمحمد على أن يعمل حسابه هو (المماليك) الذين كانوا يطمعون فى أن يستردوا ما كان لهم من نفوذ ، وكان هناك فريقان برزا فى ذلك الوقت ، فريق منهم يتزعمه (الألفى) الذى كان قد

سافر لإنجلترا فى أكتوبر عام ١٨٠٢ يتدارس مع الإنجليز الدور الذى يمكن هو وأتباعه أن يلعبوه لحساب انجلترا فى مصر على أن تساندهم للفوز بالسلطة بينما كان بمصر فريق آخر بزعامة (البرديسى) . (١)

ورتب محمد على أن يتعاون مع البرديسى للقضاء أولاً على الوالى العثمانى أحمد باشا ، ثم حين عاد الألفي من إنجلترا دبرا أمر قتله قبل أن يجمع حوله شيعته .

وظن البرديسى أن الجو قد خلا له وأن أمور مصر انتهت بحمد الله الى يديه وكان لا يفطن الى قوة محمد على والى تدبيره فسهل على محمد على على الإيقاع به والخلاص منه .

وهنا تبدأ سلسلة الأحداث المتتابعة التى أنتهت فى أقل من عامين بولاية محمد على واستقرار أمور البلاد وخلاصها من هذه الفوضى التى ظلت تسودها طوال الأعوام الماضية .

ويرجع نجاح محمد على فيما لم ينجح فيه غيره لشئ واحد فقط إنه كانت الى جانبه قوى أخرى تشد أزره وتعاونه هى قوة الشعب المصرى نفسه .

فولاية محمد على أمراً عادياً لا يفترق فى كثير أو قليل عن ولاية غيره من الباشوات الأتراك فنحن رأينا أنه لم يبق فى البلاد باشا تركى ماراً فى الطريق أو والياً على الأسكندرية أو سجيناً إلا أصبح واليا ، فلماذا لا يصبح محمد على والياً وهو التركى الوحيد الذى بقى فى البلاد.

وما يذكره بعض المؤرخين من أن فرنسا هى التى ساندته وأن المسيو

(١) قضى الألفي فى إنجلترا الفترة من أكتوبر ١٨٠٢ الى أواخر ديسمبر من نفس العام ، وتقابل أثناء وجوده بها مع الملك جورج الثالث ، وولى عهده و عدداً من رجال الحكومة البريطانية .

ماثيولسبس رأى فيه الرجل القادر على قيادة الأمور والخروج بالبلاد مما هى فيه ليس فى هذا الزعم ظل من الحقيقة .

!! ؤال- اذاً لماذا ثبت محمد وانتصر فيما لم ينتصر فيه غيره ؟

لأنه كان مرشح المصريين وصديقهم .

كيف تم لمحمد على حكم مصر (مايو ١٨٠٥)

لا شك فى أن المصريين يرجع لهم الفضل فى تولية محمد على - لكن لا نريد أن نذهب مع الذين يبالغون فى تقدير حالة المصريين المعنوية فى ذلك الوقت فيذكرون أنهم لم يكونوا أقل من الفرنسيين الذين قاموا بالثورة الفرنسية المعروفة- فالفرق واضح إذ أن ثورة فرنسا كانت لها مقدمات بعيدة ومقومات بعيدة مهدت الطرق للفرنسيين حتى وصلوا الى الحالة المعنوية التى وصلوا إليها . كان الكتاب والفلاسفة قد ملأوا الأرض بآراء الحرية والمساواة وحقوق الإنسان ، وأفاضوا فى مجد فرنسا ونبهوا إليه الأذهان ، وكانت هناك طوائف كثيرة من الفرنسيين من المتعلمين تعليما مدنياً فى القانون والآداب والفلسفة وما الى ذلك ، وأولئك هم الذين قادوا الثورة وأشعلوا نيرانها ، ثم كان فى الأمة جيش وطنى ، ومهما تكن حالته المعنوية فهو جيش على أى حال ، ولقيام الجندية فى الشعوب أثر إجتماعى معروف ، أما فى مصر فلم يكن هناك إلا عمر مكرم وطائفة قليلة تفهم الأمور حق الفهم وتجرؤ على الثورة والمناهضة وهو- أى عمر مكرم- بعد ذلك كله عالم لا تميل نفسه إلى السياسة ولا يرجو السلطان ، بل إنه كان إسلامى التفكير لا يكاد يرى الأمان إلا فى ظل السلطان .

كان السيد عمر مكرم مثله كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة

من أهل البلاد مهما بلغت مطالبهم فلم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى بنفسه حكومة البلاد .

أما إحساس الشعب بنفسه أو فهمه أن من حقه أن يُعين حاكمه ويراقب أعماله ، فكل تلك أمور سيدركها الشعب المصرى بعد حين - بعد أن يرتقى تفكيره السياسى ويزداد إحساسه بنفسه .

أما فى هذه الأيام فلم يكن المصريون يطلبون إلا حاكماً صالحاً قادراً على نشر العدل وقطع دابر اللصوص والعابثين بالأمن فإذا وجدوه لم يكن لهم بعد ذلك مطمع ولا غاية .

أدرك السيد عمر مكرم أن محمد على هو أصلح الناس لولاية أمور هذه البلاد ، وسعى محمد على نفسه جاهداً حتى استطاع أن يؤكد لصاحبه أنه لا يريد إلا الخير ، ولا يبغى إلا خلاص أهل البلاد مما هم فيه من الإضطراب وسوء الحال .

ا - التخلص من المماليك :

بدأ السيد عمر مكمرم ومن معه من أهل مصر يزيلون العقبة الأولى التى تعترض محمد على وهى المماليك الذين كانوا يدعون الحق فى حكومة مصر ويسعون لذلك بكل طريقة لا يستحون أن يتوسلوا لذلك بالإنجليز أو الفرنسيين ، وكانت زعامتهم - كما رأينا - قد أنتهت الى البرديسى الذى أصبح شبه حاكم على مصر بعد أن تخلص من الألفى وشرده . وأراد أن يمضى على مثل ما كان عليه سابقوه من فرض الضرائب والإثقال على الناس - فلم يكد يفعل ذلك حتى هب الناس فى وجهه ، وتحمسوا وساروا الى دار البرديسى يهتفون به -(ايش تأخذ من

تفليسي يا برديسي)[1] - وانضم الجنود الألبان للمصريين في ثورتهم فحاصروا البرديسي الذي اضطر للهرب من القاهرة وتبعه عامة أمراء المماليك في فزع لا يوصف ، وتفرق جمعهم في الصحراء والأرياف وكانت هذه آخر عهدهم بحكم البلاد حتى قضى عليهم محمد على فيما بعد القضاء الأخير بعد ذلك بسبع سنوات .

وبذلك قرر أهل مصر مصير المماليك وأخرجوهم من الميدان .

٢ - أما الدور الثاني من المعركة فكان ضد الوالي التركي - كان الوالي هو (خورشيد باشا) ، وكان قد أرسل يستصرخ الدولة في أن تبعث إليه جنداً جديداً بعد أن شعر بموقف الألبان ضده ، فوصلته نجدات عبارة عن شرازم من الأجلاف واللصوص جمعتهم له الدولة من نواحي الشام وآسيا الصغرى وأرسلتهم له فانصرفوا للسلب والنهب - مما زاد ثورة الناس ، فاشتد هياجهم وأصبح العداء بينهم وبين ممثل السلطان عداء واضحاً صريحاً ، وأراد خورشيد أن يتخلص من محمد على وجنده فسعى لنقله من مصر فاستصدر من الدولة فرماناً بتعيين محمد على واليا على جدة ولكنه خدم محمداً علياً بذلك من حيث لا يشعر إذ أصبح محمد على من باشوات الدولة جديراً بولاية أمور البلاد .

اذاً مادام محمد على جديراً بحكم جده فهو أولى بأن يبقى في مصر ليكون حاكما عليها ، وكان محمد على يرى خيراً في ذلك فهووال على جدة وليس هناك ما يمنع من نقله الى مصر .

٣ - لم يلبث أن قاد عمر مكرم العامة في أحتفال شعبي في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م نادوا فيه بمحمد على حاكماً عليهم وبشروطهم .

(١) عبدالرحمن الجبرتي : مرجع سابق .

ترتب على هذه الحركة وضع شاذ فقد أصبح في البلاد عاملان تركيان - أحدهما مُعين من قبل السلطان والآخر معين برغبة سواد أهل مصر .

وقد ترك أهل مصر عامل السلطان متحصناً في القلعة يفعل ما يريد [illegible]ا ينتظرون رأى السلطان ، أما خورشيد فقد تملكه الغضب وهاله ما رأى [illegible]ة تعزل حاكم السلطان ، وأخذ يستعد هو ونفر من جنده القضاء [illegible] الحركة وعلى رأسها السيد عمر مكرم ، فما كان من شعب مصر إ[illegible]ل شتى أنواع الأسلحة من عصى وهراوى غليظة وبنادق وسيوف وخد[illegible]وا من بينهم نقباء وعرفاء يأتمرون بأمرهم ويطيعونهم على إنفاذ [illegible] اليهم من خطط ، ولما تخاذل الجنود الألبان وتخلوا عن أداء واجب[illegible]مرار في حصار القلعة - حل محلهم المصريون وطالت مدة الح[illegible]اول الأتراك أن يأخذوهم بالحيلة والخديعة فلم يوفقوا حتى [illegible]لطان من النصر على المصريين فلم يلبث أن أرسل إليهم فرماناً يُفو[illegible]يثبت الباشا الذى طلبوه فحمله عمر مكرم والجماهير معه حتى [illegible]مد على باشا في الأزبكية .

٤ - وكان محمد على قد قبل أن يرتضى من المصر[illegible] عليه - إذا قُدر له الوصول الى الولاية - فلما تم له الأمر وأصبح حاكماً بدأ يفكر في تحديد العلاقة بينه وبينهم ، وأحب أن ينحيهم عن هذه الرقابة التى بسطوها عليه ، فعقد العزم على تنحية المصريين والتخلص من رقابتهم وكان يعلم كذلك أن السيد عمر مكرم أقرب منه الى قلوب الناس وأقدر على قيادتهم فصار يخشاه في نفسه .

وانتظر محمد علي الفرصة المواتية ليعلم صاحبه أن واجبه في العمل قد إنتهى ، وأن أعباء القيادة قد سقطت عنه منذ الساعة - ولكنه ظل محافظاً على ولائه له ليستفيد من وده ، واستطاع فعلاً أن يستند على تأييده ليتخلص من محاولة الدولة نقله الى سلانيك بعد قليل .

وكان محمد علي يبذل قصارى جهده في هذه الأيام ليبدو بمظهر المصرى الخالص الذى لا ينتمى الى الأتراك في شئ ، فكان يسير في طرق القاهرة يحيي الناس مرتدياً لباساً قريباً من لباسهم وقد خلع عنه لباس الجنود والأعراب واتخذ له عباءة كالبرنس تزيل بعد الشقة التي بين الناس وبينه .

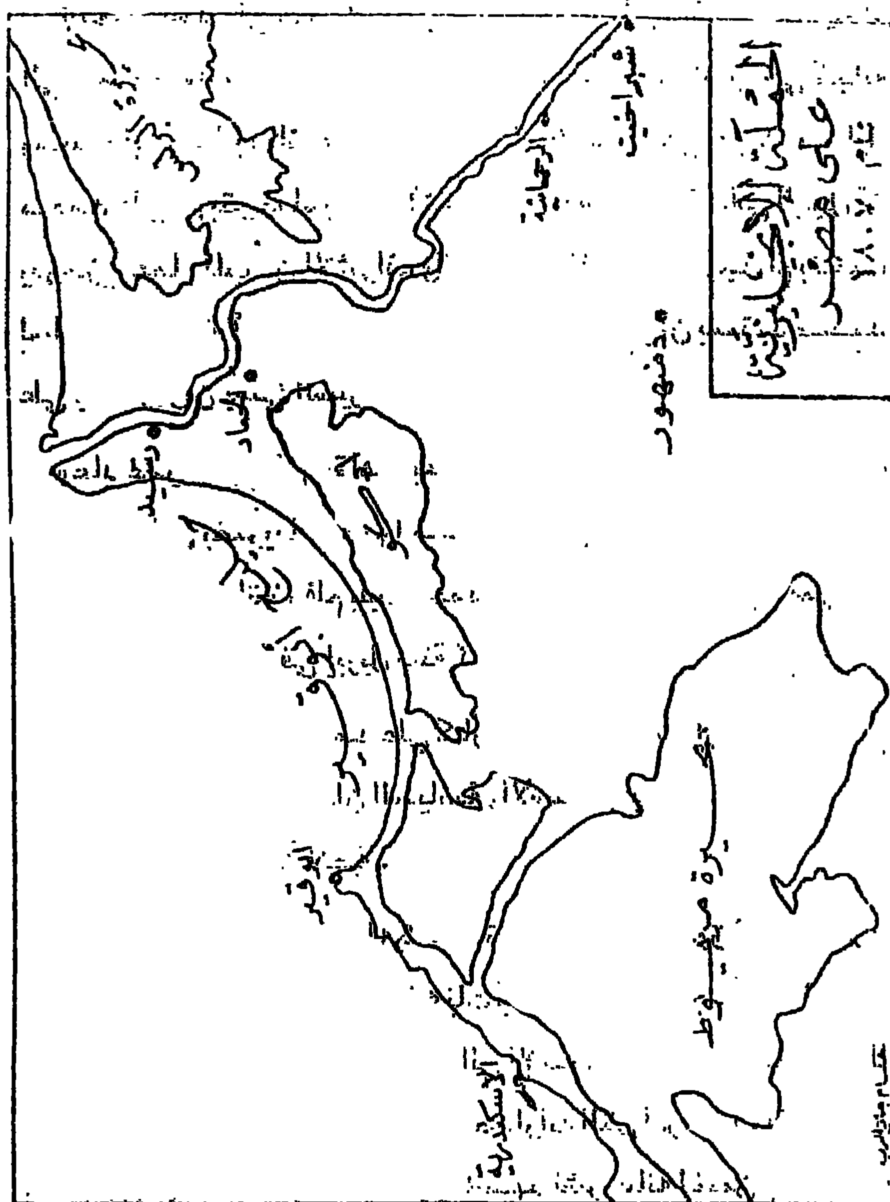
توطيد سلطان محمد علي في مصر

أ - فشل حملة فريزر (Fraser) (١)

ارسلت إنجلترا حملة الى مصر في مارس سنة ١٨٠٧ م بقيادة فريزر فاستولت على الإسكندرية ثم زحفت على رشيد ، وقد روعت أخبار هذه الحملة المصريين فكاتبوا السيد عمر مكرم فأرسل لهم يستحثهم على المسير الى رشيد ، فتجمع الآلاف من الناس وأخذوا يستعدون للخروج لرشيد في تحمس وقوة واتجهوا الى قرية (الحماد) حيث قابلوا الإنجليز وهزموهم هزيمة منكرة وانتهى الأمر بجلاء الإنجليز عن الإسكندرية في ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ ، وكان محمد علي في الصعيد يتعقب فلول المماليك، فلما عاد ذهب إليه السيد عمر مكرم وأعلمه بما جرى - فأفهم السيد عمر وأصحابه أنهم لم يعودوا مكلفين بالدفاع عن البلاد بعد أن صار فيها جيش قادر ، وأن عليهم أن يلزموا مقرهم فيه فيفعلوا ما يطلب إليهم الجند وكفاهم بذلك فضلاً .

---

(١) كان الهدف من إرسال هذه الحملة معاونة الألفي وحلفهم ليتفرد بحكم مصر، ولكنهم وصلوا بعد وفاة الألفي بأربعين يوما ، وأصروا على الإستمرار في حملتهم خاصة بعد سقوط الأسكندرية في أيديهم ولم يدركوا انهم سيقابلون قوة شعبية تستهزم بهم وترغمهم على أعقابهم .



شكل ٥

حملة فريزر

٢ ـ محمد على يتخلص من الزعامة الشعبية :

انتهز محمد على فرصة احتجاج عمر مكرم على بعض أعماله ونفاه الى (دمياط) واستعان على ذلك بنفر من علماء مصر بادروا الى خيانة زميلهم ليحظوا بمكانه وأمواله ، فظل الرجل فى المنفى حيناً ، وحاول محمد على أن يترضاه بالمال وأن يكسبه بحسن المودة فأبى الرجل أن يتزحزح عما طلب من الإشراف والرقابة ، والغالب أن الرجل لم يغضب لسلطة نُزعت منه أو حق سلب منه وإنما كان يخشى أن يستبد محمد على بالناس وأن يُسئ السيرة معهم .

وعاد عمر مكرم الى القاهرة بعد أن عفا عنه محمد على ـ لكن حدث أن ضج الناس بضريبة فرضها محمد على عليهم فتهافتوا على السيد عمر يرجون وساطته ، فلم يلبث محمد على أن أمر بنفى السيد عمر الى (طنطا) فمضى إليها فى إبريل سنة ١٨٢٢م ومات بعد ذلك بقليل .

والبعض يرى أن محمد على كان على حق فيما إرتأى من إبعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والأستئثار به وحده لكى يستطيع المضى فى خططه الإصلاحية .

لكن لاشك فى أن سبيله كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فإنه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه ، ولو لم يُبادر الى الإستعانة بهم فى جيوشه لما أستطاع أن ينتصر على الدولة الأنتصارات التى أدركها . لقد تحمل المصريون فى رفعه جهداً فلو حاول كسبهم لمشروعاته لضمن لإصلاحاته قوة وثباتاً من روح الشعب وقوته ، فلو وجدت بذوره تربةً طيبة منها لكانت إصلاحاته مست الأساس دون الشيوخ . لو كان المصريون شركاء

له فى العمل لما إنهدم عمله عن آخره بعد وفاته ، ولو قد ربى معه مدرسة من المصريين يقومون على نواحى العمل من بعده لكان ذلك أجدى على البلاد من انتصاراته الحربية المؤقته ، بل لوجد لنفسه حصناً يحتمى به حين تكتلت الدولة ضده ، لوجد نفس الحصن الذى حماه من قبل ولَما آل مرة الى الخاتمة المحزنة التى صار إليها آخر الأمر.

٣ـ التخلص من المماليك :

حاول محمد على أن يصل الى إتفاق مع المماليك يعترفون فيه بسلطانه ، ويضع حداً لشرورهم وليمكنه بسط نفوذه على الصعيد ، خاصة أن الباب العالى كان قد عهد إليه بإعداد جيش لمحاربة الوهابيين ـ لكن امتنع بكوات المماليك عن دفع الميرى المطلوب منهم وأستأثروا بإيرادات الصعيد وخيراته فاضطر محمد على لأنَ يرسل لهم حملة فى عام ١٨١٠ ـ أوقعت بهم الهزيمة لكن لم تقضِ على نفوذهم تماما .

ولذا دبّر محمد على فى أول مارس عام ١٨١١ مكيدة للقضاء عليهم فدعا زعماء المماليك للقلعة للإحتفال بتقليد إبنه طوسون القيادة العامة لحملة الحجاز فقتل عدداً كبيراً منهم ـ كما تعقب إبنه ابراهيم المتبقين بعد مذبحة القلعة والتقى بهم عند (اسنا) وقضى على عدد منهم وفر الباقون الى دنقلة بالسودان .

والبعض يجد لمحمد على العذر فى تخلصه من المماليك بهذه الطريقة فقد كانوا عقبة فى طريق تنفيذ ما اعتزم القيام به فى مصر ، وكانوا مثار شغب وفوضى خاصة إنه كان يعتزم أن يبعث بجنوده خارج حدود مصر .

ويرى آخرون أن هذا العمل يتسم بالخسة والغدر ـ كما أن مذبحة القلعة لم تقتصر آثارها واضرارها على المماليك فقد بثت الفزع والرعب

فى قلوب المصريين ، فلم يعد أحد يجرؤ على معارضة محمد على أو نقد تصرفاته طوال مدة حكمه - فكانت مكملة لعملية القضاء على عملية المشاركة الشعبية له فى شئون الحكم والادارة فكان المصريون مجرد تروس فى عجلة الإنتاج تدور دون وعى أو إدراك .

على كل بالقضاء على المماليك ونفوذهم توطد سلطان محمد على فى مصر الوسطى والصعيد - وبدأ يتفرغ لتنفيذ السياسة التى رسمها لحكم مصر وادارتها .

سياسة محمد على الداخلية بمصر

قبل أن نُلقى نظرة على السياسة التى سار عليها محمد على فى مصر يجدر بنا لكى نحكم على عصر محمد على وأعماله فى مصر أن نلاحظ بعض الأشياء الرئيسية :

١ - يجب أن ندرك طبيعة محمد على نفسه ، فقد كان تركيا عثمانياً وتربيته وطبيعية غرست فيه الأخلاق التركية من حذق فى تدبير المؤمرات الى رغبة فى الأستبداد بالرعية والحرص على الأستئثار بالسلطة ، الى الإلتواء والتعقيد ، حاول أن يستر طبيعته هذه ، فأفلح تارة ولم يفلح مرات .

٢ - إنفراد محمد على بالعمل دون أهل البلاد : أستبد بالأمر دون أن يوضح للناس غايته - فكرهوه ولم يؤازروه إلا على جبر وإضطرار ، لا يكاد أحدهم يخلص له فى قول أو فى فعل .

٣ - مصر وماضيها الحضارى : فهى ليست أمة طارئة فى عالم الدول المتحضرة ، فشـ ـبها شعب متحضر ذكى ، والدولة المنتظمة ليست أمراً طارئا عليها فكان لمحمد على فقط أن يبدأ وأن يُشعر المصريين

بالأطمئنان حتى يدب النشاط وتعاود الأمة سيرها الطبيعى فى طريق التقدم والأزدهار .

٤ ـ نفور المصريين من الحكومات : لم ير المصريون فى الحكومات السابقة الا هيئات غاشمة من الظالمين العتاه ولكثرة ما تواتر عليهم من عهود الظلم وتجبر الحاكمين لم يكن الناس يُحسنون الظن بحكومة ما بعد أن تقلبت عليهم مظالم حكومات الترك والمماليك بضعة قرون ، فكان الناس يكرهون الحكومة يأسا من الحاكم الصالح ، ومن هنا كان طبيعى أن ينظر الناس بعين الريبة الى حكومة محمد على ونظامه ـ فهم يتوقعون الشر فى كل ما يبدر لهم من أعماله حتى لو بدا لهم جانب الخير منها ـ فإذا افتتح لهم مدارس ودعاهم الى دخولها حسبوا أن تلك مؤمراة يراد من ورائها الشر بأبنائهم فخافوا ، واذا أقام مستشفى تخوفوا من دخولها مخافة أن يكون وراءها شر ، وإذا حفر ترعة اجتنبوها خشية المغارم . وبهذا حاقت مظالم أسلاف محمد على به وشقى هو بمرارتها ، ولم يكن على المصريين لوم فى ذلك فمن أين لهم أن يحسنوا الظن بهذا الباشا الجديد وقد أراهم كل باشا قبله الذل ، ومن لهم أن يفطنوا الى الخير البعيد الذى يقربهم إليه بينما لا يجدون فى حاضرهم إلا غصصاً وشقاءً .

فالحوادث المتلاحقة التى تواترت علي المصريين فى السنوات الأخيرة زادت من ضعفهم ، فكان لابد لهم من فترة من الراحة يستجمون فيها ويستعيدون ما تفرق من قواهم ، فلما دعاهم محمد على الى موافاته والخروج معه إلى مبادين الحرب والنهوض معه بشئون الصناعة تخاذلوا عنه. ولو قد أخذهم بالإصلاح بتؤده دون أن يثقل عليهم بحرب أو أسطول

أو ضرائب ثقيلة لفطنوا هم الى الخير الذى يعده لهم بعد أن يعرضوا مافقدوا فى العصور الماضية .

كذلك نفر المصريون من محمد على لما أراد أن يفرض عليهم الأنظمة الحديثة ـ فقد كانت أمراً جديدا ، فقد أراد يأخذ الناس بتغيير أساليب حياتهم وشئون معاشهم فشق عليهم التغيير وخصوصاً وهم لا يفهمون المراد منه ولا يصلون بأبصارهم الى الأفاق البعيدة التى كان محمد على يسوقهم نحوها ـ لم يروا فى أنظمته الحديثة إلا حَجراً على حريتهم وتدخلا فى شئونهم فأسخطهم ذلك .

كما أن محمد على لم يدُخل الأنظمة الأوربية لمصر كاملة بحسناتها ومساوئها ـ لكنه جردها من هذه المحاسن فى الغالب ـ فالجندى الفرنسى كان يذهب الى الجيش فتفرض له ألا غطية الوافرة ويكسى اللباس الفاخر ، وكان يجد فى معسكره الطعام الكثير والطبيب المعالج وكانت تطلق له بعض الحرية فيصيب نصيباً من المتعة فيما يفتح من البلاد ، أما الفلاح الذى كان محمد على يجره من داره الى الميدان فلم يكن يتمتع بشئ من ذلك ، كان يُعطى أبخس الأجر ، ويُكسى أقل الكساء، ولا يجد الطبيب المعالج ولا شيئاً من التسرية ولا جانباً من المتعة .

ولم تكن مدة الجندية محددة ، بل كان يدخل الجيش دخولاً أبديا ، وعلى القياس كانت بحرية محمد ومدارسه ومصانعه حتى بعوثه العلمية ، ولذا لم ير الناس فى هذه الاصلاحات إلا وجوه الشر وخفيت عنهم وجوه الخير فابتعدوا عنها وأنكروها كل الإنكار.

وكان رد فعل ذلك أن يسئ محمد على الظن برعاياه المصريين ، ولو فكر قليلا فى حقيقة أمرهم لما أشجاه وأسخطه نفورهم منه وعدم مجاراتهم له ، ولكنه كان متعجلاً لا يملك من الوقت ما يفكر فيه، كان يريد أن يأمر فيطاع دون سؤال أو تردد ولم يكن لديه من الفراغ ما يمكنه من تربية هذا الشعب وإعداده فى هوادة ورفق ، ولم يجد بُداً من الإستغناء عنهم والأعتماد على طائفة من الأتراك من جهة وطائفة من الأجانب من جهة أخرى.ولو لم ينصحه (دروفتى) قنصل فرنسا بالاستعانة بالمصريين ويبصره بملكاتهم وامكانياتهم واستعدادهم الفطرى ـ لما فكر قط فى الإستعانة بهم ولظل على حذره منهم لا يكاد يُبالى بهم أو يحفل لهم .

٥ – كذلك يُلام محمد على لإسرافه فى الإنصراف والإهتمام بشئون الحروب وحدها دون التفات صادق الى أية ناحية أخرى من نواحى العمل والنشاط إلا ماكان متصلاًبالحرب ـ لكن لعل له العذر فى ذلك أن روح العصر كانت تفرض ذلك عليه فرضاً وتُمليه إملاءً ، فقد كان يعيش فى عصر بونابرت.وعصر الإمبراطوريات الروسية والنمساوية ، فالدنيا كانت فى ذلك الوقت مجرد مجد حربى .

لكن لاشك فى أنه لو تفرغ لتنظيم البلاد واستصلاح أرضها وتعليم أهلها وتقوية مرافقها ـ لا الى الفتح والاتساع وإنشاء الامبراطوريات فحسب لحقق لمصر شيئاً آخراً .

فكيف كان يبغى أن تنتظم الزراعة ويسود الرخاء مثلاً وهو لا يكاد يُبقى على الأرض مواطنا قوياً صالحاً إلا قذف به فى ميادين القتال ، وكيف يدخر المال للإصلاح والمشاريع ومن ورائه جيش يحتاج الى

ميزانية تعادل ميزانية مصر عشرات المرات ، ثم كيف كان محمد على يرجو أن يرقى بنفوس الناس ويرتفع بحالتهم المعنوية وهو يحصد شبابهم حصداً ويلقى بهم فى ميادين الحروب فينفرهم من الحرب ، ويزرع فى قلوبهم كراهية النظام والعسكرية .

كان يحتاج أن يجرى على شئ من النظام فى أعماله فلا يكلف الناس إلا وسعهم .

ولعله كان مُرغماً فى كثير من الأحيان ، فمثلاً كان مرغما حين قذف بجنده فى صحراء العرب لحرب الوهابين ، فقد كان والياً عليه طاعة السلطان ، والبعض يجد له العذر فى تخلصه من المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة ماداموا لا يثبتون له فى ميدان فلم يكن بد من الخلاص منهم .

ولعله من المفيد أن نلقى نظرة على الطريقة التى اتبعها محمد على فى ادارة شئون البلاد الداخلية :

أولاً- التنظيم الإدارى :

كانت الإدارة المصرية قد وصلت الى درجة كبيرة من الإضطراب عندما تولى محمد على حكم البلاد ، فاهتم بتنظيم الادارة بما يكفل له السيطرة الكاملة على شئون البلاد .

فقسم البلاد الى سبع مديريات ، يتبع كل مديرية عدد من المراكز ، وهذه تنقسم بدورها لعدة أقسام ، والأقسام تضم عدة قرى .

وكانت الحكومة المركزية فى القاهرة على رأس هذا النظام الإدارى فمنها وحدها تصدرجميع الأوامر الواجبة التنفيذ.

ورغم أن محمد على كان هو مصدر السلطة العليا ، ورغم أنه حكم البلاد حكماً دكتاتوريا مطلقاً فقد أنشأ عدة مجالس ودواوين لتعاونه فى تسيير دفة الأمور فى البلاد - من هذه الدواوين والمجالس :

الديوان العالى : يرأسه الكتخذا (نائب الباشا) - ومهمته البحث فى شئون البلاد الداخلية .

مجلس الشورى : يتألف من كبار موظفى الحكومة ، والأعيان - ويجتمع مرة واحدة فى السنة - لإبداء الرأى فى مسائل الادارة ، والتعليم والأشغال العامة .

لائحة عام ١٨٣٧ : حددت هذه اللائحة نوع الدواوين المختلفة واختصاصاتها (تشبه الوزارات اليوم) - فهناك ديوان للجهادية ، وديوان للمدارس ، وديوان للتجارة ، وديوان للإيرادات ... الخ

المجلس المخصوص : يختص بإقتراح القوانين وعرضها على الباشا لإقرارها .

ورغم أن محمد على كان هو مصدر السلطة العليا ، ورغم أنه حكم البلاد حكماً دكتاتوريا مطلقاً فقد أنشأ عدة مجالس ودواوين لتعاونه فى الإسترشاد برأى المختصين والعلماء - ولذا فيمكن أن نصف إدارته بأنها كانت إدارة مستبدة مستنيرة .

ثانياً - السياسة الأقتصادية لمحمد على :

كان محمد على منذ بداية حكمه فى حاجة ماسة للمال لسد نفقات الحكومة ، وسداد رواتب الجند ولسد الإحتياجات اللازمة للنهوض بالبلاد فى مختلف المجالات - ولتحقيق هذا لجأ محمد على لعدة وسائل :

١ - ضبط الشئون المالية ـ وذلك بمنع تسرب الأموال الحكومية لأيدى موظفين خونة يستولون على الأموال بطرق غير مشروعة ـ وفى هذا المجال نجده يضع حداً للوسطاء فى الجمارك .

كذلك وضع حداً للإعفاءات التى كان يتمتع بها بعض الأعيان والعلماء والموظفين دون مبرور .

وفى هذا المجال أيضاً وضع حداً لعدد من الإغتصابات من وجهة نظر الحكومة ، أناس يضعون أيديهم على موارد للمال دون أن تكون لديهم حُجج تثبت حقوقهم أو بموجب حجج مزورة ـ فانتهز هذه الفرصة فوضع يده على هذه الموارد ـ مثل ذلك عدة أوقاف وجد أنها تُدار بطريقة مغايرة لشروط الواقفين لصالح فئة من الناس -.الجبرتى ذكر أشياءً كثيرة من هذا القبيل ، ومن وجهة نظره أنه من الجشع أن يطمع الحاكم فيما في أيدى الناس وأن حقوق هؤلاء الناس أصبحت حقوقاً مكتسبة بمضى المدة فليس من العدل إنتزاع هذه الحقوق من أيديهم .

٢ ـ ألغى الإلتزام فى كثير من المجالات ـ وقد سبق أن تحدثنا عن نظام الألتزام والدافع له وما كان يجنيه الملتزمون من مغانم ـ فحلت الدولة مكان الملتزمين ،ومن ثم عادت إليها الفوائد التى كان يجنيها الملتزمون من جراء هذا النظام .

٣ ـ الأحتكار: لعل بداية هذا النظام كانت فى عام ١٨١٠ م فقد كانت هناك أزمة غلال فى كثير من ممالك البحر المتوسط ، وكانت انجلترا بالذات فى حاجة لكميات كبيرة من الغلال لتموين الجهات الخاضعة لها فى البحر المتوسط (صقلية ـ بعض جزر البليار، أجزاء من أسبانيا) وكانت لدى محمد على كميات كبيرة من القمح ، والفول مما يورده الوجه القبلى من ضرائب نوعية ، وقد وجدت الدول الأجنبية أنه من

الأفضل أن تتعامل مع شخص واحد - خاصة إذا كان هذا التاجر هو الحاكم ويستطيع تسليم البضاعة فى الإسكندرية أو رشيد أو دمياط .

كما أن تصريف بعض المحاصيل كالقطن مثلاً يحتاج لعمليات متعددة ومعقدة - حلجة ثم تعبئته أو كبسه فى بالات ، وهذا يحتاج لمصانع للحلج والكبس بالإضافة إلى أن عمليات التمويل تحتاج لبنوك للقيام بها - كل هذه فرضت نظام الأحتكار فى المعاملات فى ذلك الوقت .

وتوسعت عمليات الأحتكار فلم تقتصر على الأنتاج الزراعى ، فالمواد الخام مثلاً تضع الحكومة يدها عليها وتوزعها على الصناع وتجمع ما صنعوه وتتولى بنفسها بيعه فلا تسمح للصناع بدخول السوق بأنفسهم ، مثال ذلك الأقمشة الكتانية أو الحريرية أو القطنية - توزع الحكومة على النساجين الخيوط وتتجمع الأقمشة ، فالنساج فى هذه الحالة يكون مجرد صانع بالأجر .

بالطبع هذا النظام له مزايا - فالحكومة أقدر على تمويل مثل هذه المشروعات وأقدر على تسويقها - لكن له مساوئ أيضا فقد يُظلم المنتج يلزم بأن يبيع إنتاجه بثمن بخس ، وقد يحتاج لنفس هذا الانتاج فيضطر لشرائه بأثمان باهظة .

ولنلقى نظره علي ما قامت به حكومة محمد على فى مجالات الأقتصاد المختلفة .

الزراعة :

ألغى محمد على نظام الإلتزام ، كما وضع يديه على الأراضى الأخرى التى كانت بحوزة بكوات المماليك ، وبذا أصبح المالك لكل أراضى مصر - باستثناء (الأبعديات) التى أنعم بها على بعض المقربين إليه وكانت معفاة من الضرائب ، وكذلك (الجفالك) وهى الأراضى التى منحها لأفراد أسرته .

ووزع الأراضى على الفلاحين فأعطى كل منهم ثلاثة أو أربعة أفدنة ليقوم بزراعتها فى مقابل دفع المال المقرر عليها (الميرى) ، ولم تكن الأرض تورث ـ لكن تنتقل لأبناء الفلاح بعد وفاته إذا كانوا قادرين على زراعتها ودفع المال الميرى .

ولزيادة مساحة الأرض المزروعة وجهت عناية بالغة لشئون الرى فحفرت الترع فى الوجهين البحرى والقبلى ، وأُقيمت الجسور والقناطر ومن أهم القناطر، التى بدأ تنفيذها فى عهده القناطر الخيرية عند تفرع النيل الى فرعيه ـ وأدى ذلك لتطبيق نظام الرى الدائم .

وقد ترتب على ذلك إدخال زراعات جديدة والتوسع فى الزراعات القائمة ـ فزرعت مساحات كبيرة بالقطن طويل التيلة ، كما غُرست أشجار التوت ، والزيتون ، والنيلة .

الصناعة :

أهتمت حكومة محمد على بالنهوض بالصناعات القديمة التى كانت قائمة بمصر ، كالنسيج ، وصناعة الأوانى الفخارية والحصر وغيرها .

وأقيمت مصانع عديدة فى مختلف جهات مصر ، فأقيمت مصانع لغزل القطن ونسجه فى المحلة الكبرى ، ودمنهور ، وبنى سويف ، والمنيا .

كما أقيمت مصانع السكر ومضارب الأرز فى رشيد ودمياط ، هذا بالأضافة الى مصانع للأسلحة فى القلعة ، وبولاق ، ومصانع الجوخ والملابس ، ومدابغ الجلود وصناعة الأحذية .

وقد ارتبطت النهضة الصناعية بالنهوض بالجيش فقد قام العديد من المصانع بهدف سد حاجات الجيش من الملابس والأسلحة وغيرها .

وقد استقدم محمد على عدداً من الصناع الأوربيين للمساهمة فى النهضة الصناعية بمصر ـ على أن النهضة الصناعية لم يترتب عليها أن

يعم الرخاء والأزدهار، فقد أمتد نظام الأحتكار للصناعة فكان الصناع المصريون مجرد أجراء يعملون لحساب الحكومة .

وقد ترتب على تحديد قوة مصر العسكرية نتيجة تدخل الدول وفرض تسوية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ - أن أغلق عدداً كبيراً من المصانع وحلت الصناعات الأجنبية محل الصناعات الوطنية فأصاب الصناعة الوطنية التدهور شأنها شأن باقى مظاهر النهضة التى أرتبطت بالجيش وحاجاته والوالى وأهدافه .

التجارة :

ترتب على النهضة فى مجال الإنتاج الزراعى والصناعى بالإضافة إلى ما تمتعت به مصر من إستقرار داخلى - رواج التجارة سواء التجارة الداخلية أو الخارجية .

وقد وضعت الحكومة يدها على العديد من المحاصيل الزراعية فألزمت الفلاحين ببيع محاصليهم بالسعر الذى تحدده هى وبذا احتكرت الحكومة التجارة الداخلية والخارجية - فأصبحت هى التاجر الوحيد للمحاصيل الهامة كالقطن ، والقمح ، وقصب السكر ، والنيلة ، والكتان - هذا بالأضافة الى مصنوعات الرئيسية .

ولخدمة الأغراض التجارية اهتمت الحكومة بتيسير وسائل النقل المختلفة ، فبدت الطرق البرية كطريق (السويس - القاهرة) ، وشقت الترع للربط بين المدن المختلفة (كترعة المحمودية) التى تربط الإسكندرية بالمدن الداخلية .

الضرائب :

فرضت الحكومة العديد من الضرائب ، وكان بعضها يُدفع عيناً والبعض الأخر نقداً - فمنها (ضريبة الميرى) على الأرض الزراعية ،

وضريبة الرؤوس التى فُرضت على الذكور البالغين ، هذا بالأضافة الى الضرائب التى فرضُت على أهل الحرف ، وعلى الماشية ، وغير ذلك من أوجه النشاط ومصادر الدخل .

وهكذا نرى أن مصر نهضت فى عهد محمد على نهضة اقتصادية كبرى - لكن لم يجن الصناع المصريون ثمارها ، كما أن قيام الصناعات الحديثة ارتبط بالجيش والأسطول - ولذا فقد أُقفلت المصانع وتدهورت الصناعة إثر القيود التى فرضهتا تسوية عام ١٨٤٠ على مصر .

ثالثا - التعليم والثقافة :

كان نظام التعليم السائد فى مصر حتى عصر محمد على هو التعليم الدينى يقوم به ورجال الأزهر والعلماء سواء فى الكتاتيب أو المعاهد .

وأدرك محمد على أنه بحاجة الى موظفين لسد حاجة المصالح الحكومية بالإضافة الى فنيين ومتخصصين فى مختلف الفروع خاصة لسد حاجات الجيش والإسطول .

فأُنشئت المدارس الحديثة الى جانب المدارس القديمة ، ومن هذه المدارس الحديثة المدارس الحربية المختلفة ، ومدارس الطب البشرى ، والطب البيطرى ، والصيدلة ، والزراعة ، والمهندسخانة ، كما أُنشئت المدارس الإبتدائية والتجهيزات لإعداد التلاميذ للإلتحاق بالمدارس العالية الآنفة الذكر .

وأوفد محمد على البعوث العلمية الى إيطاليا - وفرنسا - وانجلترا لإعداد نخبة من المتعلمين المثقفين بالإضافة الى الخبراء الفنيين والعسكريين ، وقد استعان محمد على ببعض الأساتذة الأجانب للتدريس فى المدارس العالية التى أنشأها ، وكان الى جانب هؤلاء مترجمون

ينقلون الدروس الي اللغة العربية ، وحل أعضاء البعثات بعد عودتهم الى أرض الوطن محل الأجانب في التدريس بالمدارس العالية . وصحب هذه النهضة العلمية - نهضة في الترجمة من اللغات الأوربية الى اللغة العربية والتركية ، وكان هذا من الدوافع التى دفعت الى إنشاء (مدرسة الألسن) التى أشرف على إدارتها في فترة من الفترات (رفاعة رافع الطهطاوى) بعد عودته في عام ١٨٣١ من بعثته الى فرنسا .

وفي عام ١٨٢٠ بدأ إنشاء المطبعة الأميرية ببولاق لطبع الكتب اللازمة للمدارس بالإضافة الي الكتب الأدبية والفنية ، وأعقب ذلك إنشاء مطابع أخرى لنشر الكتب وكذلك طبع الأوامر والمنشورات التى تريد الحكومة تداولها بين المصالح المختلفة .

وهكذا سارت النهضة الثقافية والعلمية بخطى سريعة الى أن إنتكست هي الأخرى بعد تسوية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ فأغلقت عدة مدارس وتوقف النشاط العلمي في كثير من المجالات .

رابعا - الجيش والبحرية :

لقد خص محمد على الجيش بأعظم قدر من عنايته لأنه أدرك أنه الدعامة التى بدونها لا يمكن أن يحقق أهدافه ، وكانت كافة مشروعاته العمرانية والثقافية بهدف سد حاجات الجيش . فمن أجل الجيش كان إنشاء المصانع وفتح المدراس وبناء المعسكرات ، وإرسال البعثات للخارج.

وأدرك محمد على أن النهوض بالجيش يستلزم في البداية إدخال النظم الحديثة في الجيش - وقد وجد مقاومة عنيفة من الجنود القدامى الذين لم يعتادوا هذه النظم الحديثة فاعتبروها بدعة ووقفوا في طريق تنفيذها ، فلجأ محمد على الى تشتيت الجنود غير النظامين فوزعهم على الثغور .

وفى عام ١٨٢٠ بدأت الخطوات العلمية للنهوض بالجيش بفتح مدرسة حربية فى (أسوان) لتخريج الضباط اللازمين للجيش ، وقد عهد محمد على فى عام ١٨٢٠ م الى الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) بمهمة تنظيم الجيش الجديد ، وهو من الضباط الفرنسيين الذين قاتلوا فى حروب بونابرت - فقام بهذه المهمة على خير وجه . وقد اشترك مع الجيش المصرى فى حروب المورة والشام وأصبح رئيساً عاما للجيش المصرى وأنعم عليه محمد على سنة ١٨٣٤ بالباشوية ، واحتفظ بمنصبه فى الجيش فى عهد ابراهيم باشا ، وعباس ، وسعيد وتوفى عام ١٨٦٠.

وكان إختيار (أسوان) مكاناً للمدرسة الحربية لبعدها عن العاصمة بدسائسها ومؤامراتها ، كما أنها تبعدهم عن أماكن اللهو بالعاصمة - وقد أستغرق تدريب النواة الأولى من الضباط ثلاث سنوات .

وبعد ذلك عكف هؤلاء الضباط على تدريب الجنود على النظم الحديثة . وكان الإتجاه فى البداية الى تجنيد السودانيين حتى لا يؤدى تجنيد المصريين الى حرمان أرض مصر من مجهوداتهم - على أن هذه التجربة لم تنجح مما دفع محمد على للتفكير فى تجنيد المصريين .

ورغم الصعوبات التى قابلها محمد على فى هذا السبيل - فإن ما حققه الجنود المصريون فى عهد محمد على من انتصارات وما برهن عليه الجيش الجديد من كفاية ونظام بالمقارنة بما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفاً من (الأرناءوط) وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية - يدل على مبلغ استعداد الأمة المصرية لأن تكون أمة حربية خاصة إذا ارتبط الأمر بالدفاع عن الوطن .

ومن أجل الجيش أنشأ محمد على المدارس الحربية فبالأضافة الى مدرسة (أسوان) الحربية أسست عدة مدارس أخرى ، منها مدرسة

المشاة (بالخانكة) ، وقد نقلت بعد ذلك الى دمياط ثم إلى أبى زعبل، ومدرسة الفرسان بالجيزة ، ومدرسة المدفعية بطره ، ومدرسة أركان الحرب بالخانكة أيضاً ، ثم أنشأ مدرسة الموسيقى العسكرية على غرار نظم الجيش الأوربية .

وأهتم محمد على بإحياء البحرية المصرية فبادر بتعمير (ترسانة) بولاق لصناعة وإنشأ إدارة خاصة للأساطيل المصرية التى كانت تعمل فى البحرين الأحمر والمتوسط ـ وبعد تحطيم الأسطول المصرى فى واقعة (نوارين) البحرية فى عام ١٨٢٩ ـ اتجه محمد على لإنشاء اسطول جديد فأنشأ داراً لصناعة السفن بالأسكندرية وكان يجلب الأخشاب اللازمة من آسيا الصغرى وغيرها حيث تقوم الترسانة بتصنيعها وأستعان فى ذلك بعدد من الصناع الأوربيين .

ولتخريج الضباط البحريين أنشأ محمد على مدرسة بحرية كما أرسل البعثات البحرية للخارج ـ ولتصبح ميناء الأسكندرية صالحة لرسو السفن بذل جهداً كبيراً في توسيعه وإصلاحه ، كما إهتم بانشاء فنار (رأس التين) لإرشاد السفن القادمة الى الميناء والخارجة منه وقد ساهم المهندس الفرنسى سيريزى (Cerisy) فى النهضة البحرية فى عهد محمد على ، ولتزويد الجيش والإسطول بحاجتهما من الذخيرة والأدوات الأخرى أُنشئت مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة ، ومصانع البنادق ومعامل البارود ـ كما أُقيمت المصانع التى تزود الجيش والأسطول بالملابس اللازمة .

تقييم لسياسة محمد على الداخلية بمصر :

يحسن بعد هذه الدراسة للسياسة التى انتهجها محمد على فى مصر أن نحاول تقييم هذه السياسة .

نُشير فى البداية الى أن محمد على لم يقلب نظام العمل والحياة فى مصر رأساً على عقب كما يتصوره الكثيرون ، ولم يستعمل الأساليب الأوربية الصرفة كما ردد البعض ، لكن كما ذكرنا أن محمد على كان شرقياً فى تفكيره وكل ما هناك أنه أحسن استغلال الوسائل التى تحت يده .

١ ـ فنظام الإحتكار ـ وهوأساس نظامه المالى والحكومى نظام شرقى سبقه إليه الكثيرون من حكام الشرق والهند وفارس ـ لكنه عرف كيف يستفيد بالمال الذى يصل الى يديه من هذه الوسيلة (الأحتكار) . أفاد منه إلى درجة أذهلت معاصريه

٢ ـ وفكرته عن التعليم : شرقية أيضاً ـ فلم يكن المراد من التعليم تعليم الشعب وتثقيفه وتحسين حاله ، بل المراد تخريج نفر يدخل فى خدمته، ويفى بحاجته ، ولذا أهتم فى البداية بتعليم تلاميذه الرسم والحساب ، وكان أكثر مدارسه صناعيا ، وعلى هذا الأتجاه كانت بعوثه ولكن فكرته لم تلبث أن تطورت بعض الشئ فبدأ يفكر فى إنشاء مدراس للتثقيف ورفع مستوى الأمة بعد ذلك بقليل .

٣ ـ أما عن الجيش والبحرية : فقد توجه محمد على بهمته كما رأينا الى نواحى الأدارة جميعا ، وتناولت أعماله نواحى النهضة كلها ، فباشر التجارة ونظم المالية ، وأقر الأمن ، ورعى الصحة العامة ، ونهض بالزراعة ، وأهتم بالتعليم ـ لكن الجيش والبحرية كانا موضع إهتمامه وسر نشاطه كله لأنه كان فى أشد الحاجة إليه لحماية نفسه فى عصر كثرت فيه الحروب والوقائع والجيوش . ويشهد التاريخ بالعبقرية لمحمد على فى ذلك ـ عبقرية استطاعت أن ترسل الى الميدان الآلاف من خيرة العسكر يحاربون مخلصين بشجاعة ومهارة تشهد له ، فإنه أقبل

على البلاد وليس فيها جندى واحد جدير بهذا الأسم ، فاستطاع فى فترة قصيرة جدا أن يحول مصر إلى (قوة) حربية من الدرجة الأولى يخشى بأسها ويحسب حسابها - ملأ بها نواحى الدولة الإسلامية حرباً ونصراً، من السودان الى بلاد العرب - الى الشام الى الأناضول واليونان وكريت - لقد أثبت هذا الرجل للعالم الأوربى أن الشرق العربى لا يزال قادراً على إعداد الجيوش وتسيير الجحافل وكسب المواقع والإنتصارات .

٤ - جهوده فى الصناعة والزراعة : كانت أعماله فى هذا المجال نابعة من نظرية الأستقلال الأقتصادى للدولة وتمكينها من سد حاجاتها بنفسها - اهتدى إليها الرجل بنظرته السليمة ولم تهتد إليها أوربا نفسها الا بعد الحرب العظمى ، وها هى الدول كلها تحاول اليوم أن تصل الى ما حققه محمد على قبل قرن من الزمان . والعجيب أن هذه المشروعات الزراعية والصناعية لم تزعزع نظامه المالى - فظلت نسبة الإيراد والمنصرف محفوظة ، كان ينفق على مشاريعه وأعماله بسخاء ويعرف الوجوه التى يجمع من أجلها المال ، فقد فطن الى أن قوة الحاكم ليست بما لديه من ذهب وإنما بما فى بلده من مصانع وما فى أرضه من محصول .

ولو قدر لمصر خلفاً له يرث مواهبه لأستمرت حركة التصنيع والنمو الإقتصادى والزراعى ولوصلت مصر الى ما وصلت إليه دولة صناعية كاليابان مثلاً بدأت معها فى نفس الفترة الزمنية تقريباً .

٥ - محمد على ورعيته : على أنه يؤخذ على محمد على أن الرعية لم يكن لها حساب فى مشاريعه ولم يكن لها من خيراته وأرباحه ، فقد

استصلح مساحات واسعة من الأرض وأدخل محاصيل جديدة وفيرة الربح والخير كالقطن والتوت - لكن الفلاح ظل أجيراً مسكيناً مُسخراً كما كان في عهد المماليك والأتراك .

وأنشأ من المصانع العديد التي تُدر الربح العظيم - لكن رعيته كلها كانوا أجُراء لا ينالون من المال إلا النذر الذي يسد رمقهم .

وكانت للرجل جيوشه أشترك فيها الآلاف من رعاياه لكن أحداً من الرعية لم يرتفع عن مكان الجندي الذي يؤمر فيطيع وهكذا كان الرجل شرقيا بل تركياً صرفاً .

سياسة محمد على الخارجية

أولا - محمد على والأوروبيون :

تحددت سياسة محمد علي تجاه الدول الأوربية في ضوء موقف هذه الدولة منه .

فمن جهة فرنسا : لاشك في أن ما تردد من أن محمد علي كان صنيعة لفرنسا وإنه كان آلة في يدها خطأ . وإذا كنا قد أيدنا أن الفرنسيين لم يكن لهم أثر في ولايته - فإن القول بأنه كان يعمل لحساب الفرنسيين ويوحي منهم خطأ أيضاً ، بل أشار هو إلى أن ادعاء الفرنسيين صداقته لهم وتقديره إياهم يضره ولا يفيده فهو يثير عليه انجلترا ولا يحميه من جرائر هذا الغضب ، ويخيف السلطان منه ولا يمنحه ما يأمن غضب السلطان - والدليل على ذلك أنه أبى أن يفتح الجزائر لحساب فرنسا ، ولو كان صنيعة فرنسا للبى طلبها مُسرعاً دون أن يحسب لغيرها حساباً .

أما الفرنسيون فقد كان موقفهم متناقضاً ، فقد جاهروا بالإعجاب به ومناصرته ، لكن عطفهم عليه كان (أفلاطونيا) أي أقتصر على

التمنيات الطيبة لكنهم فى نفس الوقت خذلوه حين أحتاج لمعاونتهم بل حاربوه برجالهم وسيوفهم - وقد كان يحسن الظن بهم ويأمل الخير فيهم والعون منهم - ولذا لم يلبث أن ملكه العجب حين وجد فرنسا تناصبه العداء وتتفق مع انجلترا عليه . وحين حاول قنصل فرنسا أن يبرر موقف دولته إزاءه بقوله "إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوربية أيضاً ، إن فرنسا أيدتك ولكنها لم تستطع أن تتحلل من روابط السياسة التى تربطها بأوربا وانجلترا خاصةً" - لم تجز عليه هذه المبررات .

فقال فى رده عليه " لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن أحلافها لخاطرى وإنما وددت لو لم تقف منى موقف العداء " .

هذا ولا تغرينا مساهمة الفرنسيين فى أعمال محمد على وإسراعهم للعمل معه ومعاونته فى مشاريعه - فالفرنسيون الذين خفوا لعون محمد على لم يكونوا من طراز الرجال ألا فذاذ الذين تُهديهم دولة لصاحبتها ، وإنما كانوا بالعكس ممن تتخلص منهم بلادهم ، فباستثناء الكولونيل سيف كانوا ذوى كفايات محدودة جداً - كما تدل على ذلك أعمالهم . وقد وُجه لأعمالهم الكثير من النقد (كالقناطر الخيرية التى أقامها لينان) - كما إن هؤلاء الرجال لا يمكن أن ينظر إليهم على أنهم مبعوثين من قبل الحكومة الفرنسية - لكن مجرد أفراد دخلوا خدمة محمد على طمعاً فى الكسب والمغامرة وليس إلا .

أما إنجلترا - فقد كانت أشد أعداء محمد على خطراً عليه وأكثرهم إساءة إليه، وقد علل البعض ذلك الموقف بأنه راجع لعدم رضاهم عن أساليبه التى رأوا فيها ألوانًا من الظلم والإرهاق لرعاياه ، والبعض أرجع ذلك الى تأكدهم من ضعفه وعجزه عن النهوض بأعباء الدور الذى كان يريد أن ينهض به ، وأنهم كانوا على ثقة من أنه لن يستطيع الحلول

محل الدولة العثمانية وإيقاف التيار الروسى ، ولهذا وجدوا أن التوزا الدولى يقتضى - حماية الدولة منه وإيقافه عند حده ، ماذا تكون النتيـ لو تركوه يهدم الدولة العثمانية اليوم ثم تنهدم دولته نفسها غداً .

على أن كل هذه المبررات ليست فى الحقيقة هى الدوافع الحقيقـ لموقف انجلترا منه ، فأنجلترا كانت تحرص على بقاء الدولة العثمانـ لشعورها بضعف تركيا ، فلو كانت تركيا قوية لشمر الإنجليز عن ساع الجد لهدمها والقضاء عليها لأنها رأت أن مصلحتها كانت تقتضى قيا دولة ضعيفة على طول طريق تجارتها الى الهند حتى تأمن على هـ الطريق - فمعارضتها فى تقسيم تركيا لم تكن رحمة بها أو مراعـ لجانب الإنسانية وإنما كانت خوفاً من أن يقع جزء من أراضى الدولة فـ أيدى دولة قوية أوروبية فتهدد تجارتها بالخطر ، ومصداق هذا أنه سارعت فوضعت يدها على مصر وفلسطين وغيرهما من المناطـ الحساسة فى الدولة حين سنحت الفرصة .

فمنذ إستولت فرنسا على الجزائر اتجهت للإستيلاء على مصر وكانـ لانجلترا مصالح تجارية قوية فى بلاد الدولة العثمانية ، وكان سر انتشا المنتجات الانجليزية راجعاً الى خلو بلاد الدولة من المصانع أو موا الانتاج ، فاحتكرت انجلترا الاتجار فى أسواق الدولة العثمانية - فلم نهض محمد على وأنشأ فى بلاده المصانع والمعامل واستغنى بذلك عـ كثير من الواردات الأنجليزية - أسخطهم ذلك وبادر كبار الرأسماليـ الأنجليز بالشكوى ، وحاولوا أن يشوهوا أعماله وكالوا له التهم ، وزا من سخط الإنجليز أن محمد على زاد الضرائب على الصادرات والواردات فأصبـ التاجر الإنجليزى يدفع ١٢٪ على البضائع الداخلة للشام ومثلها على القطر المصدر لانجلترا بدلاً من ٢ ٪ ، فلم يلبث الإنجليز الذين أوغرت هذه

الأعمال صدورهم أن وقفوا منه موقف العداء مدعين أنه يهدد السلام الدولي وسلامة الدولة العثمانية - هذا في الوقت الذي كان الأنجليز يغتصبون من الدولة العثمانية ثمن تأييدهم لها - تجديد إمتيازاتهم فى مصر .

هذا ومما أوغر صدر الإنجليز ما أشيع عن محمد على من أنه كان آلة من آلات السياسة الفرنسية وصنيعة من صنائعها ، ومن ثم تخوف الأنجليز منه - وتصوروا الفرنسيين يستترون وراءه - فناصبروه العداء ظناً منهم أنهم يحبطون بذلك مسعى من مساعى الفرنسيين .

هذا وكان إتساع نفوذ محمد على وإمتداده فى السودان وبلاد العرب والشام يخيفهم ويحد من مطامعهم - فاستيلاؤه على السودان والحجاز جعل البحر الأحمر بحيرة مصرية ، ولهذا عجل الإنجليز باحتلال (بريم) على الشاطئ الأفريقى ثم عدلوا عنها آلى (عدن) على شاطئ بلاد العرب، أما إكماله فتح بلاد العرب فهدد سيادتهم على الخليج العربى وزاد تخوفهم منه خاصة بعد أن أخذ يشاركهم فى تجارة الهند بتسيره سفنه فى هذا الخليج فأستطلهم ذلك عليه ، وكان وجوده فى الشام يحول دون تحقيق أطماعهم فى العراق والملاحة فى الفرات .

ثانيا - موقف محمد على من الدولة العثمانية :

١ - لا شك فى أن محمد على كان يلمس ضعف الدولة العثمانية ويحس أنها مقبلة على نهايتها ، وكان يعرف أن سوء نظامهاواختلال أمورها قد هبطا بها إلى الدرك الذى لا نهوض لها بعده ، وبعد أن استقرت له الأمور فى مصر أحس بأنه لا يزال فى خوف من رجالها - لهذا أتجهت أماله فى السنوات الأولى - على الأقل - من حكمه الى الرغبة

فى الأستقلال عن الدولة العثمانية ، وإقامة دولة قوية فى مصر له ولأولاده من بعده .

لكن مصر أعطته أكثر مما كان يتوقع ، فإذا جيشه أضعاف ماكان يتوقع ، وسلاحه أكثر مما يحتاج لتحقيق الأستقلال عن الدولة العثمانية .

وأخذت أماله تنمو مع قواته وازدهار أوضاع مصر ، ثم لم يلبث أن أحس فى نفسه من القوة ما يفوق سلطانه ، وإذا بالسلطان يستعين به على الخارجين عليه من الوهابين وغيرهم ، ونجح فى هزيمة الوهابين وإعادة بلاد العرب إلى طاعة السلطان .

٢ ـ وبدخول محمد على الحجاز أصبح أمير مكه والمدينة ، وتردد سؤال جال فى عقول الناس كما تردد فى كثير من المكاتبات الرسمية الأجنبية هو من أحق بالخلافة ـ السلطان العاجز القابع فى القسطنطينية أم ذلك القوى الناهض الذى يملك القاهرة ومكة والمدينة ؟

وكان الصراع الدولى بين روسيا من جهة وإنجلترا من جهة أخرى وبين انجلترا وفرنسا ـ مما أضفى على هذه الأفكار قوة فأخذت الصحف الفرنسية تغذى فى نفسه الإعتقاد بأن إعلانه الإستقلال بنفسه سيلقى التأييد من فرنسا .

وكان موقف السلطان منه مما دفعه أكثر التفكير فى الإستقلال فقد طلب السلطان عونه فى حرب اليونان ـ لكن لم يمنحه ما وعده به مقابل ذلك ، ولذا لم يتورع محمد على أن يدفع بقواته لمحاربة قوات السلطان ودخلت دمشق فى طاعته وانتصر فى نصيبين فأصبح بلا نزاع سيد الدولة (١) .

(١) أنظر خريطة حروب الشام

واستعان السلطان بالروس، وهكذا أصبح الناس حتى في القسطنطينية ذاتها يستنكرون أن يستجدى هذا الخليفة الضعيف جند النصارى على جنود المسلمين .

وترددت بين العامة والخاصة فكرة لماذا لا يتولى هذا القائد المسلم زمام الأمور فيحمى الدولة من الأخطار المحيطة بها .

٣ ـ ويبدو أن محمد على كان يعلم أن العقبة الحقيقية في طريقة هى انجلترا فأراد أن يكسب الإنجليز الى صفه.فأرسل الى قنصل انجلترا بمصر مذكرة ليبعث بها الى دولته شرح فيها أهدافه من إحتلال الشام ، فوضح أن غايته أن يحمى الدولة من أطماع الروس ورجا أن تكون انجلترا الى جانبه .

وبعد أن شمل سلطانه مصر ، والسودان والحجاز والشام كتب لإنجلترا يرجو تأييدها في أن يعلن استقلاله بهذه البلاد التى يحكمها باسم الدولة .

لكن انجلترا رفضت بحجة أنهم لا يستطيعون مناصرة ثورة على صاحب عرش حليف لهم ـ لكن بالمرستون فضح السبب الحقيقي لرفض الأنجليز فأعلن بصراحة إنهم لا يستطيعون تسليم طريق الأنجليز الى الهند عن طريق الفرات الى محمد على بعد أن أصبح في يده طريقها عن طريق السويس .

وهكذا وقفت انجلترا في وجه تحقيق محمد على لحلمه في إنشاء دولة إسلامية على أن هذا الحلم لم يكن من السهل تحقيقه حتى لو وافق الإنجليز للأسباب الآتية :

أ ـ البلاد التى أراد محمد على أن يجمعها في لواء واحد لم تكن بينها

رابطة غير الدين واللغة ، فيما عدا ذلك كانت تختلف فيما بينها أشد الإختلاف بحيث كان من العسير حكمها زماناً طويلاً .

ب- يستلزم استمرار هذا المشروع وجود شخصية أخرى كشخصية محمد على ، بل شخصيات تتعهد مثل هذا المشروع ولم يكن فى الميدان شخصية أخرى لا من سلالته ولا غيرها يمكن أن تضطلع بهذا الأمر .

جـ- لم يكن معقولاً أن تتركه روسيا نفسها التى ناصبها العداء والتى كانت لها مصالح محققه واضحة فى أملاك الدولة العثمانية ليحقق أطماعه هذه ويكون دولة إسلامية قوية على هذه الرقعة الشاسعة .

حروب محمد على

سنمر بهذه الحروب مروراً سريعا :

أولاً : الحرب الوهابية :

ترتبط هذه الحرب بظهور دعوة الوهابيين فى نجد فى القرن الثامن عشر . وينتسب الوهابيون الى محمد بن عبدالوهاب ، وكان أساس دعوته الرجوع بالإسلام الى المبادئ التى نادى بها الرسول ﷺ ، والى الرجوع الى القرآن الكريم والسنة فى كل الأحكام .

ولجأ ابن عبدالوهاب الى (محمد بن سعود) أمير الدرعية الذى إنضم فى عام ١٧٤١ الى الحركة وتزوج إبنة محمد بن عبدالوهاب وتعهد بنشر الدعوة الوعابية فى بلاد العرب .

وبعد وفاة محمد بن سعود فى عام ١٧٦٥ خلفه إبنه عبدالعزيز الذى فتح الرياض ، وغزا الإحساء واتجه الى العراق فاحتل كربلاء وهزم الجيوش التى بعث بها والى العراق لمحاربة الوهابيين .

وفى عام ١٨٠٣ م دخل الوهابيون مكة ، واستولوا بعد ذلك على المدينة المنورة ، وهدموا عباب المساجد ، والأضرحة وكل ما لا يتفق مع عقيدتهم فى بساطة الإسلام .

وكلفت الدولة العثمانية والى دمشق للتصدى للوهابيين الذين اتجهوا بجيوشهم صوب الشام وفلسطين .

ولما لم تستطع هذه القوات الوقوف فى وجه الوهابيين الذين مدوا سلطانهم على معظم شبه جزيرة العرب والحجاز - لجأ السلطان العثمانى فى عـ م ١٨٠٧ إلى محمد على والى مصر طالباً منه الخروج لقتال الوهابيين

ولعل السلطـن كان يرمى من ذلك الى هدفين :

١ - استردا نفوذه فى بلاد العرب .

٢ - إضعاف قوة محمد على .

أما محمد على فقد تردد فترة فى إجابة طلب السلطان العثمانى لنجدته - لكن استقر رأيه على تلبية هذا المطلب .

ولعل محمد على رأى أن إرسال جيوشه للحجاز سيحقق عدة أهداف:

أ - استرضاء السلطان العثمانى الذى كان لا يزال ينظر لمحمد على

باعتباره خارجاً على سلطته .

ب ـ يعطي محمد على مبرراً لتكوين القوة البحرية والحربية التي يمكن أن يستند عليها لتحقيق أهدافه .

جـ ـ يعطي له المبرر للتخلص من العناصر المناوئة له (وهذا ما حدث في مذبحة القلعة في مارس عام ١٨١١) .

د ـ وعد محمد على ـ إنه في حالة إنقاذه الحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين سيمنحه السلطان حكم مصر وراثيا في ذريته .

شكل ٦

الحروب الوهابية

تولى طوسون بن محمد على قيادة الحملة ـ وقد نزلت قواته فى سبتمبر ١٨١١ فى ينبع فاستولت عليها ـ لكن تعثرت الحملة فطلب طوسون النجدة ، وتابع طوسون بعد ذلك إنتصاراته فاستولى على المدينة المنورة ، ومكة ، وجدة وبذا سقط الحجاز فى يد قوات محمد على .

وفى عام ١٨١٢ سافر محمد على بنفسه الى جده ليدرس موقف قواته بنفسه ، وتمكن محمد على من أن يهزم قوات الوهابيين بقيادة (عبدالله بن سعود) ـ لكنه أضُطر للعودة لمصر حين وصلته أنباء عن إكتشاف مؤمراة تُدبر ضده .

وفى عامَ ١٨١٥ عُقد صلح بين طوسون وبين عبدالله بن سعود وافق فيه الوهابيون على أن تكون السلطة للحكومة المصرية فى مكة والمدينة وباقى الجهات التى خضعت لها ـ واشترط أن تُعرض شروط هذه الهدنة على محمد على لإقرارها ، وعاد طوسون للقاهرة حيث توفى بها بعد ذلك بقليل .

لم يُقر محمد على شروط هذه الهدنة ، وأخذ يستعد لمواصلة الحرب من جديد ـ ووضع القوات الجديدة تحت قيادة إبنه ابراهيم باشا .

غادر إبراهيم (القصير) على رأس قواته فى سبتمبر ١٨١٦ ووصل الى ينبع ، وأخذ يزحف صوب نجد . فاستولى على (عنيزة) وتقدم الى (الدرعيه) وحاصرها ، وسلم عبدالله بن سعود نفسه وأُرسل للقاهرة ثم الى الأسيتانة حيث أمر السلطان العثمانى بإعدامه .

واستمر تقدم قوات إبراهيم باشا فاستولى على الإحساء والعطف وبذا دانت له شبه جزيرة العرب ووصلت قوات محمد على إلى الخليج العربى ، وفى يولية ١٨٢٠ أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بتعيين إبراهيم باشا على ولاية (جدة) مكافأة له على خدماته للدولة .

وبعد أن استقرت الأمور لابراهيم باشا فى شبه جزيرة العرب أخذ يُدير شئون هذه البلاد بحكمة ، فجمع حوله كبار أهل الحجاز واستفاد من خبرتهم وغمرهم بالهدايا والمنح وإهتم بحفر الآبار وتنمية المحاصيل الزراعية .

على أن بسط محمد على نفوذه على شبه جزيرة العرب جعله يتطلع بنظره إلى اليمن ، لما لموانيها كعدن ومخا و الحديدة من أهمية كمراكز تجارية على البحر الأحمر ، هذا بالإضافة إلى اتجاه إنجلترا لتقوية نفوذها فى هذه الجهات لأهميتها فى الطريق الملاحى المؤدى للهند .

وقد شُغل محمد على بحملاته فى السودان وفى المورة عن تحقيق أغراضه فى اليمن ـ لكن فى عام ١٨٣٧ كلف محمد على ابن إخته (إبراهيم يكن باشا) بالإتجاه على رأس حملة لفتح اليمن ، كما عكف الأسطول المصرى فى البحر الأحمر بمعاونة الجيش الزاحف ، وكانت الحالة الداخلية فى اليمن مضطربة لسبب النزاع على السلطة ـ وقد نجح ابراهيم يكن باشا فى الإستيلاء على مدن اليمن الهامة وموانيه فاستولى على الحديدة ومخا ، واتجه الجيش والإسطول المصرى صوب عدن ـ لكن انجلترا التى أزعجها أن يمذ محمد على سلطانه الى الخليج العزبى ، والى مداخل البحر الأحمر ارسلت حملة بقيادة الميجورهنتر (Hinter) نجحت فى يناير ١٨٣٩ فى الإستيلاء على عدن .

وكا ن موقف انجلترا العدائى من محمد على مما أدى فى النهاية الى سحب الجنود المصريين لا من اليمن فحسب بل من شبه الجزيرة العربية كلها ـ كما سنرى بعد .

ثانيا ـ محمد على يمد تنظيماته الى السودان

يرجع تفكير محمد على فى مد إدارته للجنوب الى عدة عوامل منها:

١ ـ الاضطراب فى المناطق المتاخمة لحدود مصر الجنوبية (بلاد النوبة) الناتج من وجود المماليك فى هذه المناطق وإدخالهم الأسلحة النارية فيها ، وسعيهم لتكوين قوات تحت إمرتهم مسلحة بهذه الأسلحة وتحكمهم فى التجارة بين مصر والسودان عبر الطرق البرية .

٢ ـ سياسة البحر الأحمر ـ فقد بدأت الحياة تدب فى هذا الطريق ، وزاد إهتمام والى مصر بهذا الطريق أكثر بعد إخماد الثورة الوهابية وتوليه حكم الحجاز ونجد وغيرها من المناطق الأخرى المطلة على البحر الأحمر نيابة عن الدولة العثمانية .

٣ ـ بصفة سلبية نُقلل من شأن الفكرة النيلية الصرفة وأقصد بها فكرة ضبط النيل أو إستغلاله التى يرددها بعض الكتاب ـ فمحمد على حتى عام ١٨٢٠ لم يكن قد إتجه للمشروعات على النيل التى تؤدى للإهتمام بالنهر وضبطه وتخزين مياهه .

٤ ـ عوامل ثانوية : يرددها الكتاب منها :

أ ـ الحصول على الرقيق اللازمين للجيش ـ ومع أن محمد على جَرّب أن يكون فرقا فى جيشه من السودانيين ـ لكن كان يدرك أن الأتجاه فى ذلك الوقت كان للتخفيف من حدة هذه التجارة ـ تجارة الرقيق الى أن يتيسر القضاء عليها .

ب ـ يذكر البعض من دوافع تفكير محمد على فى مد إدارته للسودان الحصول على (الذهب) ـ لكن كما برهنت الأحداث التالية كلها ـ إن

الهدف من وراء استغلال الموارد الطبيعية للسودان كان هو تحقيق الرفاهية لأهله وهذه الروح كانت دائما رائد الإدارة المصرية .

جـ - تُردد بعض المراجع أن من دوافع هذه الحملات التخلص من الجنود الألبانيين - ومهما يكن هذا العامل لا يمكن أن يكون سببا رئيسياً من وراء هذه الحملات .

د - ذكر بعضهم أن محمد على كان يريد أن يتحكم فى مجرى النهر من منابعه الى مصباته وهذا غير سليم لأن منابع النيل الإستوائية لم تكن قد عُرفت بعد .

ضم سنار وكردفان :

١ - أُرسلت حملة على رأسها إسماعيل بن محمد على، وصلت الى وادى حلفا ثم (دنقله) - وقد فر المماليك بمجرد سماعهم عن تقدم الجيش المصرى ، وواصل الجيش المصرى زحفه مخترقاً صحراء بيوضة فوصل الى بربر فى مارس ١٨٢١ ، وتقدم الجيش الى (شندى) ثم احتل حلفاية وأم درمان - وتقدم فى النيل الأزرق فاحتل واد مدنى ثم احتل (سنار) - واتخذ اسماعيل (وادى مدنى) مركزاً لقيادته .

٢ - أرسل محمد على إبنه ابراهيم ليعاون بما له من خبرة ودراية لكنه اضُطر للعودة .

٣ - حدث تمرد فى شندى بتحريض ملكها السابق الملك نمر واضطر اسماعيل للسفر الى شندى حيث اشتد فى قسوته على الثائرين وترتب على هذا أن دبر الملك نمر مكيدة قتل اسماعيل وعدد كبير من حاشيته

٤ ـ كانت هناك قوة أخرى بقيادة محمد بك الدفتردار صهير محمد على توجهت لكردفان وفتحتها ـ وبعد قتل اسماعيل بن محمد على أصبحت القيادة فى يد محمد بك الدفتردار وقد اشتهر بالقسوة والعنف .

هذا وقد امتدت الادارة المصرية بعد بك الى بعض أقاليم السودان الشرقى ، وأسُست مدينة (كسلا) .

النظام الإدارى للسودان

وضعت السلطة فى السودان فى يد (الحكمدار) ـ وأنشئت مدينة (الخرطوم) فقد كانت قرية صغيره عند التقاء النيلين الأبيض والأزرق وجعلت مقراً للحكمدار ، وكذلك قُسم السودان الى مديريات وعين لكل مدير ، كما قسمت المديريات الى أقسام على كل منها ناظر . (١)

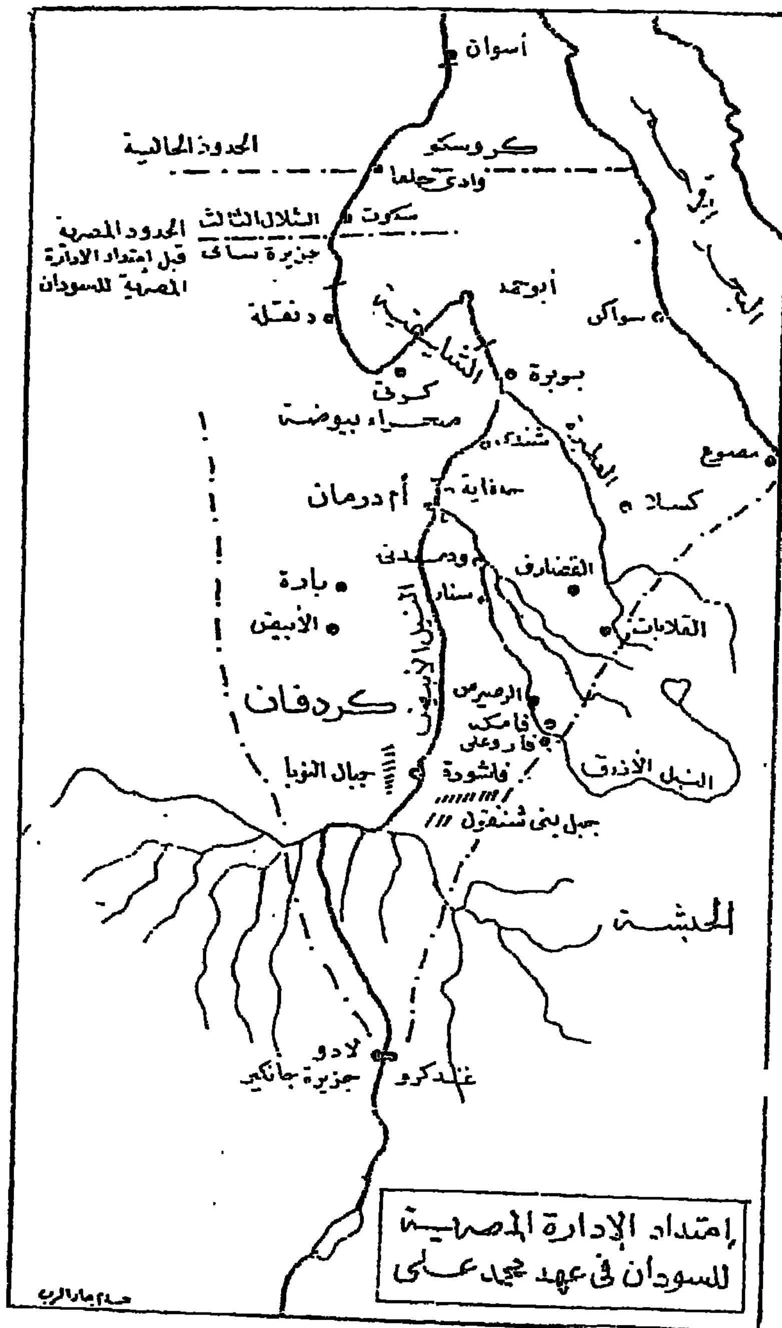
التطور الأقتصادى لسودان :

الزراعة : بُذلت جهود لانعاش الزراعة ، فأقُيمت السواقى لتوفير المياه وحفرت قنوات للرى ، وقد أدُخلت فى السودان كثير من الزراعات الجديدة بالإضافة الى الجهود لتحسين الأنواع المعروفة ، فقد بُذلت جهود لتعميم زراعة القطن فى المناطق التى تتوفر فيها مياه الرى بالسودان ، وزرعت أشجار الفاكهة ، كما أدُخلت زراعة قصب السكر والكتان .

وبذلت الادارة المصرية جهوداً لتحسين الإنتاج الحيوانى ليمكن التوسع فى تصدير الماشية الحية .

---

(١) لمن يريد المزيد من المعلومات يرجع الى : شوقى الجمل : سودان وادى وعلاقاته بمصر ـ



شكل ٧

محمد على يمد تنظيماته للسودان

التعدين والصناعة : أمكن استغلال الحديد المستخرج من مناجم كردفان كما بُذلت جهود للبحث عن المعادن الأخرى كالرصاص ، والنحاس .

التجارة والمواصلات : بذلت جهود لحماية القوافل التجارية ، فعهد بأمرها لشيوخ القبائل التى تمر هذه القوافل بأرضها ، كما أهتمت الإدارة بالملاحة النهرية لتيسير مرور المراكب عبر صخور الجنادل .

هذا وأشير الى أن محمد على زار السودان فى عام ١٨٣٨ ليقف بنفسه على أحواله - وفى أثناء زيارته للسودان اتخذ عدة قرارات لإصلاح الأحوال هناك .

ومن الأعمال الهامة التى تحققت فى هذه الفترة - رحلات البكباشى (سليم قبطان) ، الضابط المصرى الذى قاد حملات الكشف عن منابع النيل العليا فى الفترة (١٨٣٩ - ١٨٤٢)، ولو أن هذه الحملات لم تصل لمنابع النيل الإستوائية نفسها لكنها أثبتت خطأ ماردده (جيمس بروس) من أن المنابع الحبشية هى المنابع الوحيدة للنهر .

ثالثا - حرب المورة:

اندلعت الثورة فى عام ١٨٢١ فى شبه جزيرة المورة من بلاد اليونان للتخلص من سيطرة العثمانيين ، كما إنتشرت الثورة الى جزيرة كريت وغيرها من جزر الأرخبيل ، ولما فشلت القوات العثمانية فى إخضاع الثوار قرر الباب العالى أن يلجأ الى محمد على - فأصدر فرمانا بتعيين إبراهيم باشا والياً على كريت والمورة .

ونجحت الثوات المصرية فى إخماد الثورة فى كريت ، ونجح إبراهيم

باشا فى عام ١٨٢٥ فى إنزال قواته فى المورة وأخذ يتقدم للقضاء على قوة الثوار .

لكن روسيا وجدت فى ثورة اليونانيين فرصة للتدخل فى شئون الدولة العثمانية ـ لكن انجلترا وفرنسا لم تكن لتسمح لروسيا بالتدخل بمفردها فى شئون الدولة العثمانية ، كما أن هذه الدول كانت تعطف على مطالب اليونانيين .

وفى يولية ١٨٢٧ توصلت روسيا وفرنسا الى معاهدة أبرمت فى لندن تقرر بموجبها أن تعرض هذه الدول على السلطان العثمانى أن يمنح اليونان إستقلالاً ذاتيًا مع الإحتفاظ للباب العالي بالسيادة الشرعية عليها ، على أن تستمر اليونان فى دفع الجزية السنوية كالمعتاد ،

وأرسلت الدول أساطيلها الى البحر المتوسط لمنع وصول إمدادات عثمانية أو مصرية للقوات التى تحارب الثوار اليونانيين خاصة بعد أن أعلن السلطان العثمانى رفضه لمعاهدة لندن .

وفى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ حدث إحتكاك بين أساطيل الدول الثلاث وبين الأسطول العثمانى والمصرى فى خليج نفارين وإنتهى الأمر وبتحطيم الأسطول العثمانى والمصرى وترتب على هذه المعركة :

١ ـ فقد محمد على أسطوله الذى كان قد بذل الكثير من الجهد والمال فى سبيل إعداده .

٢ ـ تعذر عليه إمداد قواته فى بلاد اليونان بحاجتها من المؤن والذخيرة ولذا فقد قبل عرض قائد الأسطول الإنجليزى بانسحاب القوات المصرية من المورة ـ وقد تم ذلك فى ديسمبر ١٨٢٨ .

٣ - شجعت هذه المعركة اليونانيين على المطالبة بالأستقلال الكامل وأضطر السلطان العثمانى للرضوخ للأمر الواقع .

٤ - نقم السلطان العثمانى على محمد على لإنسحابه من بلاد اليونان دون إذن الدولة ، وأدى هذا لنشوب حروب الشام بين القوات العثمانية والقوات المصرية .

رابعا - حروب الشام :

بدأت حروب الشام فى صورة خلاف بين محمد على وعبدالله الجزار والى عكا - لكن لم تلبث أن تكشفت حقيقتها فهى كانت فى الحقيقة حرباً بين محمد على والسلطان .

وترجع أسباب هذه الحروب لما يلى :

١ - حروب المورة وما أسفرت عنه من نتائج منها:

أ - تحطيم الأسطول العثمانى المصرى فى نفارين ، وإضطرار محمد على للإنسحاب من المورة من غير موافقة السلطان .

ب - أظهر هذا الموقف ، ومفاوضة انجلترا لمصر دون اللجوء للسلطان أن مصر أصبح لها مركز ممتاز ، وأنها أصبحت قوة لا يمكن إغفالها .

جـ - غضب السلطان لإنسحاب محمد على من المورة دون أنتظار رأى الدولة وترتب على ذلك أن نقم السلطان على محمد على الذى تخلف عن مساعدته وقت محنته .

د - رغم أن السلطان أصدر فى سبتمبر ١٨٣٠ فرماناً عهد فيه لمحمد على بحكم جزيرة كريت - لكن محمد على كان يطمع أيضاً فى حكومة الشام - خاصة أنه ضحى بإسطوله فى سبيل الدولة .

٢ ـ تشجيع فرنسا لمحمد على ـ فرغم إشتراك أسطولها مع الدول فى موقعة نفارين البحرية ـ لكنها بعد ذلك أظهرت العطف على مشروعاته وأعانته بارسال الفنيين والخبراء لمساعدته فى مشروعاته الجديدة .

٣ ـ إظهار الدولة العثمانية عداءها السافر لمحمد على فعينت (خسرو باشا) عدو محمد على فى وظيفة الصدر الأعظم ، هذا بالإضافة الى ما شاع عن تشجيع الدولة لعبد الله الجزار والى عكا لعدم إجابة طلب محمد على فى إرسال الأخشاب اللازمة له لتجديد أسطوله ، هذا بالأضافة إلى الترحيب بالمصريين الفارين من الخدمة العسكرية للجوء للشام .

٤ ـ لعل السبب الحقيقى هو شعور محمد على بقوته ، بينما أثبت السلطان العثمانى أنه غير قادر على حماية الدولة والمحافظة على حدودها والوقوف فى وجه الأطماع الداخلية والخارجية ، واللجوء لمحمد على لحل مشكلات الدولة ومواجهة أعدائها ـ وبعد دخول محمد على مثلا الحجاز للقضاء على الحركة الوهابية أصبح أمير مكة والمدينة ـ تردد سؤال جال بعقول الناس ، بل تردد فى كثير من المكاتبات الرسمية الأجنبية هو من أحق بالخلافة ـ السلطان العاجز القابع فى الأسيتانة أم ذلك القوى الناهض الذى يملك القاهرة ومكة والمدينة ؟ .

هذا وكان الصراع الدولى بين روسيا من جهة ، وإنجلترا من جهة أخرى ، وبين انجلترا وفرنسا ـ مما أضفى على هذه الأفكار قوة ـ فأخذت الصحف الفرنسية تُغذى فى نفسه الإعتقاد بأن إعلانه الأستقلال بنفسه سيلقى التأييد من فرنسا .

وكان موقف السلطان (محمود الثانى) من محمد على مما دفعه أكثر للتفكير فى الإستقلال - فقد طلب السلطان عونه فى حرب الموره - لكن لم يمنحه ما وعده به فى مقابل ذلك بحجة أنه أنسحب دون إذن .

وإستعان السلطان بالروس فى محاربته لمحمد على وبعد إنتصارات محمد على المتعددة أصبح الناس - حتى فى الاسيتانة ذاتها - يستنكرون أن يستجدى هذا السلطان الضعيف نصرة النصارى على جنود المسلمين وترددت بين المعاصرين فكرة لماذا لا يتولى هذا القائد المسلم زمام الأمور فيحمى الدولة من الأخطار المحيطة بها .

٥ - يبدو أن محمد على نفسه كان يعلم أن العقبة الحقيقية فى طريقه هى إنجلترا فأراد أن يكسب الأنجليز الى صفه فارسل الى قنصل انجلترا بمصر مذكرة ليبعث بها الى دولته شرح فيها أهدافه من حروبه فى الشام ، فوضح أن غايته أن يحمى الدولة من أطماع (الروس)، ورجاه أن تكون انجلترا الى جانبه - وسنعود لمناقشة موقف انجلترا من محمد على .

حرب الشام الأولى :

فى أكتوبر عام ١٨٣١ سير محمد على حملته الى (عكا) بقيادة إبنه ابراهيم باشا .

إحتلت الحملة غزة ، والرملة ، ويافا ، وحيفا ، والقدس ، وحاصر ابراهيم باشا (عكا) براً وبحراً واستولى عليها فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وتقدم إبراهيم باشا بعد ذلك الى (دمشق) فاحتلها ، ثم إحتل (حمص)

وسقطت حلب فى يد جيش ابراهيم باشا ،وانتصر على الجيش العثمانى فى (بيلان) وأصبحت سوريا بأكملها فى يد ابراهيم باشا .

وفى ٢١ ديسمبر عام ١٨٣٢ دخل جيش ابراهيم باشا (قونيه) واحتل (كوتاهية) فى فبراير ١٩٣٣ وأصبح الطريق أمامه مفتوحاً الى الأسيتانة.

وتدخلت فرنسا وانجلترا وضغطت علي الباب العالى لكى يبرم الصلح مع محمد على فعقدت بين الطرفين (اتفاقية كوتاهية) .

وبمقتضى صلح كوتاهية (ابريل ١٨٣٣) تقرر :

١ - تثبيت محمد على فى حكومة مصر والشام ، وكريت - مع بقاء تبعيته للدولة العثمانية .

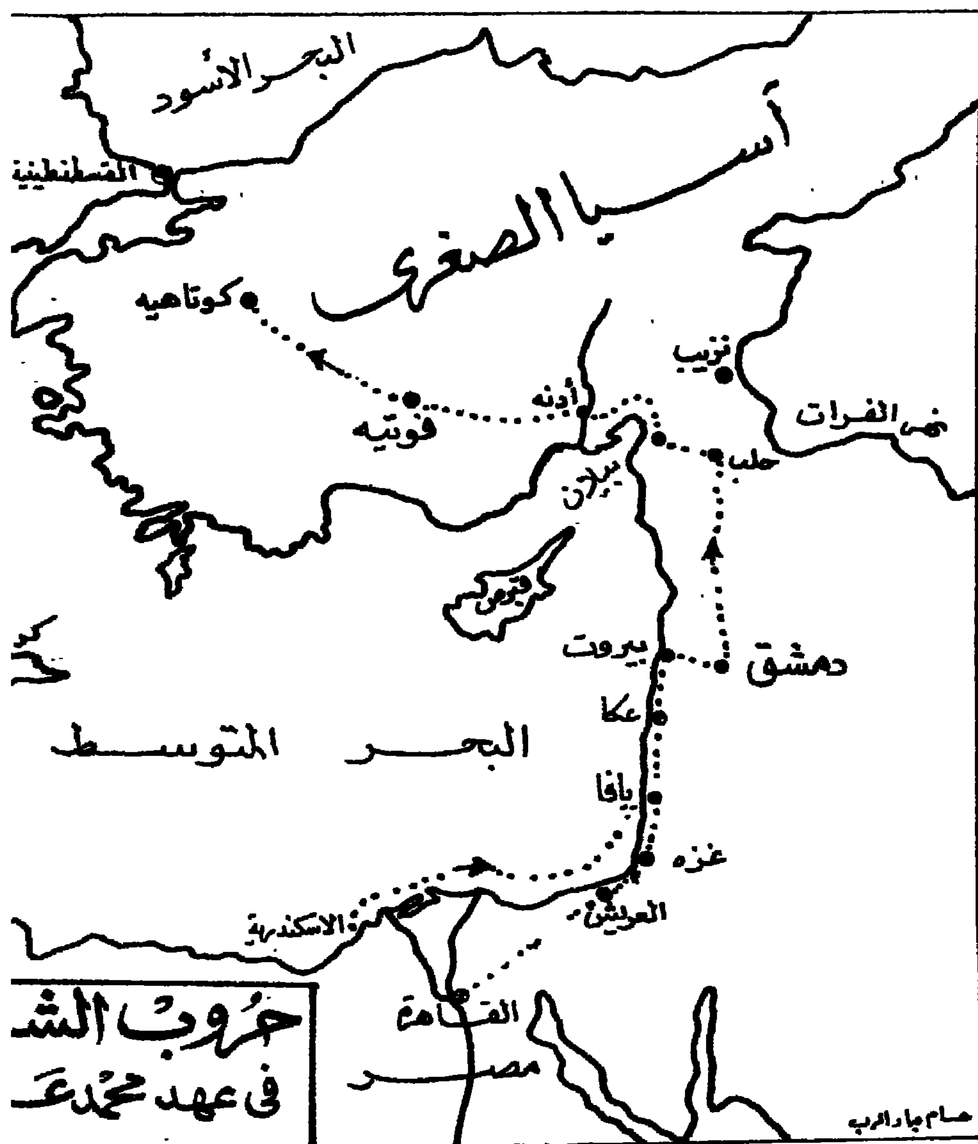
٢ - تثبيت إبراهيم باشا فى باشوية جدة ، وولاية الحبش العثمانية (سواكن - ومصوع)

على أن صلح كوتاهية - لم يكن فى الحقيقة أكثر من هدنة بين الطرفين للأسباب التالية

أ - قبله السلطان العثمانى مضطراً تحت ضغط انجلترا وفرنسا .

ب - لم يحقق محمد على بموجب هذا الصلح أحلامه فى الإستقلال عن الدولة العثمانية .

جـ - إلتجأ السلطان العثمانى فى محنته الى روسيا فوطد علاقته بها، وأنتهى الأمر الى توقيع معاهدة تحالف - (معاهدة هنكار اسكلسى) فى يوليه ١٨٣٣ وهى محالفة دفاعية هجومية بينهما لمدة ٨ سنوات، وهكذا اتجهت روسيا لبسط حمايتها على الدولة العثمانية بدلاً من



شكل (٨)

حروب الشام في عهد محمد على

الإتجاه لتقسيم ممتلكات الدولة، وقد أزعج هذا الإتجاه كلاً من بريطانيا وفرنسا .

إدارة إبراهيم باشا فى الشام :

إهتم إبراهيم باشا بتنظيم شئون الإدارة فى الأقاليم التى عُهد له بها فى الشام - فنشر السلام ، ووطد الأمن ، وأهتم بتنظيم طرق المواصلات، ووضع حداً لما كان يشكو منه الأهالى من فداحة الضرائب ، وساوى بين الرعايا من مسلمين ومسيحيين ، واعتنى بالزراعة ، وألغى نظام الإقطاع السابق الذى كان يترتب عليه وضع أيدى الإقطاعيين على مساحات واسعة من الأرض .

واتبع فى الشام نفس نظام (الإحتكار) الذى اتبعه فى مصر وطبق ذلك على عديد من المحاصيل وفى مقدمتها الحرير ، كما فرض ضرائب على عدد من الأنشطة الجديدة ليوفر المال اللازم لمشروعاته ، وفرض التجنيد الإجبارى على الأهالى جميعاً بعد أن كانت بعض الطوائف معفاة منه .

وقد أثارت بعض التنظيمات التى أدخلها ابراهيم باشا - ثائرة بعض الطوائف التى كانت تتمتع بإمتيازات خاصة ، وبلاد الشام - كما نعلم - قدُر لها أن تكون متحفاً لكل غريب من الأديان والمذاهب ، فهذه البلاد التى لم يكن يزيد عدد سكانها عن بضعة ملايين نسمة - تضم ألوان الأديان بمذاهبها المختلفة وتنفرد بطائفة من المذاهب الخاصة لا تُحصى، وكان هذا الخليط الدينى فى الماضى حائلاً بين توحيد البلاد وإجتماعها تحت لواء واحد مما جعل حكم الشام من أعقد الأمور وأصعبها .

هذا بالإضافة الى إختلاف البيئات فى الشام بين السهولة والحزونة وبين الصحراء والمزارع ، وبين الساحل والداخل ، اضف الى ذلك

إختلاف الهجرات الى هذه الأرض منذ أقدم العصور ، وإتجاه الفاتحين إليها من كل حدب وصوب ، فطالما نشبت حروب بين هذه الأقسام المتعددة ، ولحقت بالأهالى من جراء ذلك إضرار عظيمة حيث كانت تُنهب الدكاكين وتقفل الأسواق وتتعطل الأشغال ويتعذر على الناس الخروج من دورهم .

وقد حاول إبراهيم باشا أن يقضى على كل ذلك ـ لكن الأتراك وجدوا فى ذلك فرصتهم لإثارة الفتن وإشعال الثورة فى الشام ضد الإدارة المصرية لتتهيأ الظروف للدولة للإنتقاص من سلطة محمد على ـ وادى هذا لإندلاع الحرب فى الشام مرة أخرى بين جيوش محمد على وجيوش السلطان العثمانى .

حرب الشام الثانية :

ترجع هذه الحرب الى عدة أسباب منها :

١ ـ عدم إقتناع كل طرف من الأطراف المتنازعة ـ محمد على من جهة والسلطان العثمانى من جهة أخرى ـ بالحلول التى فرضتها الظروف على كل منهما ـ محمد على كان لا يزال يفكر فى الإستقلال والتخلص من سيطرة الباب العالى ، والباب العالى كان يتحين الفرص لإثارة المتاعب أمام محمد على وإستعادة سلطان الدولة على الجهات التى وضعت بتدخل الدول تحت إدارته ـ ولذا بذل السلطان محمود الثانى جهداً كبيراً لإعادة تنظيم جيشه ، واستخدم الضباط الألمان فى ذلك .

٢ ـ كانت الدول الأوربية تنظر للموقف من جهة مصالحها ـ فروسيا تجد فى إثارة الأضطرابات من جديد بين السلطان وتابعه ـ فرصتها فى التدخل فى شئون الدولة العثمانية ـ وإنجلترا وفرنسا لا تسمح ان بإنفراد روسيا بهذا العمل وتجد أن فى التدخل الروسى ما يُهدد

مصالحهما ، بينما لاترتاح انجلترا لإزدياد نفوذ محمد على فى بلاد العرب وخاصة فى المناطق المطلة على الخليج العربى وأطراف شبه الجزيرة والشام ومصر والسودان وسيطرته بذلك على طرق المواصلات الهامة المؤدية للهند ، كما أنها ترى فى محمد على صديقاً لفرنسا عدوتها فى ذلك الوقت .

اندلاع الحرب :

انتهزت الدولة العثمانية فرصة الثوارت التى قامت فى بلاد الشام وشجعتها ، وفى عام ١٨٣٩ أرسل السلطان جيوشه على حدود الشام فاجتازت الحدود وبدأت تتوغل فى الداخل .

وفى ٢٤ يونيه ١٨٣٩ ـ التقت جيوش ابراهيم باشا مع الجيوش العثمانية عند (نصيبين) غرب نهر الفرات وهزمتها .

وساء مركز السلطان أكثر عندما أبحر قائد الأسطول العثمانى باسطوله الى الأسكندرية وسلمه الى محمد على .

وعرض السلطان عبدالمجيد الذى خلف أباه السلطان محمود الثانى ـ على محمد على أن يمنحه باشوية مصر وراثية لكن محمد على طالب بالوراثة فى كافة الجهات التى مُنحت له بمقتضى اتفاقية كوتاهية ـ على أن الذى حسم الأمر وغيرّ نتيجة هذه الحروب هو تدخل الدول لوضع تسوية كاملة للمسألة المصرية .

معاهدة لندن ١٨٤٠ وتسوية المسألة المصرية

كان موقف الدول الأوربية المختلفة وتدخلها فى الخلافات التى نشبت بين محمد على والسلطان العثمانى هو الذى قرر الأسس التى وُضعت لتسوية ما عُرف بالمسألة المصرية" ، وتحديد العلاقة التى استمرت بعد ذلك بين مصر والدولة العثمانية مع بعض التعديلات التى طرأت فيما بعد ـ فى عهد الخديو اسماعيل ـ بإتفاق الطرفين .

ففرنسا : كانت ـ في الظاهر على الأقل ـ صديقه لمحمد على ، وتؤيد جهوده في الحصول على حكم مصر والشام ووراثية في أسرته ، على شرط أن يظل في نطاق الإمبراطورية العثمانية ، حتى لا تؤدى محاولاته الى إضعاف الدولة وإلقائها في أحضان روسيا ـ لكن اتصفت السياسة الفرنسية تجاه محمد على بالتردد وعدم الجزم حتى أن بعض الكتاب وصفوا حبها (بالحب الأفلاطوني) ، وقد ذكر البعض إن محمد على شقى بهذا الحب أكثر مما سعد به ، فقد جر عليه غضب إنجلترا ومعاداتها، بينما تخلت عنه فرنسا في أكثر من موقف حين جد الجد .

أما نجلترا : فقد كانت ترى في محمد على مُنفذاً لسياسة فرنسية فكثيرون من معاونيه كانوا فرنسيين بالإضافة الى ما تبديه فرنسا من عطف على مشاريعه ، كما أن أنجلترا كانت تخشى من سيطرة شخصية قوية مثله على الطرق الهامة التي تؤدى للهند بعد أن استقرت لها الأمور بها ، وكانت انجلترا في نفس الوقت تعمل للمحافظة على كيان الدولة العثمانية خوفاً من إزدياد نفوذ روسيا في البلقان وغيرها من المناطق التي تخضع لنفوذ العثمانيين .

النمسا : كان مترنخ زعيم النمسا يرى أيضاً المحافظة على كيان الدولة العثمانية حتى لا يفتح الباب لتدخل الروس في البلقان وغيرها من الأقاليم التي تهم النمسا في زملاك الدولة العثمانية .

روسيا : كانت تسعى سعياً حيثياً للإستفادة من أوضاع الدولة العثمانية للتدخل في شئون الدولة وتقوية نفوذها في مناطق البسفور والدردنيل وفي البلقان وغيرها من المناطق التي تخدم مصالح روسيا وتشبع أطماعها ، وكانت معاهدة (هنكار إسكلسي) التي عقدتها مع الدولة العثمانية في الظروف السالفة الذكر تُكأة لتحقيق أهداف روسيا هذه .

في ضوء هذه الأعتبارات وضعت الدول التسويات التي رأتها للمسألة المصرية متمثلة في :

١ ـ معاهدة لندن (١٥ مايو ١٨٤٠) :

أبرمتها الدول الأربع الكبرى (بريطانيا ، النمسا ، وروسيا ، بروسيا) مع الباب العالي ولم تشترك فيها فرنساوتقضى بأن .[١]

ـ تتعاون الدول الأربع على إعادة السلم في الشرق .

ـ يعد الباب العالي بأن يعرض على محمد على :

أ ـ إحتفاظ محمد على بباشوية مصر فقط وراثية في أسرته بشرط أن تظل مصر ولاية عثمانية تدفع الجزية وغيرها من مظاهر التبعية مثلها مثل باقي الولايات العثمانية .

ب ـ يحتفظ محمد على بولاية (عكا) في الشام مدى حياته .

جـ ـ يُعطى محمد على فرصة عشرة أيام ، فإذا لم يرد خلالها بقبول هذه الشروط تنتزع منه (عكا) ويعطى باشوية مصر فقط ، فإذا أصر على موقفه خلال عشرة أيام أخرى يُصبح من حق السلطان إتخاذ ما يراه من إجراءات ـ بمساندة الدول الأوربية .

د ـ تتعهد الدول الموقعة على هذه المعاهدة على منع اتصال مصر والشام بحرياً ، والوقوف أمام الجيش المصرى إذا هدد الإسيتانة عاصمة الدولة العثمانية وذلك حتى يضطر محمد على لقبول شروط الصلح .

وقد رفض محمد على هذه الشروط المقدمة له وذلك بتشجيع من فرنسا التي اعتبرت تجاهل الدول الإربعة لها إهانة بالغة وأخذت تُعد العدة لمواجهة هذه الظروف .

وترتب على رفض محمد على لشروط المعاهدة ـ أن أرسلت انجلترا

---

(١) نصوص المعاهدة موجودة في :

فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ـ المجلد الخامس

أسطولها للمياه المصرية ، ولموانى الشام لقطع الإتصال بين مصر والشام كما عمدت انجلترا لإذكاء نار الثورة فى الشام .

واشترك الأسطول البريطانى مع الأسطول العثمانى فى ضرب (بيروت) وغيرها من موانى الشام التى فى أيدى القوات المصرية .

وأضطر ابراهيم باشا لسحب قواته تدريجياً من مواقعها فى بلاد الشام ، وأصدر السلطان العثمانى قراراً بعزل محمد على من باشوية مصر .

٢ـ فرمانا عام ١٨٤١ (١٣ فبراير ١٨٤١) (١):

رأت فرنسا أن تخرج من العزلة التى فرضتها عليها الدول فعرضت على بريطانيا اشتراكها فى تسوية الأوضاع بين السلطان العثمانى ومحمد على .

واضطر محمد على إزاء الهزائم التى حلت بجيشه فى الشام الى أن يعقد الصلح مع الباب العالى على أساس الشروط التى وضعتها الدول الأربع المجتمعه فى لندن ، وأبدى استعداده لإعادة الأسطول العثمانى لتركيا فى نظير أن يصدر الباب العالى فرمانا بأن تكون مصر وراثية فى أسرة محمد على .

ودارت مفاوضات فى لندن اشتركت فيها فرنسا بالإضافة الى الدول الأربع السابقة ـ وأصدر الباب العالى على أثرها فرمانين :

الأول ـ نص على أن يتولى محمد على وأسرته من بعده الحكم فى ولاية مصر .

وقد عدل هذا الفرمان بعد ذلك فجعلت الولاية من حق أكبر أفراد

---

(١) نصوص الفرمانين مذكورة فى :

فيليب جلاد : المرجع السابق ذكره

وكذلك فى : سرهنك حقائق : الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص . ص ٢٤٩ – ٢٥١

أسرة محمد على الذكور ، كما حدُدت الجزية السنوية بـ ٠٠٠ر٨٠ كيس ، وحدد الجيش المصرى بـ ٠٠٠ر١٨ جندى وأعطى الوالى حق منح الرتب العسكرية لدرجة القائم مقام - واشترط لبناء السفن الحربية موافقة الباب العالى .

الثانى- نُص على أن يتولى محمد على أمر مقاطعات النوبة ، ودارفور وكردفان ، وسنار وتوابعها .

وترتب على هذه التسوية :

١ - لم ينجح محمد على فى الحصول على الإستقلال المنشود عن الدولة العثمانية ، فبقيت مصر ولاية عثمانية رغم حصر الوراثة فى أسرة محمد على .

٢ - بموجب هذا أصبح على ولاة مصر أن يلتزموا بالمعاهدات التى يعقدها الباب العالى مع الدول الأخرى ، ومنها على سبيل المثال الإمتيازات التى منحتها السلطنة للأجانب فى ولاياتها .

٣ - ترتب على تدخل الدول الأوربية واشتراكها فى وضع وفرض هذه التسوية أن صُبغت هذه التسوية بالصبغة الدولية فأصبح تعديلها يتطلب أيضاً إتفاقاً دولياً جديداً .

هذا ونشير الى أن هذه التسوية بالأوضاع التى انتهت إليها المسألة المصرية - كانت مقيدة لنشاط محمد على وأطماعه وطموحه - وقد ترتب عليها أن أخذ النشاط الذى اتسم به عهده فى مختلف المجالات بهدف تحقيق أطماعه الواسعة - ينحصر .

ولذا تميزت الفترة الأخيرة من حكمه بالسكون والهدوء وأُغلقت كثير من المصانع والمدارس بعد أن حدُدت حركة محمد على داخل حدود ولاية مصر ، والأقاليم الأخرى التى نص عليها الفرمانان الساب

بعض المراجع

لمزيد من الدراسة

١ ـ داود بركات : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٣٢)

٢ ـ سليمان (بك) عز الدين : ابراهيم باشا فى سوريا (بيروت ١٩٢٩).

٣ ـ عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (١٣٢٢هـ) ٤ أجزاء

٤ ـ عبدالرحمن الرافعى : عصر محمد على (القاهرة ١٩٣٠)

٥ ـ عبدالعزيز الشناوى : عمر مكرم ـ بطل المقاومة الشعبين ـ سلسلة أعلام العرب رقم ٦٧ (القاهرة ١٩٦٧).

٦ ـ محمد رفعت : محمد على والخلافة (مجله المقتطف مجلد ٦٣)

٧ ـ محمد فريد (بك) : البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المجيدة (القاهرة ١٣٠٨هـ) .

٨ ـ محمد كردعلى : الحكومة المصرية فى الشام (القاهرة ١٣٤٣هـ) .

٩ ـ محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، ٣ أجزاء (١٩٥٥، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧)

١٠ ـ محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على .

١١ ـ محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ ـ ١٨١١) القاهرة ١٩٥٨ـ ٣ أجزاء .

١٢ـ محمد محمود السروجى : الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر (اسكندرية ١٩٦٧) .

المراجع الأجنبية

1 - Cameron , D . A : Egypt in the Nineteenth Century (London 1898) .

2 _ Dodwell,H : The Founder of Modern Egypt; A study of Mohammad Ali (Cambridge 1967)

3 _ Ghourbal , Shafik : The Beginnings of The Egyptian Question and The Rise of Mehemet Ali (London 1928)

4 _ Holt,P.M (ed) : Political and Social change in Modern Egypt (From the Ottoman Conquest to the United Arab Repulic) (London 1968)

5 - Rivin . H.A.B : The Agricultural Policy of Mohammad Ali in Egypt (Cambridge 1961).

6 - Shaw . S.J : Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution (Cambridge 1964).

الفصل الرابع

مصر فى عصر عباس باشا الأول
وعصر سعيد باشا

محتويات الفصل :

أولاً : عصر عباس باشا الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤)

١ - ولاية عباس باشا الأول الحكم .

٢ - سياسته الداخلية .

٣ - اشتراك مصر فى حرب القرم .

٤ - مقتل عباس.

ثانيا : عصر سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣)

١ - ولاية سعيد الأول الحكم .

٢ - سياسته الداخلية :

أ - الاصلاحات الزراعية .

ب - الاعمال العمرانية .

جـ - التعليم .

د - الجيش والبحرية فى عصره .

٣ - سياسته الخارجية :

أ - حرب القرم .

ب - حرب المكسيك .

جـ - السودان فى عهده .

٤ - امتياز قناة السويس والتدخل الأجنبى فى شئون مصر.

٥ - القروض الأجنبية .

٦ - وفاة سعيد باشا .

أولاً - عصر عباس باشا الأول
(١٨٤٨ - ١٨٥٤)

ولاية عباس باشا الأول الحكم :

لما اعتلت صحة محمد على ولم يعد فى إستطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم - تولى ابراهيم باشا الحكم بدل أبيه فى إبريل ١٨٤٧ وأرسل إليه الباب العالى فرماناً بذلك ، ولكن المنية عاجلت ابراهيم باشا فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ - فلم تزد مدة حكمة عن سبعة أشهر وبضعة أيام ، على أننا نشير إلى أن عظمة ابراهيم باشا ظهرت فى الحقيقة فى ميادين القتال وليست فى مدة ولايته الحكم .

وبعد وفاة إبراهيم ولى الحكم عباس الأول ، وكان محمد على مازال حيا فقد توفى فى ١٢ أغسطس ١٨٤٩ .

وعباس هو ابن طوسون بن محمد على ، وكان عباس قد تقلد قبل ولايته الحكم عدة مناصب إدارية ، كما اشترك مع إبراهيم باشا فى حروبه فى الشام .

وقد بقى عباس فى الحكم خمس سنوات ونصفاً (من ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ الى ١٤ يولية ١٨٥٤ م)

ويعتبر كثيرون من المؤرخين عهد عباس عهد الرجعية والنكسة ، ففيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت فى عهد محمد على .

وقد اتصف عباس بالقسوة ، وسوء الظن بالناس ولذا تخير لقصوره الأماكن النائية البعيدة عن العمران ومنها قصره بالعباسية التى سميت بإسمه ، وقصره فى بنها ، ولم تكن علاقته طيبة بأفراد أسرته فرحل بعضهم إلى الاستانة ، ونقم على عمه سعيد باشا الذى كان يحكم سنه ولى العهد فاعتكف سعيد بالاسكندرية بعيداً عن العاصمة .

سياسته الداخلية :

- استغنى عباس عن كثيرين من الخبراء الذين كان محمد على يعتمد عليهم ، ولعل هذا سبب نقمة الفرنسيين عليه ، على أن علاقته كانت على العكس من ذلك - قوية بالقنصل الإنجليزى مرى (Merry) .

- ومن الأعمال القليلة التى تمت فى عهد عباس - إصلاح الطريق البرى بين القاهرة والسويس ، ولعل ذلك تم بإيعاز من القنصل البريطانى لتسهيل المواصلات البرية الى الهند عن طريق مصر .

- واستكمالاً لهذا الأمر شرع ... فى عام ١٨٥٢ فى مد السكة الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة ، وعاونه فى ذلك المهندس روبرت ستيفنسن (RobertStephenson) ، وقد وصل الخط الحديدى فى عهد عباس من الإسكندرية الى كفر الزيات وسيكتمل الى القاهرة فى عهد سعيد .

- وقد أقفلت معظم المدارس الباقية من عهد محمد على - فى عهد عباس وانتقى عباس من بين تلاميذ المدارس التى ألغاها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها سنة ١٨٤٩ م ودعاها (المفروزة).

وقد أغلقت معظم المصانع التى انشأها محمد على أبوابها - ولذا ردد بعض الكتاب أن عباس كان يرى أن الشعب الجاهل أساس قياداً من الشعب المتعلم ولذا أغلق معظم المدارس .

وقد استدعى عباس معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى فرنسا منذ عهد محمد على .

- هذا وقد أرسل عباس نخبة من رجال الفكر والعلم المصريين - على رأسهم رفاعة الطهطاوى ومحمد بيومى كبير أساتذة الهندسة

والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة - للخرطوم لفتح مدرسة بها .

وقد ردد كثيرون من الكتاب - كما تصور رفاعة الطهطاوى وزملاؤه - إن الهدف من إرسالهم للسودان هو ليتخلص عباس باشا منهم وأدى هذا لإهمالهم فى القيام بما كُلفوا به ، وإن كان وجودهم بالخرطوم قد أدى لتنشيط الحركة الفكرية والعلمية بها .

وعلى كل لا يمكن أن نقبل هذا التفسير للهدف من إرسالهم دون مناقشة - ولاشك فى أن عباس كان فى إمكانه التخلص منهم من غير أن يختلق فكرة فتح المدرسة .

- ولم يلق الجيش والبحرية من العناية ما لقيه فى عهد جده ، ولذا تسرب الخلل وسوء النظام الى الجيش ، ورغم أن سليمان باشا ، الفرنساوى ظل القائد العام للجيش المصرى - لكن لم يُعط ما كان يتمتع به من حرية فى العمل للنهوض بالجيش .

وقد جرد عباس الأهالى من السلاح وحظر عليهم حملة فى الوقت الذى أتخذ لنفسه حرساً خاصاً من الأرناؤود فعاث هؤلاء فى البلاد فساداً كما كان يحدث قبل أن يقضى محمد على على شرانم الفرق العسكرية المتعددة القديمة .

وقد أهمل عباس شأن البحرية أيضاً ،وعطل أعمال الترسانة البحرية وأنعكست كراهيته لعمه سعيد - الذى كان قائداً عاماً للأسطول فى عهد محمد على - على الخصوص على إهماله للبحرية ورجالها

سياسته الخارجية :

يؤخذ على عباس عدم تفكيره فى زيارة السودان كما فعل جده من قبل، وكما سيعمل عمه سعيد باشا من بعد، وذلك لكى يرى بنفسه أحوال هذا الجزء الهام من وادى النيل الذى مد محمد على نفوذه إليه .

وفى عهد عباس طلب السلطان عبدالمجيد أن يعاونه بقوة برية وأخرى بحرية لمواجهة الحرب التى نشبت بين تركيا وروسيا - فأرسل عباس قوة برية بلغت حوالى ٢٠و٠٠٠ ، مقاتل بالإضافة الى بعض قطع من الأسطول البحرى - وقد أستمرت هذه القوات الى جانب جيوش الدولة العثمانية الى عهد سعيد باشا .

ويذكر لعباس إنه لم يمكن للأجانب فى البلاد ، ولم يفتح باب الاستدانة منهم فلم يلجأ إلى القروض ولم يمنح الأجانب أية إمتيازات

مقتل عباس :

مات عباس مقتولا فى قصره فى بنها فى ليلة ١٤ يولية ١٨٥٤ إثر مؤامرة دُبرت لقتله وتختلف الروايات فى تحديد المحرضين على قتله .

ثانيا ـ عصر سعيد باشا
(١٨٥٤ ـ ١٨٦٣)

ولاية سعيد باشا الحكم :

سعيد هو ابن محمد على ، ولد سنة ١٨٢٢ م ، وانتظم من البداية فى سلك البحرية فدخل فى خدمة الأسطول المصرى فى عهد محمد على حتى أصبح فى أواخر حكم محمد على القائد العام للأسطول .

وكانت نقطة الضعف فى أخلاق سعيد إسرافه ، وحسن ظنه بالأوربيين وتردده ، وانعكس هذا على سياسته الداخلية والخارجية ، فقد زُج بالبلاد فى طريق الإستدانة من البيوت المالية الأوربية ، كما كان لقناصل الدول الأجنبية نفوذ كبير أضر بمصالح البلاد .

سياسته الداخلية :

إصلاحاته الزراعية : يذكر لسعيد إهتمامه بإصلاح حالة الفلاحين ، فقد إصدر فى أغسطس ١٨٥٨ ما عُرف (باللائحة السعيدية) ، وبموجبها أصبح الفلاح مالكاً لأرضه ، كما ألغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية فأصبح الفلاح حراً فى تصريف حاصلاته الزراعية ، وخفف من الضرائب وتجاوز عن المتأخر منها ، وأصبحت الضرائب تدفع نقداً فلا يُلزم الفلاح بسدادها من المحصول .(١)

وعنى بتطهير ترعة المحمودية التى حُفرت فى عهد محمد على .

السكك الحديدية والتلغرافات : تم فى عهد سعيد الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية ، وكان قد وصل فى عهد عباس الى كفر الزيات

---

(١) لمن يريد الإطلاع على هذه اللائحة يرجع إلى :

فيليب جلاد : القاموس العام للادارة والقضاء حـ ١ص ٧١٨ .

فمدّ حتى وصل للقاهرة ، وكان القطار يُنقل قبل بناء الكبارى الى الضفة الأخرى للنيل على مراكب خاصة ، ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس كتتمة لخط الإسكندرية القاهرة.

ومدت فى عهده الخطوط التلغرافية على الطريقة الحديثة بين الإسكندرية، والقاهرة ، والسويس .

التعليم : استمر فى عهده الجمود الذى أصاب التعليم فى عهد عباس بل إنه ألغى ديوان المدارس (وزارة التربية والتعليم) ، كما أغلق مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٥٤م وكان يتولى نظارتها على باشا مبارك ، وقد أعاد فتحها عام ١٨٥٨ بعد أن حولها لمدرسة حربية لخدمة الجيش ونقلها للقناطر الخيرية ، وألغى أيضاً مدرسة المفروزة ، كما أغلق مدرسة الطب بقصر العينى ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ م .

وقد أنشأ مدرسة حربية بالقلعة (مدرسة أركان حرب) عهد بنظارتها لرفاعة رافع الطهطاوى .

والغريب أنه شجع البعثات الأجنبية بمصر على فتح مدارس لها بالقاهرة والإسكندرية .

وقد وضع سعيد باشا بداية للإهتمام بالأثار المصرية فأعد مخازن فى (بولاق) جُمعت بها الآثار المتناثرة فى كل مكان وذلك بمعاونة العالم الفرنسى ماريت باشا (Marrette) .

الجيش والبحرية فى عهده :

بذل سعيد باشا جهداً كبيراً للنهوض بالجيش ، وكان قد أضمحل فى عهد عباس الأول ، فبذل سعيد جهداً كبيراً للنهوض به .

وقد قصر سعيد مدة الخدمة العسكرية بجعلها سنة واحدة وجعلها إجبارية للجميع حتى لأبناء المشايخ والعمد وكانوا معفين منها ، وأهتم

بتوفير حاجيات الجنود من الغذاء والملبس ، والترفيه عنهم ، وفتح سعيد باب الترقى أمام الضباط المصريين .

وقد إنشأ سعيد بالقناطر الخيرية ما عُرف (بالقلعة السعيدية) لصد الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا بطريق النيل . ولتكون مركزاً لمدرسة حربية، وكما ذكرنا إنه نقل مدرسة المهندسخانة إليها .

على أن تردد سعيد باشا ظهراً فى موقفة من الجيش ، فتارة يهتم به فيتضاعف عدده وتوجه إليه عناية خاصة ، وتارة ينقص عدده ويهمل شأنه (مثال ذلك ما حدث عندما إنقص الجيش من ٦٠٫٠٠٠ إلى ٨٫٠٠٠ ليوفر عدد العمال اللازمين لأعمال الحفر فى قناة السويس) .

وقد وجه سعيد جهداً خاصاً للعناية بالبحرية فقد نشأ هو بين أحضان البحرية المصرية - فشرع فى إصلاح السفن وتجديد الأسطول بعد عودته من حرب القوم .

لكن إنجلترا زينت للسلطان العثمانى أن قوة البحرية المصرية ستجعلها خطراً يهدد الدولة - فأصدر أمره لسعيد باشا بالكف عن إصلاح السفن وتدعيم الأسطول - وأدى إذعان سعيد لهذه الأوامر الى ضعف أسطوله وإضمحلاله .

على أن سعيد أتجه للإهتمام بشركات الملاحة التجارية - فأنشأ (الشركة المصرية للملاحة البخارية) لنقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل - وهذه الشركة ولو أنها مصرية إسماً لكن معظم مؤسسيها كانوا أجانب .

كما أسس فى سنة ١٨٥٧ (الشركة المجيدية) للملاحة البحرية وذلك لتسيير البواخر فى البحر الأحمر ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس ، وثغور الحجاز ، واليمن ، والقصير ، وسواكن وتنقل الحجاج ذهاباً

واياباً الى ثغور الحجاز، ولها بواخرأخرى تعمل فى البحر المتوسط وقد صفيت هذه الشركة في أواخر عهد سعيد وحلت محلها فى عهد اسماعيل (الشركة العزيزية) التى أنشأها اسماعيل .

ولما نشطت حركة الملاحة فى البحر الأحمر - وجد سعيد أن الضرورة ملحة لتوسيع ميناء السويس وإصلاح مرافقها فعهد بذلك لشركة فرنسية، كما تعاقد معها على إنشاء حوض عائم بالميناء لإصلاح السفن.

القروض الأجنبية :

لعل مما يذكر لمحمد على وإبنه ابراهيم أنهما إستطاعا أن ينهضا بالبلاد ، وأن يقوما بالمشروعات الضخمة التى أشرنا لبعضها دون أن يورطا البلاد فى الديون - لكن سعيد حاد عن هذا الطريق فعقد فى عام ١٨٦٢ أول قرض مع أحد البنوك الإنجليزية (الدين الثابت)، واندفع سعيد بعد ذلك فى طريق الإستدانة - فلجأ للمرابين يستدين منهم مقابل سندات على الخزانة (عُرفت هذه الديون بالديون السائرة) (١) .

سياسة سعيد الخارجية وحروب مصر فى عهده السودان فى عهده :

حدثت عدة تغيرات فى إدارة السودان فى عهده ، ففى نوفمبر ١٨٥٥ عين أخاه (الأمير عبدالحليم) حكمداراً على السودان وذكر سعيد فى فرمان تعينه " إن الهدف من هذا التعيين هو أن يعمل الحكمدار الجديد على تعمير البلاد ، ورفاهية العباد ، وإقامة شعائر العدل ونشر ألوية اليُمن(٢) - لكن الأمير عبدالحليم لم يستمر طويلاً فى السودان فقد عاد إلى مصر فى ديسمبر ١٨٥٦ إثر ظهور وباء فى السودان .

---

(١) بلغ الدين العام فى نهاية حكم سعيد ٠٠٠ ر ١٦٠ ر ١١ جنيه .

(٢) الأمر الصادر من المعية موجود فى دفتر ١٨٨٣ - دفاتر الأوامر نمرة ٤ بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٧٢

وفى عام ١٨٥٧ زار سعيد السودان ـ وقد ذكر أن الغرض من زيارته هو أن يتمكن من مشاهدة الأقاليم السودانية التى ضُمت للإدارة المصرية منذ حوالى ثمانية وثلاثين عاماً بنفسه ليبحث على الطبيعة ما يقتضيه الحال من وجوه الإصلاح المختلفة لتحسين شئون السودان وتنمية موارده والنهوض بسكانه وإزالة كل أسباب شكوى المواطنين ، وإصطحب سعيد معه عدداً من الشخصيات الهامة من مصريين وأجانب منهم فردند دلسبس (Ferdinanad de Lesseps) .

ومن الإجراءات التى إتخذها سعيد بالسودان لإصلاح أحواله ـ إصدار (مراسيم الخرطوم) وهى أوامر بالقواعد الإدارية والمالية التى رأى أنها كفيلة بعلاج المشكلات التى لمسها ـ ومنها أوامر بإعفاء الأهالى من الضرائب المتأخرة عليهم ، وتخفيف الضرائب المقررة وتقسيطها ، وقد ألغى منصب الحكمدار وقسم السودان الى خمس مديريات ، كما أمر بإشراك السودانيين فى الحكم والإدارة ـ هذا بالإضافة الى تنظيم المواصلات والبريد ، فأصبحت محطات على مسافات مُحددة لتغيير دواب النقل ، وبُذلت محاولات لتذليل العقبات التى تعترض الإتصال النهرى بين مصر والسودان (١) .

وقد تابع سعيد جهود محمد على لمنع الإتجار فى الرقيق بالسودان ومنع تصديره لمصر ـ وكانت هذه الخطوة جريئة فى مجتمع يقوم إقتصاده أساساً على الرق ، وفى أثناء زيارة سعيد للخرطوم فى عام ١٨٦١ـ أصدر تعليمات مشددة لمكافحة الرق ، وقد أمر سعيد بأن تعد

---

(١) عن رحلة سعيد باشا للسودان يرجع الى

Abbate (Pasha): Voyage de Mohammed Said Pasha dans Ses provinces de Soudan (1859).

أربع بواخر للعمل فى السودان ليمكن تنفيذ مشروع (البوليس النهرى) لإحكام الرقابة على حركات السفن ومنع محاولات تهريب الرقيق عن طريق النيل - ولاشك فى أن هذه الجهود خففت كثيراً من نشاط هذه التجارة - لكنها لم تقضِ عليها نهائيا .

حروب مصر فى عهد سعيد باشا :

اشتركت مصر فى حربين :

حرب القرم :

وكان عباس باشا قد أرسل فرقة من الجيش المصرى لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، واستمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد نجدة الى الجيش المصرى فيها .

وقد عانى المصريون كثيراً من الإهمال فى هذه الحرب ، وقتل الكثيرون ، وغرق الأميرال حسن باشا الإسكندرانى قائد الأسطول المصرى فى تلك الحرب ، لكن إشتهرت القوات المصرية المشتركة فيها بالبسالة ، وانتهت الحرب بفوز تركيا وحلفائها وأبرِم الصلح سنة ١٨٥٦ فى باريس - وسلّمت معه روسيا بمطالب تركيا والحلفاء .

حرب المكسيك :

العجيب أن مصر لم يكن لها فى هذه الحرب أية مصلحة أو علاقة ، لكن سعيد أرسل كتيبه مصرية للمكسيك لمعاونة صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا الذى كان يريد تحقيق بعض الأطماع الاستعمارية فى المكسيك - وقد ظلت الكتيبة المصرية بالمكسيك أكثر من أربع سنوات ، وفنى معظم رجالها باستثناء بقية من ضباطها ونحو ثلثمائة من جنودها - فعادوا لمصر سنة ١٨٦٧ .

إمتياز قناة السويس

فكرة ربط البحرين المتوسط والأحمر قديمة . (١)

ففى عهد الفراعنة حُفرت ترعة تصل البحر الأحمر بأحد فروع النيل ، وفى عهد الفتح الاسلامى أنشأ عمرو بن العاص الخليج الذى عُرف (بخليج أمير المؤمنين) ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر أيضاً .

وفى عهد الحملة الفرنسية دُرس مشروع وصل البحرين مباشرة ، فقد عهد بونابرت الى لجنة برئاسة لوبير Lepére كبير مهندسى الحملة بدراسة المشروع ـ لكن أعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر المتوسط بنحو تسعة أمتار ، وقد نُشر المشروع الفرنسي ونفقاته وكل ما يتعلق به فى أكثر من ثلثمائة صفحة ضمن كتاب (وصف مصر) .

وفى عهد محمد على جاء (فرديناند دلسبس) للقاهرة عام ١٨٣١ وقد كانت هذه فرصة إتصل فيها بالأمير محمد سعيد وصار صديقاً له ـ لكن محمد على رفض مشروع القناة حين عُرض عليه كما رفضه عباس الأول ـ لكن لما تولى سعيد باشا الحكم جاء صديقه فردناند دلسبس لمصر ، وفاتح سعيد فى أمر المشروع أثناء رحلة لهما من الإسكندرية الى القاهرة عن طريق الصحراء الغربية ـ فوافق سعيد دون بحث أو ترو .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ منحه سعيد ما عُرف (بعقد الإمتياز الأول) وهو يقضى بمنحه إمتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة إبتداءً من تاريخ فتح القناة للملاحة ـ وعهد سعيد إلى مهندسين فرنسيين كانا فى خدمة الحكومة المصرية هما

---

(١) لمزيد من الدراسة يرجع الى :

عبدالعزيز محمد الشناوى : قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بإنشائها (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧)

(لينان بك) و (موجيل بك) بمرافقة المسيو دلسبس الى برزخ السويس ودراسة المشروع على الطبيعة ورفع تقرير له عن نتيجة ذلك .

وفي ٥ يناير ١٨٥٦ أصدر سعيد باشا لدلسبس (عقد الامتياز الثاني) وبموجبه [١] :

١- منحت الحكومة المصرية الشركة - إمتياز انشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر المتوسط ، والسويس على البحر الأحمر ؛ وإنشاء ترعة المياه الصالحة للملاحة النيلية تستمد مياهها من النيل وتصب في القناة المالحة ، وانشاء فرعين للري والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة .

٢- تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها المطلوبة لإنشاء القناة المالحة وترعة المياه العذبة .

٣- خولت الشركة حق إنتزاع الأراضي المملوكة للأفراد التي تلزمها للإنتفاع بالإمتياز على أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات عادلة .

٤- على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترعة التي ستنشئها الشركة - إذا ارادوا ري أراضيهم من مياهها - أن يحصلوا على ترخيص من الشركة وأن يدفعوا تعويضا لها .

٥- منحت الحكومة طوال مدة الإمتياز للشركة حق أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني دون دفع

(١) من المراجع الرئيسية عن قناة السويس :المراسلات واليوميات والوثائق التي نشرها دليسبس نفسه
De Lesseps, Ferdinand : Lettres, Joarnal et Documents Pour servir a l'histoire du Canal deSwez 5vols (1875 -1881).

أي رسم أوتعويض – وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية عن جميع ماتستورده من الآت ومواد من الخارج .

٦– مدة الإمتياز ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة تؤول القناة بعدها للحكومة المصرية – على أن تأخذ الحكومة فى هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع وتدفع قيمتها للشركة بالتراضى نباءً على تقدير الخبراء (١)

٧– للشركة الحق فى فرض ماتشاء من رسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أوالترعة العذبة .

٨ – تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥٪ من صافى الارباح السنوية للشركة (باعت مصر هذا الحق للبنك العقاري لفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك عام ١٨٧٩) .

٩– يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (فسرت الشركة هذا النص على أنه إلزام للحكومة بتقديم أربعة اخماس العمال اللازمين لأعمال الحفر) .

١٠– تعين الحكومة مندوباً عنها لدى الشركة ليرعى حقوق الحكومة ومصالحها فى تنفيذ العقد .

١١– أشتُرط لصحة الإمتياز أن يصدق عليه السلطان العثمانى .

نقد عقد الإمتياز :

لقد خولت شروط الإمتياز للشركة حقوقاً وإمتيازات عجيبة جعلتها

---

(١) فتحت القناة للملاحة لعام ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وكان المفروض – لو لم تؤمم مصر شركة القناة فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ أن تنتهى مدة الأمتياز فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٨ .

تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها وسيادتها فى المناطق التى ستمربها القناةوالترعة العذبة ، وقد جعل عقد الامتياز من الشركة دولة داخل الدولة ، كما حصلت الشركة على حقوق وإعفاءات عجيبة دون أى مقابل و عطيت حق انتزاع أملاك من الأهالى - أما عن النتائج التى ترتبت على عقد الإمتياز - فقد فتح هذا المشروع باب التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، كما أدى لإرتباك الميزانية المصرية وتورط مصر فى الإستدانه من البنوك الأجنبية ، ولم تستفد مصر إقتصادياً شيئا من القناة التى عادت أرباحها للشركة الأجنبية .

وقد حاولت انجلترا عرقلة تنفيذ المشروع وحرضت تركيا على عدم التصديق على الإمتياز - ومع ذلك فقد بدأ دليسبس فى أعمال الحفر فى ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ رغم عدم تصديق الباب العالى على الإمتياز - وقد سار العمل فى تنفيذ المشروع - وفى عهد سعيد تم حفر المنطقة من البحر المتوسط حتى بحيرة التمساح ، وقد اكتمل المشروع بعد أن أجرى تعديل فى شروط الامتياز وافتتحت القناة للملاحة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فى عهد الخديو اسماعيل .

وفاة سعيد :

توفى فى ١٨ يناير ١٨٦٣ ، وخلفه على عرش مصر اسماعيل ابن ابراهيم - وبذا فقد كانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر .

للمزيد من الدراسة

أولا : مراجع عربية:

١ ـ عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل الجزء الأول (تناول دراسة عصرى عباس ، سعيد)

٢ ـ عبدالعزيز الشناوى : قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بإنشائها(مهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) .

٣ ـ فيليب جلاد : القاموس العام للإدارة والقضاء جـ ١ .

ثانياً : مراجع أجنبية :

1-Abbate (Pasha):Voyage de Mohammed Said PashaDans Ses Provinces du Soudan .

2 - About,Edmond: le Fellah (1869) .

3 - De Lesseps, Ferdinand : Lettres ,Journal et Documents Pour Servir á l'Histoire du Canal de Suez 1875-1881 .

4 - Merruas: l'Egypte Sous Saied Pacha(Revue des Mondes -15 Sept,1857)

5 - Vingtrinier: Soliman Pacha

الفصل الخامس
عصر الخديو اسماعيل
(١٨٧٩- ١٨٦٣)

محتويات الفصل :

- ولاية اسماعيل الحكم .

-- سياسته الداخلية وأعماله العمرانية .

*جهوده للنهوض بالزراعة والرى – والصناعة .

*المواصلات والسكك الحديدية .

*التعليم والنهضة العلمية .

*الأعمال الصحية والعمرانية .

--الحركة الوطنية والحياة النيابية .

-السودان فى عهد اسماعيل .

– قناة السويس .

– الجيش والبحرية .

– حروب مصر فى عهد اسماعيل .

– سياسه مصر الخارجية فى عهد اسماعيل :

* سياسته حيال تركيا .

* تغيير نظام توراث العرش .

* سياسته تجاه الدول الأوربية .

* المحاكم المختلطة والإمتيازات الأجنبية .

– مأساة الديون وتطورها .

– خلع اسماعيل ورحيله الى منفاه .

ولاية اسماعيل الحكم :

اسماعيل هو ابن ابراهيم بن محمد على ، ولد بالقاهرة فى ديسمبر ١٨٣٠ م وبعد أن اتم تعليمه بها سافر الي فينا عاصمة النمسا ليعالج بها وليكمل تعليمه ، وبعد عامين سافر لباريس حيث نال قدراً من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، كما اتقن اللغة الفرنسية ، وقد عاد لمصر فى عهد ولاية أبيه ابراهيم باشا ، ولما تولى عباس وكان يضمر الكراهية لعمه - رحل إسماعيل الى إلاسيتانه ولم يعد لمصر إلابعد مقتل عباس وتولية سعيد ، وأصبح اسماعيل ولياً للعهد حسب نظام وراثة العرش لسبب حادث أودى بحياة أخيه الأكبر الأمير أحمد رفعت عام ١٨٥٨– وقد ناب اسماعيل عن عمه سعيد فى إدارة البلاد أثناء غيابه فى الشام عام ١٨٥٩ وفى الحجاز عام ١٨٦١ – وخلفه على عرش مصر بعد وفاته فى يناير ١٨٦٣ .

سياسته الداخلية

يمثل عصر إسماعيل فترة من أزهى الفترات وأكثرها تقدماً وعمراناً فى تاريخ مصر الحديث ، كما يمثل حقبة من أخطر ما تعرضت له البلاد بسبب الأخطاء التى يسرت للدول الأجنبية فرصة التدخل فى شئون مصر ، فقد تصرع إستقلال مصر المالى وتبعه إنهيار إستقلالها السياسى وأهم ماتم من وجوه النهضة والإصلاح فى عهد اسماعيل :

فى مجال الزراعة والرى : إزدادت مساحة الأرض الزراعية نتيجة لتوفير مياه الرى اللازمة ، وزاد انتاج (القطن) خاصة بعد إزدياد الحاجة اليه وارتفاع أسعاره أثناء الحرب الأهلية الأمريكية .

كذلك زرعت مساحات واسعه بقصب السكر بعد النهضة التى شهدتها صناعة السكر .

ومن الترع الهامة التى تم حفرها فى عهد اسماعيل (الترعة الإبراهيمية) التى تأخذ مياهها من النيل عند أسيوط وتخدم الزراعة بمديريات أسيوط والمنيا ، وبنى سويف ، كذلك (ترعة الإسماعيلية) وهى تتفرع عند الإسماعيلية الى فرعين يسير أحدهما الى السويس والآخر الى بور سعيد .

كما أُنشئت قناطر على النيل والترع ، وأصلحت القناطر الخيرية – وأدى كل هذا كما ذكرنا لزيادة مساحة الأطيان المزروعة وللتوسع فى زراعة العديد من الحاصلات .

فى مجال الصناعة :

تعددت فى عهد اسماعيل معامل السكر فبلغت ١٧ معملاً ، كما عاد النشاط لكثير من المصانع التى كانت تعمل فى عهد محمد على ، منها مصانع النسيج ، والجلود ، والطوب ، والزجاج وغيرها .

المواصلات والسكك الحديدية :

أُنشئت عدة خطوط حديدية ، كما مدُت الخطوط التلغرافية بين مختلف بلدان مصر بالإضافة للخطوط التى مدُت فى السودان لربط مدنه ولربطه بمصر ، كما أُنشئت مصلحة بريد مصرية وأنشئت لها مكاتب في الإسكندرية والقاهرة والأقاليم .

التعليم والنهضة العلمية :

أعاد اسماعيل ديوان المدارس (وزارة التربية والتعليم) ، وأعاد الحياة للعديد من المدارس التى كانت قد أغلقت فى آخر عهد محمد على أو بعده

ومن المدارس التى أنشئت مدرسة المهندسخانة التى أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦ بسراى الزعفران ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ، ومدرسة الطب ، وعديد من المدارس الصناعية ، كما فُتحت من المدارس الثانوية مدرسة الخديوية ، ومدرسة رأس التين بالإسكندرية هذا بالإضافة إلى العديد من المدارس الإبتدائية . وقد بدأ إنشاء مدارس البنات فى مصر فى عهد إسماعيل .

لقى الأزهر الشريف الكثير من عناية إسماعيل ، وقد ساهم فى ذلك جمال الدين الأفغانى حين وفد لمصر عام ١٨٧١ - والإمام الشيخ محمد عبده .

وقد حظيت المدارس الخاصة التى أنشأتها الهيئات كمدارس الأقباط، والمدارس الأوربية بتشجيع اسماعيل ، وقد تضاعفت ميزانية التعليم كما أوقفت الأوقاف للصرف من ريعها على شئون التعليم .

واعاد اسماعيل عهد البعثات الذى ازدهر فى عهد محمد على .

وقد شجع اسماعيل عالم الاثار الفرنسى ماربيت (Maritte) على التنقيب عن العاديات والآثار ، وحفظها فى مخازن بولاق ، وقد نقلت الآثار الى مكانها الحالى بالمتحف المصرى بالتحديد فى عام ١٩٠٢م .

وأصدر اسماعيل سنة ١٨٦٩ امراً بإنشاء (دار الآثار العربية) ليجمع فيها الآثار العربية والإسلامية المبعثرة فى المساجد وغيرها .

وفى عهد اسماعيل أُنشئت أيضاً (دار الرصد) بالعباسية ومصلحة الإحصاء ، ومصلحة المساحة – كما أسست الجمعية الجغرافية عام ١٨٧٥ م .

الأعمال الصحية : أنشئت فى عهد اسماعيل عدة مستشفيات فى القاهرة والإسكندرية والاقاليم ، وبذلت جهود كبيره لمكافحة الأوبيئة ومقاومة الأمراض .

الأعمال العمرانية : وجهت عناية خاصة لتنظيم المدن وتخطيطها وتجميلها .

وفى القاهرة – أعيد تخطيط العديد من الأحياء وأُنشئت أحياء كثيرة كحى الإسماعلية ، والتوفيقية ، وعابدين ، وأنشئت عدة قصوربها .

ومن الأعمال العمرانية التى تمت – إنشاء حديقة النباتات بالجيزة، وحديقة الأزبكية ، وأقيمت عدة تماثيل ، فى ميادين القاهرة الهامة تخليداً لذكرى العظماء .

وفى عهد اسماعيل أُنشئت (دار الاوبرا) ورصفت عدة طرق منها الطريق المؤدى للأهرام ، الطريق بين القاهرة وحلوان ، وجهت العناية لحمامات حلوان .

وفى الإسكندرية عُمرت جهة الرمل ، وحديقة النزهة وغيرها ، وقد أنشئ عدد كبير من القصور المعروفة اليوم فى عهد لسماعيل منها قصر عابدين ، وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الزعفران بالعباسية ، وسراى الرمل ، ورأس التين بالإسكندرية - هذا خلاف القصور الآخرى بالاقاليم.

الحركة الوطنية والحياة النيابية

كان (مجلس المشورة) الذى أسسه محمد على سنة ١٨٢٩ بمثابة أول هيئة نيابية ظهرت فى تاريخ مصر الحديث لكنه أبُطل بعد ذلك لفترة قصيرة ، وانقضى عهد عباس وسعيد دون أن يجتمع مجلس المشوره أو أى مجلس يشبهه .

فلما تولى اسماعيل الحكم ـ فكر فى إنشاء (مجلس شورى النواب)، وقد أنشئ هذا المجلس سنه ١٨٦٦ ووضعت له لائحة توضح سلطته وطريقة انتخابه وموعد اجتماعاته – ولم تكن قرارات المجلس ملزمة بل هى مجرد (رغبات) ترفع الى الخديو ، وكان المجلس من ٧٥ عضواً ينتخبهم عمد البلاد ومشايخها والأعيان لمدة ثلاث سنوات. واشترط فى العضو أن يكون مصرياً ولاتقل سنه عن خمس وعشرين سنه ، والا تكون قد صدرت ضده أحكام جنائية ، وأن يكون مُلماً بالقراءة والكتابة ، وكان نواب كل مديرية يُنتخبون فى عاصمتها ، ويجتمع المجلس شهرين كل سنه (من منتصف ديسمبر الى منتصف فبراير) ، وكان الخديو يفتتح المجلس بمقالة (خطبة العرش) ، وينتخب المجلس من بين أعضائه لجاناً ويتمتع الأعضاء أثناء انعقاد المجلس بشئ من الحصانة النيابية .

وهكذا يُعتبر (مجلس شورى النواب) خطوة لكنها محدودة جداً فى الحياة النيابية فى مصر .

وقد إنتهت عضوية مجلس شورى النواب الأول ، فأجريت الانتخابات للهيئة النيابية الثانية فى أوائل سنة ١٨٧٠ .

وبعد إنقضاء مدة الهيئة النيابية الثانية لم تُجَر انتخابات جديدة ، ولم يُدع مجلس شورى النواب للإجتماع – وهكذا عُطلت هذه الخطوة النيابية فى عامى ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ م .

وقد عادت الحياة النيابية فى عام ١٨٧٦ م وأستمرت هذه الدورة الثالثة حتي نهاية عهد الخديو اسماعيل تقريباً .

وجاء تأليف وزارة نوبار باشا الأولى فى اغسطس ١٨٧٨ ، واشتملت على عضوين اجنيبين هما وزير المالية السيد ريفرس ويلسن Rivers Wilson ، وزير الاشغال المسيو (دي بلينير) (DeBliginer)كعامل جديد لدفع الحركة الوطنية ، خاصة بعد أن أحالت الوزارة ٢٫٥٠٠ ضابطاً مصرياً للإستيداع – وانتهي الأمر بإستقالة وزارة نوبار ، فتألف الامير محمد توفيق باشا نجل الخديوى الوزارة الجديدة فى ١٠مارس ١٨٧٩ ، وكان بالوزارة الجديدة أيضاً وزيران أوربيان ، واشترط أن يكون لهذين الوزيرين حق (الفيتو) لوقف أى قرار يصدر من مجلس النظار إذا لم يوفقا عليه .

وفى ٢٧ مارس ١٨٧٩ – أصدر الخديوى أمراً بانهاء دورة المجلس . وأدى هذا الى اجتماع الأحرار من الأعيان والنواب والعلماء ووضعوا فى ابريل ١٨٧٩٠ ماسمى بـ (**اللائحة الوطنية**)وهي تتضمن – مشروع تسوية يعارض مشروع الوزارة الذى كان يعتبر البلاد فى حالة إفلاس – ويطالب بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله الحقوق والسلطات المعترف بها فى المجالس النيابية فى أوربا ، وتقرير مبدأ مسئولية الوزارة أمامه .(١)

وقد قبل الخديوى هذه اللائحة الوطنية – وطلب من (شريف باشا) تأليف وزارة تكون مسئولية أمام مجلس شوري النواب .

وكان من أول أعمال وزارة شريف باشا دعوة مجلس شورى النواب للإستمرار فى عمله – وقدم شريف باشا للمجلس لائحة جديدة بناء على

---

١) للدراسة التفصيلية للحياة النيابية فى مصر وما جرى فى هذه المجالس فى عهد اسماعيل يرجع الى عبدالرحمن الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الثانى (١٩٣٢) . ص ١٧٧ وما بعدها .

اللائحة الوطنية التى قدمت للخديوى والتى تجعل من المجلس سلطة حقيقية تراقب أعمال الحكومة . (١)

وقد اجتمع المجلس وانتخب لجنة من خمسة عشر عضواً للنظر فى لائحة مجلس النواب الأساسية – وقد وضعت هذه اللجنة – مايمكن أن نُطلق عليه (دستور سنة ١٨٧٩) ، وإن لم يصدر به مرسوم خديوي . إذ أن الدول الأوربية هالها الأمر فائتمرت بالخديوى اسماعيل وسعت لخلعه عن العرش وتم لها ماأرادت – وتولى توفيق باشا بدلاً من أبيه .

السودان فى عهد اسماعيل

عندما وصل اسماعيل للحكم فى عام ١٨٦٣ كانت أحوال السودان قد وصلت الي شئ غير قليل من الإرتباك بسبب بعض عوامل ترجع لعهدى عباس وسعيد منها :

١- ضعف الحكومة المصرية فى عهد عباس وعهد سعيد .

٢- القيود التى فُرضت على مصر ابتداءً من عام ١٨٤٠ـ جعلت مركز الحكومة المصرية من نواح كثيرة أضعف على وضع سياسة قوية وإتباعها .

٣- إتساع المشروعات المالية الإوربية والبحث عن مناطق للإستثمار .

٤- أنفتاح السودان للمؤثرات الخارجية .

٥- إضعاف شأن الوحدات السياسية والقبلية السابقة .

---

(١) ألغت هذه الوزارة الوطنية فى ٨ إبريل ١٨٧٩ ، وعن الخطابات المتبادلة فى هذا الشأن وعما قوبلت به من إبتهاج شعبى يرجع الى :
عبدالرحمن الرافعى : نفس المرجع السابق ص ٢٢٥ وما بعدها

ومنذ حكم اسماعيل مصر أبدى إهتماماً حقيقياً بالسودان يدل على ذلك :

١- مظاهر التنظيم الإدارى المختلفة والمحاولات التي بُذلت لإصلاح الادارة .

٢- محاولات تيسير إتصال السودان بمصر بأحدث وسائل الإتصال كالسكك الحديدية ، والسفن التجارية والتلغراف .

٣- تعدد المشروعات العمرانية ومنها منشآت تعليمية ومشروعات إقتصادية .

الإدارة :

تولى أمر السودان فى عهد اسماعيل عدد من الحكمداريين برزت منهم شخصيات كان لها أثرها فى تنظيم الإدارة بالسودان والنهوض به مثل موسى باشا حمدى ، وجعفر صادق باشا ، وجعفر مظهر باشا ، واسماعيل ايوب . كما تولى غوردون باشا حكودارية السودان فى عام ١٨٧٧ واستمر حتى أول حكم الخديوى توفيق فى عام ١٨٧٩ ، وقد اشترك فى الإدارة عدد من السودانيين كان لهم دور فعال فى الإدارة والحكم .[١]

التطور الإقتصادى:

شملت السودان في هذه الفترة نهضة إقتصادية في ميدان الزراعة والصناعة والتعدين - كما نهضت التجارة ويُسرت سبل المواصلات .

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :
شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر الجزء الثانى

التعليم :

كان هناك إهتمام بانشأ المدارس في السودان ، وكانت هذه المدارس تحت إشراف ديوان المدارس ، كما انتشرت في السودان (الخلاوى) و (الزوايا) .

وفى عصر اسماعيل بُذلت جهود مضاعفة للكشف عن منابع النيل ، وقد كُلف (صموئيل بيكر) بالكشف عن الأقاليم الواقعة جنوب (غندوكرو)وضمها للإدارة المصرية ، وخلفه (غوردون باشا) فى ذلك ، فقضى فى مأمورية خط الإستواء هذه الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٦ ,

الشئون الصحية :

قامت الإدارة المصرية بانشاء المستشفيات في مدن السودان المختلفة، فكانت المدرسة والمستشفى والمسجد أول ماتهتم به الإدارة المصرية فى البلاد التى امتدت إليها هذه الإدارة - كما أن إمداد المدن بالمياة العذبة وتنظيمها وتوسيعها ومنع تراكم القاذورات أدت للنهوض بالحالة الصحية العامة .

وفى تقرير رسمي صدر عام ١٨٧٣ ذكر أنه أصبح فى كل عاصمة مديرية من مديريات السودان مستشفى ، وزودت الأقسام الداخلية من هذه المستشفيات بالأسره اللازمة .

وكانت هذه المستشفيات تقرم بالإضافة الى علاج المرضي بالتطعيم ضد الأمراض الوبائيه .

تخطيط المدن الكبرى :

بُذلت جهود ضخمة لإعادة تخطيط المدن الكبرى وتيسير البناء بالحجر واستُخدم الجيش فى المحاجر - وأقيمت فى كل مدينه دار للمديرية

ومستشفى ، كما أنشئت الحدائق ، والمدارس والمساجد وأقيمت قشلاقات للجند فى مواقع مناسبه .

مكافحة الرق :

أصدر اسماعيل أوامر الى حكمدارى السودان بمنع الإتجار فى الرقيق واتخاذ الإجراءات لمرقبة ومصادرة مراكب النخاسه – وقد شُددت الرقابة على السفن فى البحر الأحمر لمنعها من تجارة الرقيق ، وساعد على مكافحة الرق إمتداد الإدارة المصرية إلى أعالى النيل ، ومنطقة البحيرات الإستوائية ، والي دار فور ، وبحر الغزال ، والسودان الشرقى وهرر، والمنافذ المتعددة المطلة على البحر الأحمر .

إمتداد الإدارة المصرية فى السودان لمناطق جديدة (١)

أ – ضم بحر الغزال ودار فور للإدارة المصرية :

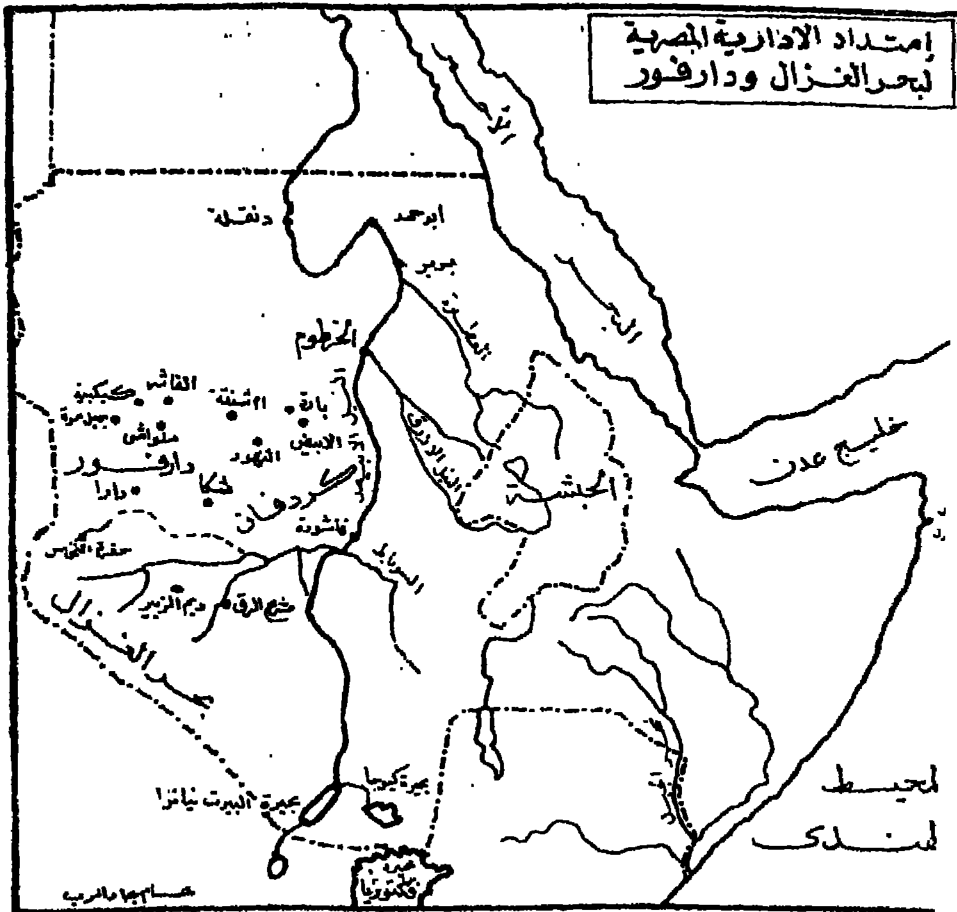
يرجع فتح دار فور وكذلك إقليم (بحر الغزال) وضمهما للادارة – المصرية الى جهود(الزبير باشا رحمت) السودانى .

فبعد فتح الزبير باشا لهذه الجهات وضعها تحت تصرف الإدارة المصرية .

وبعد ضم هذه البلاد للإدارة المصرية ولى الزبير باشا أمرها لفترة لكن حدث خلاف بينه وبين حكمدار السودان (اسماعيل باشا أيوب) وجاء الزبير باشا لمصر لعرض وجهة نظره على الخديوى . فاكرمت وفادته هنا وأفرد الخديوى له أحد قصوره ليسكن فيه ، لكن لم يُسمح له بالعودة الى السودان .

---

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع الى :
شوقى الجمل : مرجع سابق



شكل (٩)

امتداد الإدارة المصرية لبحر الغزال ودارفور

(فى عهد الخديوى اسماعيل)

٢- ضم الأقاليم المطلة على البحر الأحمر : [1]

مدت مصر نفوذها للأقاليم الهامة المطلة على البحر الأحمر . وبعض هذه الأقاليم كانت تابعة للدولة العثمانية فتنازلت عن إدارتها لمصر مقابل زيادة الجزية السنوية.

من هذه الأقاليم : سواكن ، ومصوع ، وبربره ، وزيلع و كما أرسلت مصر حملة استولت على هرر.

وقد حظيت هذه الأقاليم التي امتدت إليها الإدارة المصرية بالرعاية الكاملة فيسرت وسائل إمدادها بالمياه النقية ، وعنيت الحكومة بتأمين الطرق ، وبالنواحي الصحية ، ونهضت بها الزراعة والصناعة ، وفتحت المدارس .

وارسلت مصر حملة من ميناء السويس لبلاد الصومال – فوصلت الى (رأس حافون) و(براوه) و(قسمايو) .

واهتمت مصر بالملاحة فى البحر الأحمر – فكان هناك إهتمام بإعداد مواني البحر الأحمر المختلفة للملاحة – وأُنشئت الفنارات لهدايه السفن ، وبُذلت عناية خاصة بالموانى .

وأصبحت الملاحة فى هذا البحر أمنة، وأصبحت لشركات الملاحة المصرية والأجنبية خطوط ملاحية منتظمة .

٣- ضم المديرية الإستوائية والوصول لمنابع النيل الإستوائية :

كُلف صموئيل بيكر بإنشاء المديرية الاستوائية ، ومد سلطان الإدارة المصرية الى خط الإستواء – وذلك بناء على عقد لمدة أربع سنوات (١٨٦٩ – ١٨٧٣) .

(١) لدارسة التفصيلية يرجع الى

شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٩٧٤)

ويقال إن الحكومة البريطانية هي التي أشارت على الخديو اسماعيل بشخص (السيد صموئيل بيكر) .

وقد نجح بيكر في إنشاء محطات عسكرية في الطريق للمديرية الإستوائية – لكنه لم ينجح في كسب ثقة الأهالي في هذه الجهات فناصبوه العداء .

وخلف بيكر في المديرية الإستوائية – غوردون الذى أصبح مديراً لها في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٦ .

وفي هذه الفترة أرسلت الحكومة المصرية في عام ١٨٧٥ حملة في البحر الأحمر بقيادة الضابط البحري الإنجليزي مكيلوب (باشا) – لوضع يدها على نقط على الساحل واتخاذها نقطة للإنطلاق للداخل – إذ أدركت مصر إنه من الأفضل الاتصال بهذه المناطق الداخلية عن طريق البحر الأحمر والساحل الشرقي للقارة – بدلاً من نهر النيل الذى تعترض مجراه عدة عوائق .

ورغم تكليف الحكومة المصرية لغوردون بالاتجاه شرقاً لتيسير مهمة الحملة لكنه لم ينفذ هذا الأمر – كما أن انجلترا اعترضت على الحملة وأضطرت مصر لسحبها .

على أن آخر مدير مصرى للمديرية الإستوائية كان أمين باشا الذى أدارها من عام ١٨٧٨ الي ١٨٨٩، وبعد الثورة المهدية في السودان أرسل استانلي بحملة لسحبه من المديرية بعد انقطاع صلته بالخرطوم .(١)

---

(١) عن تاريخ مديرية خط الأستواء المصرية يرجع الى :

عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها الى ضياعها ـ ٣ .جزاء (القاهرة ١٩٣٧)

قناة السويس

كانت قناة السويس من أول المسائل السياسية التي واجهت اسماعيل، وقد أتجه اسماعيل الى تعضيد المشروع بكل قوته - لكن هالته فداحة المزايا التي نالتها الشركة في عقد الإمتياز، فسعى جهده في تخفيفها .

ومما يؤثر عنه قوله " إني أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة .

وكان اعتراضه على أربعة من شروط الإمتياز :

١- تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية ٠٠٠ر٢٠ عامل .

٢- ملكية الشركة لترعة المياة العذبة ، وتقاضيها أجراً من الأهالي حسب تقديرها - نظير ري الأراضي المملوكة لهم منها .

٣- ملكية الشركة لجميع الأراضي التي يحتاجها المشروع ، وملكيتها للأراضي التي تستصلحها وزراعتها ، وإعفائها من دفع الأموال الاميرية عليها .

٤- نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد - إذا احتاجت إليها الشركة لإستغلال امتيازها .

وقد تقدم نوبار وزير الخارجية المصرية للشركة باقتراحات الحكومة المصرية وتتلخص في :

١- إنقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة الى ٠٠٠ر٦ لأن تسخير ٠٠٠ر٢٠ عامل لأعمال الحفر يضر بالبلاد والزراعة .

٢- زيادة أجور العمال ليعوض الفلاح مايخسره من ترك بلده وأرضه ومايبذله من جهد .

٣- تقوم الحكومة المصرية بإتمام الترعة العذبة ، على أن تعوض الشركة عن قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها .

وقد عارضت الشركة فى هذه المطالب - وارتضى الخديوى أخيراً تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور فرنسا - وأصدر نابليون الثالث حكمه فى يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بأن تلتزم الحكومة المصرية بدفع تعويضات بلغ مجموعها ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٤ فرنك (٠٠٠ر٣٦٠ر٣ جنيه) نظير هده التعديلات فى شروط الامتياز وهذا المبلغ يبلغ تقريباً نصف رأس مال الشركة .

ولاشك فى أن حكم الامبراطور كان فوزاً كبيراً للشركة كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر .

وفى ٣٠ يناير ١٨٦٦ عقد اسماعيل إتفاقاً لتسوية النزاع مع الشركة فى ضوء حكم إمبراطور فرنسا ، وفى فبراير ١٨٦٦ عقد اتفاقا كاملا مع الشركة يتضمن ماورد فى عقد الإمتياز الأولى مع التعديلات التى أتفق عليها . (١)

وفى ١٩ مارس ١٨٦٦ صدر الفرمان السلطانى بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير ١٨٦٦ .

وعقد اسماعيل إتفاقاً آخراً مع الشركة فى ٢٢ ابريل ١٨٦٩ ألغى فيه شرط إعفاء ماتستورده من الخارج من رسوم جمركية مقابل تعويض مناسب .

---

(١) للوقوف على نص هذه الأتفاقات يرجع إلى :
De Lesseps, Ferdinand ': Lettres .. OP . Cit , VoL 5

وانتهى العمل فى حفر القناة ، وإتصلت مياه البحرين المتوسط والأحمر وأفتتحت القناة للملاحة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ ، وأقام اسماعيل حفلات فخمة بمناسبة افتتاح القناة كلفت خزانة مصر مالاً طائلاً - فى وقت كانت تئن فيه الحكومة والبلاد من ضروب الضيق المالى . (١)

وكان لمصر تقريباً نصف أسهم الشركة البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ سهم وفى عام ١٨٧٥ - عرض اسماعيل بيع أسهم مصر لسداد الديون واشترت انجلترا هذه الأسهم بأربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية وكانت مصر قد تنازلت عن ١٥٪ من أرباح القناة .

وهكذا أدى إسراف اسماعيل الى أن يحرم مصر من هذه الثروة الضخمة ، كما أن شراء انجلترا لأسهم مصر ترتب عليه أن أصبح لها نفوذ كبير وكلمة مسموعة فى إدارة القناة واستمر هذا الوضع الى أن أممت مصر القناة فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ .

الجيش والبحرية

عنى اسماعيل بترقية الجيش وتنظيمه ومضاعفة قوته والوصول به الي مستوى الجيوش الكبيرة للأمم الحديثة ، كما عنى بنهضة التعليم الحربى - فأنشأ المدارس الحربية وأختار لها أكفأ المدرسين والضباط - لكن الأزمة المالية التى اشتدت فى أواخر عهده أدت لإقفال معظم المدارس الحربية التى أنشأها .

ومن المدارس الحربية التى أنشأها اسماعيل فى العباسية مدرسة

---

(١) عن حفلات إفتتاح قناة السويس يرجع الى :

Nieole : l'I nauguration Du Canal De Suez (1869) وهو يحتوى رسوما لحفلات إفتتاح القناة .

المشاة ، ومدرسة الفرسان (السوارى) ، ومدرسة المدفعية ، ومدرسة أركان الحرب ، ومدرسة صف الضباط ، ومدرسة الطب البيطرى .

وكانت لهذه المدارس إدارة واحدة (إدارة المدارس الحربية) ، وأنشأ اسماعيل (هيئة اركان حرب الجيش) ضمت عدداً من الضباط المصريين من أعضاء البعثات الحربية التى أرسلت لفرنسا بالإضافة الى الضباط الامريكيين الذين دخلوا فى خدمته ، وعلى رأسهم الكولونيل استون باشا .

وأُنشئت للهيئة مطبعة لطبع ورسم الخرائط ، كما صدرت جريدتان عسكريتان هما (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية) .

وقد زود اسماعيل جيشه بالأسلحة الحديثة ، كذلك عني اسماعيل بتجديد الأسطول ، فأنشأ عدة سفن حربية فى ترسانات أوربا ، وجدد المدرسة البحرية بالإسكندرية – وقد اشترك الأسطول المصرى فى عدة حملات منها حملة كريت ، وحرب البلقان ، وأقلت سفن الأسطول القوات العسكرية التى أرسلتها مصر لثغور البحر الأحمر كمصرع ، وزيلع ، ويربرة ، ورأس جرد فوى ، وقسمايو . (١)

ولما وضعت الدول الأوربية عقبات فى سبيل النهوض بالأسطول الحربى – وجه عناية للأسطول التجارى .

فأنشأ شركة للملاحة التجارية سُميت (الشركة العزيزية) للعمل فى البحرين المتوسط والأحمر .

---

(١) إسماعيل (باشا) سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (٣ أجزاء ١٣٩٢) جـ ٢ ص ٥٥

وقد ابتاع الخديو ى اسماعيل أسهم هذه الشركة وجعلها إدارة من إدارات الحكومة عُرفت باسم (وابورات البوسته الخديوية) .

وقد أهتم اسماعيل بميناء الاسكندرية ، وميناء السويس وغيره من موانى البحر الأحمر - فأقام الأحواض العائمة لإصلاح السفن وأنشأ عدة فنارات فى ثغور البحر الأحمر لهداية السفن .

حروب مصر فى عهد اسماعيل

خاضت مصر فى عهد اسماعيل عدة حروب . وبعض هذه الحروب كانت لنجدة الدولة العثمانية ومعاونتها ، منها الحملة التى أرسلت (للعسير) في شبه جزيرة العرب لإخماد ثورة قامت ضد الدولة العثمانية، ومنها الحملة التي اشتركت فى حروب البلقان لإخماد الثورة هناك .

ومن أهم الحملات التى جردها اسماعيل- الحملات التي جردها للوصول بالسودان لحدودة الطبيعية فى الغرب والجنوب والشرق ، كذلك من حملاته تلك التي جردها ضد الحبشة وقد كانت حرباً عقيمة من كل الوجوه هُزم فيها الجيش المصرى فى هذه البلاد الوعره وانتهت بعقد صلح مع الحبشة .

سياسة مصر الخارجية في عهد اسماعيل

علاقة مصر بتركيا :

كانت السياسة التى رسمها اسماعيل هي توسيع نطاق إستقلال مصر ، وكسب أكثر مايمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية حتى يصل بالبلاد الى الإستقلال التام .

ومع أن إتجاه إسماعيل للإستقلال بمصر يتفق الى حد كبير مع إتجاه جده محمد علي - لكن الوسيلة والطريق الذى سلكه كل منهما يختلف تماماً عن الأخر، فقد اتجه محمد علي لكسب حق الإستقلال معتمداً على قوة الجيش المصرى ، بينما اعتمد اسماعيل علي سلاح المال والرشوة يبذلهما لرجال الأسيتانة ليحصل على الفرمانات التى وسع بها نطاق الإستقلال .

وزار اسماعيل تركيا عقب توليه الحكم وتودد الي السلطان عبد العزيز ورجال حكومته ودعا السلطان لزيارة مصر ، وفي ابريل ١٨٦٣ زار - السلطان مصر وقضى فى ضيافة اسماعيل عشرة أيام - بالغ فيها اسماعيل فى إكرامه والحفاوة به وغمره وحاشيته بالهدايا وقد حصل اسماعيل بوسائله هذه علي عدة فرمانات : (١)

١ - فرمان تغيير توارث العرش (٢٧ مايو ١٨٦٦) :

كان فرمان ١٨٤١ يقضى بأن يؤول عرش مصر إلي أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً .

وكانت نتيجة مساعى اسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ - وهو يقضى بإنتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن، ومصوع الى أكبر أولاده ومن هذا الي اكبر أبنائه وهكذا ، ونص فى الفرمان علي إمكان زيادة الجيش المصرى الى ٣٠,٠٠٠ جندى ، وأقر حق والى مصر فى ضرب النقود ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية وفي مقابل ذلك زيدت الجزيه السنوية من ٤٠٠,٠٠٠ جنيه عثمانى الى ٧٥٠,٠٠٠ جنيه أى للضعف تقريباً .

---

(١) مجموعة الفرمانات الشاهانية - وهى تحتوى على الفرمانات التركية الصادرة لولاة مصر .

وقد أبلغ الباب العالى الفرمان السابق للدول التي اشتركت فى إبرام معاهدة لندن ١٨٤٠ مما جعل له قوة المعاهدة الدولية .

وبالاضافة إلى ما تكبدته الخزانة المصرية للحصول على هذا الفرمان فإنه أثار روح الكراهية بين أسرة محمد على، من كان منهم يتطلع للحكم ومن أصبح من حقه حسب هذا الفرمان أن يتولى الحكم .

٢- لقب خديو (فرمان ٨ يونيه ١٨٦٧) :

حصل اسماعيل فى ٨ يونيه ١٨٦٧ علي لقب خديو له ولخلفائه وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية في إدارة شئونها الداخلية وحقها في عقد المعاهدات – وقد ظفر اسماعيل بهذا الفرمان مقابل مابذله من مال .

٣- فرمان ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ - وتقييد حق الخديو فى الإقتراض :

فترت العلاقات بين مصر والدولة العثمانية بسبب رغبة اسماعيل في الظهور بمظهر العاهل المستقل ، فمثلاً نجد اسماعيل يسافر الى أوربا لدعوة ملوكها لحفلات افتتاح قناة السويس دون أن يعمل للباب العالى إعتباراً . وبعد انفضاض حفلات القناة صدر فرمان فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ يقيد حق الخديو فى أن يقترض قروضاً جديدة دون أن يحصل على إذن مسبق من السلطان .

٤- فرمان سبتمبر ١٨٧٢ :

اشتدت حاجة اسماعيل للقروض – فسعى لتحسين علاقته بتركيا فسافر الي الاسيتانة فى صيف ١٨٧٢ ومعه اسماعيل صديق وزير ماليته ونجح فى إعادة المياه الى مجاريها .

فصدر في ١٠ سبتمبر ١٨٧٢ فرمان يثبت الإمتيازات السابقة التي حصل عليها – ويعيطة حق الإستدانه من الخارج دون قيد ، وكان من نتيجة صدور هذا الفرمان أن عقد قرضاً سنة ١٨٧٣ ,

٥- الفرمان الجامع (٨ يونيه ١٨٧٣) :

أراد اسماعيل أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التي نالتها مصر منذ تولية محمد علي حكم مصر بطريق التوراث الى ذلك العهد ، فقصد الاسيتانة فى صيف ١٨٧٣ واستطا ع عن طريق رشوة رجال الحكومة التركية أن يحصل فى ٨ يونية ١٨٧٣ على فرمان يثبت جميع المزايا الواردة في الفرمانات القديمة وغيرها فهذا الفرمان نص على :

١- توارث عرش مصرفى اكبر انجال الخديو وهكذا .

٢- حددت أملاك الخدوية المصرية بمصر ،وملحقاتها وقائم قاقيتى سواكن ومصوع وملحقاتها .

٣- حق الحكومة المصرية في سن القوانين على إختلاف أنواعها .

٤- حقها فى عقد المعاهدات التجارية والإتفاقات الجمركية .

٥- حق الاقتراض من الخارج دون إذن من الباب العالى .

٦ ـ حق زيادة الجيش .

٧- حق بناء السفن الحربية ماعدا المدرعات .

لكن كما سنرى أن الوئام لم يستمر بين مصر والباب العالى – فقد انتهزت الدول الأوربية الارتباك المالى فى مصر لتحقيق أطماعها فأوعرت للباب العالى بخلع اسماعيل وتعيين نجله توفيق باشا محله وقد خضعت تركيا لإرادة الدول الإوربية كما سنرى .

سياسة اسماعيل تجاه الدول الأوربية

اتجه اسماعيل الي التقرب للدول الأوربية ظناً منه أن هذا يجعلها تقف الي جانبه – وفي هذا كان موقف اسماعيل مغايراً لموقف محمد علي – ولذا فقد استعان اسماعيل بعدد كبير من الاجانب من مختلف الجنسيات على أمل أن يكسب دولهم الي جانبه .

وفيما يتعلق بفرنسا :

كان لها نفوذ كبير على اسماعيل – يرجع ذلك لتربيته الفرنسية وللسنوات التى قضاها في باريس ، وكذلك ساعدت علي إمتداد النفوذ الفرنسي في مصر صداقة الخديو اسماعيل للأمبراطور نابليون الثالث ، وقد رأينا أن اسماعيل قبل مقدماً حكمه في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس ، وظهر هذا النفوذ في استخدام اسماعيل لعدد كبير من الفرنسيين والإستعانة بهم في مشروعاته العمرانية وبلغ ذلك النفوذ أقصاه في حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، فقد رأست الإفتتاح الإمبراطورة (أوجيني) إمبراطورة فرنسا – على أن نفوذ فرنسا وسمعتها بدأت تهتز عقب الحروب السبعينيه (١٨٧٠ – ١٨٧١) التى انتصر فيها الالمان فتزلزلت هيبة فرنسا ، وكان من نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل .

وفيما يتعلق بانجلترا :

كان هناك تنافس كبير بين انجلترا وفرنسا علي كسب النفوذ في مصر ، واشتد هذا التنافس أثناء المشاكل المتعلقة بحفر قناة السويس – لكن هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية أفسح المجال أمام انجلترا ، فحين قامت الحوادث المرتبطة بالثورة العرابية سنة ١٨٨١ ـ اعتزمت انجلترا

إحتلال مصر . وكانت قد أخذت من مده تدعم نفوذها في مصر - فاوعزت الى الخديو اسماعيل أن يعين السيد صموئيل بيكر الرحالة الإنجليزي المعروف حاكماً لمديرية خط الإستواء ، ثم عمدت بعد أن إنتهت مدته لأن يخلفه غوردون باشا - كما عهد اسماعيل لعدد من الشركات الإنجليزية بتنفيذ المشروعات الهامة ، وانتهزت انجلترا الارتباك المالى الذى كان اسماعيل يُعانى منه فاشترت فى عام ١٨٧٥ اسهم مصر في القناة ، وفي ١٨٧٧ أوعزت لاسماعيل أن يعين غوردون باشا .(حكمداراً عاما) للسودان وكان أول أجنبى يصل لهذا المنصب الخطير - ووقفت انجلترا في وجه اسماعيل حين أرسل حملة الصومال لمد نفوذ مصر للأقاليم المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندى واتخاذ نقطة التوغل للداحل عن هذا الطريق - وعقدت مع اسماعيل معاهدة في عام ١٨٧٧ بشأن إبطال تجارة الرقيق ، اعترفت فيها انجلترا بسلطة مصر علي بلاد السومال الشمالية ، على أن انجلترا انتهزت فرصة الخلاف بين اسماعيل والدائنين لفرض رقابة على الميزانية المصرية وانتهي الأمر كما رأينا - بوجود وزيرين أجنبيين في الوزارة المصرية وأخيراً انتهى الأمر بعزل اسماعيل وتعيين توفيق .

ولم تهدأ انجلترا إلا بعد أن تم لها إحتلال مصر عام ١٨٨٢ ثم ضغطت على مصر لسحب قواتها من السودان والأقاليم الهامة المطلة على البحر الأحمر فاقتسمتها مع غيرها من الدولة الإستعمارية .

الإمتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة : (١)

كانت الإمتيازات الاجنبية في المبدأ منحه أعطتها تركيا لبعض الدول - إلاّ أنها تطورت واستفحل خطرها .

---

(١) للمزيد من المعلومات يرجع إلى :

عمر (بك) لطفى : الإمتيازات الأجنبية (١٣٢٢هـ)

ولم يكن للجاليات الأوربية في عهد محمد على وعباس أهمية ما ـ لكنهم نالوا شأناً عظيماً في عهد سعيد واسماعيل ، وبلغ عددهم فى سنة ١٨٧٩ مائة الف نسمة – وكان القناصل يتدخلون لتأييد مطالب رعاياهم ويكرهون سعيد باشا علي إجابتها .

وحسب أوضاع الأجانب فى تركيا :

١- لم يكن لهم حق امتلاك العقارات في بلاد السلطنة العثمانية .

٢- يرجع رعايا الدول الأجنبية فى شئونهم التجارية والمدنية والشخصية الى قناصلهم .

٣- تختص المحاكم العثمانية بنظر قضايا الأجانب المدنية والتجارية إذا كانت القضايا تمس صالح وطنى .

٤- تسرى أحكام القوانين العثمانية الخاصة بالعقوبات علي الرعايا الأجانب كما تسرى على الأهلين .

المحاكم القنصلية :

لما ضعفت الحكومة فى عصر سعيد ثم في عهد اسماعيل ـ نال الأجانب مزايا متعددة منها :

١- انتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترفة رعاياهم من جرائم .

٢- إلتزام الأهالى عندما يقاضون الأجانب أن يرفعوا دعاواهم أمام المحاكم القنصلية .

٣- أصبحت المحاكم القنصلية تفصل في القضايا التى يرفعها رعاياها على الأهالى .

٤- أصبحت هذه المحاكم القنصلية تفصل في القضايا التي يرفعها الرعايا الأجانب على الحكومة .

وقد ساءت الحالة من جراء انتقال السلطة القضائية - وهى ركن من أركان السياده الأهلية للبلد – الى المحاكم القنصلية .

وقد كان كل القضاء القنصلى يحكم طبقاً لقانون البلاد .

المحاكم المختلطة :

فكر اسماعيل فى إصلاح هذا الفساد - لكن بدلاً من أن يرجع السلطة للقضاء الأهلى – أعطى وزيره نوبار باشا سلطة مفاوضة الدولة الأوربية لإنشاء نظام قضائى مختلط بدلاً من القضاء القنصلى – وانتهى الأمر بالإتفاق فى عام ١٨٧٥ على إنشاء المحاكم المختلطة .

وأصبح من اختصاص هذه المحاكم المختلطة :

١- الفصل فى المنازعات المدنية بين المصريين والأجانب .

٢- الفصل فى المنازعات العقارية إذا كان أحد الطرفين من الأجانب .

٣- تفصل فى المسائل الجنائية والمخالفات البسيطة التى يقترفها الأجانب أما الجنح والجنايات التى تقع من الأجانب ، فقد بقيت من إختصاص المحاكم القنصلية .

وهذه المحاكم المختلطة هى محاكم قضاتها من الأجانب والمصريين القضاة الأجانب ، رأسة الجلسات – وقد أنشئت ثلاث محاكم مختلطة ابتدائية فى الاسكندرية ، وفى القاهرة ، وفي الاسماعلية (نقلت فيما بعد الى المنصورة . وأُنشئت محكمة استئناف فى الاسكندرية .

وقد افتتحت المحاكم المختلطة فى أول يناير سنة ١٨٧٦ – وأصبحت هذه المحاكم تنظر فى المنازعات التى تمس مصالح أى أجنبى ، وجعلت رآسة الجلسات للأجانب – فهو قضاء أجنبى بكل معانى الكلمة ، واللغة الأجنبية هى لغة المرافعات والأحكام – أما اللغة العربية لغة البلاد وأهلها وحكومتها – فلا وجود لها في تلك المحاكم .

وبذايمكن القول أن مصر خسرت بإنشاء القضاء المختلط إستقلالها التشريعى ، ولم يعد فى مقدور الحكومة المصرية أن تصدر قانوناً نافذاً على الأجانب - إلا اذا صدقت عليه الجمعية التشريعية للمحاكم المختلطة.

وهكذا أصبح هذا النظام لايمثل العدالة بل الهدف منه أولاً وقبل كل شئ رعاية المصالح الأجنبية وإهدار حقوق الوطنيين والدولة اذا تعارضت مع مصالح الأجانب وأطماعهم .

وقد ظلت هذه الأوضاع حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦ ، وتنفيذاً لهذه المعاهدة – دعت الحكومة المصرية الي عقد مؤتمر دولى فى (مونترو) بسويسرا حضره ممثلو حكومات الدول صاحبة الإمتيازات فى مصر، وقد عقد المؤتمر فى ١٢ ابريل١٩٣٧ وأصدر قرارته فى ٨ مايو من نفس العام بموافقة جميع الدول المشاركة على إلغاء الإمتيازات فى مصر الغاءً تاما ، وأن يخضع جميع الأجانب للقوانين المصرية دون تمييز ، وأن تصفى المحاكم المختلطة والقنصليه عملها وتؤول اختصاصاتها الى المحاكم الوطنية

مأساة الديون وتطورها(١)

الديون هى الجانب المظلم من تاريخ اسماعيل لانها المأساة التى انتهت بتصدع بناء الاستقلال ، وتدخل الدول فى شئون البلاد المالية والسياسية

(١) عن القروض - تاريخها ومقدارها يرجع إلى :

عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ الفصل الحادى عشر بعنوان (مأساة الديون) .

وقد كانت آفة اسماعيل الإسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر للعواقب .

وكان سعيد قد فتح باب الإقتراض وبلغ الدين العام عند وفاة سعيد باشا نحو ١١ مليون جنيه . (١)

وفي عام ١٨٦٤ اقترض اسماعيل أول قروضه – وتذرع لذلك بحاجة الحكومة الى المال لسداد أقساط ديون سعيد باشا ولمقاومة الطاعون البقرى .

وقد جد سبب آخر دعا اسماعيل الى عقد القرض الثاني وهو الأزمة المالية التي أعقبت هبوط أسعار القطن في عام ١٨٦٥ – فتراجعت أسعار القطن المصرى الى مستواها ، وفي عام ١٨٦٥ استدان اسماعيل من بنك أوبنهايم ورهن في مقابل ذلك إيرادات السكك الحديدية، واستغل معظم هذا القرض في بناء قصوره ولرشوة حكام الاستانه للحصول على فرمان الوراثه ، وفي سنه ١٨٦٧ اقترض اسماعيل قرضاً جديداً ليصرف على بناء قصوره (قصر عابدين ، والقبة والزعفران ، والجيزة ، والقصر العالى ، وسراي مصطفى باشا برمل الاسكندرية) .

وفي عام ١٨٦٨ أسندت وزارة المالية الى اسماعيل صديق باشا المشهور (بالمفتش) وبقى متقلداً وزارة المالية مدة طويلة ، وقد تفنن هذا الرجل في جمع المال من القروض أو من إرهاق الأهالى بمختلف أنواع الضرائب فكان الخديوى يجد ما يطلبه من المال كلما أراد ، وكان المفتش

---

(١) من أهم ما كتب عن الحالة المالية فى مصر فى عهد سعيد Histoire Financiere de L'Egypte (1851 - 1876) وهو لمؤلف مجهول .

يقتطع نصيبه من الغنيمة ، فأثرى ثراءً فاحشاً وقلد مولاه فى عيشة البذخ والإسراف والاستكثار من القصور والأملاك .

وتوالت قروض اسماعيل في سنتي ١٨٦٨ ، ١٨٧٠ – وقد وصلت الحالة المالية في هذه السنة الأخيرة (١٨٧٠) الي درجة كبيرة من السوء ، ونتيجة للحرب البسعينية بين فرنسا والمانيا – توقفت البيوت المالية العالمية عن الإقراض – فابتدع المفتش طريقة عجيبة ليحصل لسيده على المال فأصدر فى ٣٠ اغسطس ١٨٧١ القانون الذى عُرف باسم (قانون المقابلة) . (١)

وبموجب هذا القانون كان ملاك الآطيان يدفعون الضرائب المطلوبة على الأطيان لمدة ست سنوات مقدمًا فى مقابل أن تعفى الحكومة هذه الأطيان على الدوام من نصف المربوط عليها – وجعل هذا القانون دفع المقابلة اختيارياً، ولكن الحكومة لجأت في تنفيذه الى الضغط والاكراه والضرب ، ولولا ذلك لما إرتضي الناس المخاطرة بأموالهم لأنهم يعلمون مبلغ عهود الحكومة خاصة فى المسائل المالية – وقد إستطاعت الحكومة أن تجنى من هذه الضريبة خمسة ملايين جنية لغاية سنة ١٨٧١ . ووصلت بعد ذلك فى عام ١٨٧١ الى عشرة مليون جنية ونصفا ، وتوالت القروض بعد ذلك حتى أننا يمكن أن نقول أن الاقتراض أصبح (عادة سنوية) لم يستطع الخديوى التخلص منها .

وقد استنفدت فوائد الديون معظم دخل الخزانة ، فكانت ايرادات الحكومة لاتكاد تفى بفوائد الديون – وكان اسماعيل متلافاً للمال، ظهر

---

(١) للإطلاع على نص القانون يرجع الى :
ـ الوقائع المصرية العدد ٤٢٥ (٢٩ سبتمبر ١٨٧١)
ـ قاموس جلاد جـ ٣ (طبعة ١٩٠٠) ص ٦٢٥

ذلك بوضوح فى بناء قصوره وتأثيثها ، وتجميلها ، كما ظهر فى حفلاته وأفراحه ، ومراقصه ، وأهوائه ، وملزاته .

التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية

كانت النتيجة الحتمية لهذه القروض التى لم تقف عند حد من البيوت الأجنبية – أن استندت الدول على واجبها في حماية حقوق رعاياها فبدأت تتدخل فى شئون مصر المالية وكان معنى هذا التدخل السياسى .

وكانت بداية هذا بيع أسهم مصر في قناة السويس لإنجلترا في نوفمبر ١٨٧٥ مقابل أربعة ملايين من الجنيهات ولم يكن هذا المبلغ يُجدى فى إنقاذ الخزانة المصرية من الهاوية التي إنحدرت فيها .

بعثة كيف (Cave) :

فى عام ١٨٧٥ عرض اسماعيل على انجلترا إيفاد موظف مالى كفء يدرس حالة الحكومة المصرية المالية ، ويعاون وزير المالية المصرية فى إصلاح الخلل – ولبت الحكومة الإنجليزية نداء اسماعيل إذ وجدت في طلبه فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر .

وكان اسماعيل – كما يبدو – يعتقد أنه يستطيع التأثير على البعثة ليظفر بتقرير بأن حالة الخزانه المصرية تسمح بالثقة بها .

وجاءت البعثة الي مصر فى ديسمبر ١٨٧٥ وفحصت حالة المالية المصرية ولم يأتِ تقديرها كما يريد اسماعيل – فقد أشارت الى سوء الحالة المالية في مصر وإنه يرجع الي فداحة الشروط التى عقدت بها القروض المتوالية ، وإلى الإسراف فى وجوه لامنفعة منها – واقترحت

لإصلاح الحالة المالية المصرية أن تخضع للمشورة الأوربية بأن تنشئ الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها يرأسها شخص قدير بشرط أن يحترم الخديوى قرارت هذه المصلحة ولايعقد قرضا إلا بموافقتها . (١)

وترتب على بعثة كيف منافسة شديدة بين انجلترا وفرنسا .

وفى عام ١٨٧٦ توقف اسماعيل عن أداء اقساط الديون مما أدى لسخط الماليين الأوربيين- مما اضطر الخديوى لأن يطلب من وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه لضمان حقوقهم .

صندوق الدين (٢ مايو ١٨٧٦):

اقترح الدائنون الفرنسيون إنشاء (صندوق الدين) وتوحيد الديون ، وأصدر الخديو مرسوماً فى ٢ مايو بانشاء صندوق الدين وهو بمثابة خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المختلفة – وخصص لصندوق ايراد عدد مديرات ، وايراد السكك الحديدية ، ورسوم الدخان والكبارى ، وايراد أطيان الدائرة السنية وغيرها.

وتولى إدارة الصندوق مندوبون أجانب تنتدبهم الدول الدائنة وأُشترط الا تقترض الحكومة الا بموافقة أغلبية أعضاء الصندوق.

وهكذا أصبح هذا بمثابة (حكومة أجنبية داخل الحكومة) ، وأصدر الخديوى فى ٧مايو سنة ١٨٧٦ مشروعاً بتوحيد الديون .

---

(١) للأطلاع على التقدير كاملاً يرجع إلى :
Mac . Coan : Egypt as it is (1877) P : 393.

رقابة الثنائية :

لم تقتنع الحكومة الانجليزية بانشاء صندوق الدين والاجراءات الأخرى تى اتخذت – واقترحت فرض الرقابة الأوربية على المالية المصرية ووضع سكك الحديدية ، ميناء الاسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة وأضطر خديوى لإصدار مرسوم فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ بعرض الرقابة الأجنبية ى المالية المصرية ، وأن يتولاها مراقبان أحدهما (انجليزى) لمراقبة يرادات العامة للحكومة ، والثانى (فرنسى) لمراقبة المصروفات . ضى المرسوم بأن يبقى صندوق الدين كهيئة دائمة الى أن يسدد كامل ين العام ، وأسند المرسوم ادارة السكك الحديدية ، وميناء الاسكندرية ى التي رهنت إيراداتها لوفاء (الدين الممتاز) - الي لجنة مؤلفة من سة مديرين منهم اثنان انجليزيان واثنان مصريان وواحد فرنسي .

ونظام الرقابة الثنائية قد خول الرقيبين سلطة فى إدارة الحكومة الية – وهو أشبه مايكون (بالحجر) الذى يفرض من المجلس الحسبى ى الشخص الفاقد الأهلية لتغل سلطته عن التصرف فى أمواله ، نصب وصياً يتولى هذا عنه ، وقد جعلت الرقابة الثنائيه من الرقيبين روبين قواماً على الحكومة المصرية .

نة التحقيق العليا الأوربية (٢٧ يناير ١٨٧٨) :

رغم كل ما أتخذ من إجراءات - فإن أحوال الحكومة المصرية الماليه ارت من سيئ الى أسوأ وازدادت إرتباكًا – واتفق الرقيبان وأعضاء ندوق الدين – على المطالبة بتأليف (لجنة تحقيق أوربية) لفحص ئون الحكومة المالية والوصول الى اسباب العجز المستمر فى ميزان فوعات .

وأضطر الخديوى فى ٢٧يناير ١٨٧٨ لأن يصدر مرسوماً بتأليف هذه اللجنة ، وحددت مهتمها بأنها ستحقق في أسباب العجز فى أبواب الايرادات وأوجه النقص في القوانين الخاصة بالضرائب ووسائل إصلاحها، وأذن للجنة بالإتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع أقوال من ترى لزوم سماعه لجمع البيانات اللازمة لها .

وأخذت اللجنة تتولى مهمتها - وقد رفض شريف باشا وزير الحقانية والخارجية يومئذ - المثول أمام اللجنة وأضطر للاستقالة .

وقد وضعت اللجنة تقريراً يتضمن شرح الحالة المالية وعيوبها، وما تقترحه لإصلاحها - وطلبت اللجنة أن ينزل الخديوى عن أطيانه وأطيان عائلته ، وكما طلبت اللجنة أن ينزل الخديوى عن سلطته المطلقة ، وقد أضطر الخديوى لقبول مطالب اللجنة .

وهكذا وصل الضعف الذى أصاب مصر نتيجة السياسة المالية التي اتبعها اسماعيل والديون الباهظة التي اقترضها - الى أن أصبحت البلاد تحت رحمة الدائنين .

الوزارة المختلطة (بها وزيران أوروبيان) :

اتفقت انجلترا مع فرنسا على أن تستبدل مسألة الرقابة الثنائية بتأليف وزارة مختلطة يرأسها نوبار باشا، ويدخلها وزيران اوربيان أحدهما انجليزى للمالية ، والثانى فرنسى لوزارة الاشغال .

وفى ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ أصدر اسماعيل أمره بإنشاء (مجلس النظار) وتخويله مسئولية الحكم ، وعهد لنوبار باشا بتأليف الوزارة، ونص على أن (مجلس النظار) عبارة عن هيئة مستقلة عن ولى الأمر، وأعضاء المجلس متضامنون فى المسئولية ، وقراراتة بالأغلبية ويرأس مجلس النظار رئيس المجلس فلا يرأسه الخديوى .

اللائحة الوطنيه :

أدت الازمة المالية الي التدخل الأجنبي فى شئون مصر بالصورة التى رأيناها، فكان طبيعياً أن تزداد الحركة الوطنية قوة ، وكان اسماعيل بين نارين هل يُرضى الدول الأوربيية أم يرضى الإتجاه الوطنى ، وأمام التيار الوطنى أُضطر الخديوى لإقصاء الوزيرين الأجنبيين عن الوزارة ، على أن يُعيد الرقابة الثنائية علي مالية مصر ، وزعمت انجلترا وفرنسا انهما أكتسبتا هذا الحق - حق أن يكون لهما وزيران يمثلانهما فى الوزارة المصرية .

وكان خضوع الخديوى للقوى الوطنيه ، وقبول (اللائحة الوطنية) التى قدمها بعض الأحرار المصريين والتى تطالب بتأليف وزارة وطنية مسؤلية أمام مجلس نيابى علي نظام جديد ، ومانصت عليه اللائحة من أن البلاد ليست في حالة إفلاس - كما تدعي لجنة التحقيق الأجنبية، وأنها تستطيع القيام بتعهداتها المالية - سبباً للإصطدام بين الخديو اسماعيل والدائنين ودولهم .

وفى ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ أصدر الخديوى مرسوماً بتسوية الديون طبقا لما قررته اللائحة الوطنية - فكان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .

خلع إسماعيل :

رأت فرنسا وانجلترا أن الوقت قد حان ليضغطا على اسماعيل ليتنازل هو عن العرش من تلقاء نفسه اتباعاً لمشورتهما - ولكنه رفض الخضوع للضغط فاتجهت الدولتان للأسيتانه ليصدر السلطان أمراً بخلع الخديو اسماعيل إجابة لطلب الدول .

وقد رأينا أن الدولة العثمانية لم تكن تعطف على اسماعيل أوترضى منه نزعته الإستقلالية .

ولم تدرك تركيا النتائج الوخيمة التي تترتب علي الخضوع لهذا الضغط العجيب من الدول والتدخل فى شئون الدولة .

وفى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ أصدر السلطان إرادة بخلع اسماعيل وتنصيب توفيق باشا خديوياً لمصر .

وفى ٣٠ يونيه ١٨٧٩ غادر اسماعيل القاهرة الى الاسكندرية ثم غادرها على الباخرة المحروسة الي نابولى بايطاليا وقضى بها حتى عام ١٨٨٨ ، وفى ١٨٨٨ عاد الى الاسيتانة وظل بها حتى وافته المنية فى ٢ مارس عام ١٨٩٥ م .

مراجع

لمزيد من الدراسه

اولا مراجع عربيه او معربة :

١-ابراهيم فوزي باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر (جزءان)

٢ ـ إسماعيل (باشا) سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (جزءان) (١٣١٢هـ)

٣ ـ إلياس الأيوبي : تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل (١٩٢٣) جزءان

٤ ـ أمين سامى باشا : التعليم فى مصر (١٩٦٧) .

٥ ـ رودستين : تاريخ المسألة المصرية من ١٨٧٥ إلى ١٩١٠ (تعريب عبدالحميد العبادى)

٦ ـ شوقى الجمل : تاريخ سودان ووادى النيل وعلاقاته بمصر جـ ٢ (١٩٦٩)

٧ ـ عبدالرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جزءان

٨ ـ عبدالعزيز محمد الشناوى : قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بإنشائها

٩ ـ عمر لطفى (بك) : الأمتيازات الأجنبية (١٣٢٢هـ)

١٠ ـ فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء (٦ أجزاء)

١١ ـ محمد فريد (بك) : تاريخ الدولة العليا العثمانية .

ثانياً : مراجع اجنبية :

1 - Bell Moberli : Khedives and Pachas (1884)

2 - Coan,Mac. : Egypt as it is (1877)

3 - Coan , Mac : Egypt under Ismail (1889)

4 - De Lesseps, Ferdinand: Letters,Journals et Documents Pour Servir a` l'histoire du Canalde Suez.(1885=1881)

5 - Edwin de Leon : The Khedive`s Egypt (1877).

6 Milner,Lord : Engla nd in Egypt (1893).

7 - Histoire Financiere De l'Egypt (المؤلف مجهول).

8 - Nicole : l'inauguration du Canal de Suez (1869).

9 - Lesiage , Charles : L'invasion Anglaise en Egypte , l'achat des action de Suez (1906)

10 - Rowx , Charles: l'ischme et Le Canal de Suez (1901).

الفصل السادس
الحركة الوطنية المصرية فى مواجهة التدخل الاوربى

تطورات هذه الحركة – وموقف الدول الأوربية والحكام منها والنتائج التي اسفرت عنها الحركة .

اولا – الثورة العرابية (١٨٧٩ ـ ١٨٨٢)

– أسبابها

– مراحلها

– اسباب فشلها

– ثانيا: الاحتلال البريطانى لمصر.

– ثالثا : مصر من الاحتلال إلى الثورة (١٨٨٢ ـ ١٩١٩)

ـ مصطفى كامل باشا الحركة الوطنية الحديثة .

– رابعا : ثورة ١٩١٩:

أوضاع مصر قبل الثورة .

–العناصر التى شاركت في الثورة .

– احداث الثورة .

– محاولات انجلترا لاحتوائها.

– تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

خامسا: ثورة ١٩٥٢:

– اوضاع مصر فى الفترة بين الثورتين .

– اسباب قيام الثورة

– ماحققته الثورة

– تقييم لثورة يوليو ١٩٥٢

– مراجع للمزيد من التفصيلات

اولا : الثورة العرابية

رأينا كيف ثار المصريون على الغزو الفرنسي لبلادهم وخيبوا ظن نابليون في أنه يستطيع أن يضوى المصريين تحت لوائه ، فكانت ثورة القاهرة الأولي ، وثورة القاهرة الثانية ، وثورات الأقاليم .

وأدت يقظة المصرين فى ذلك الوقت الى وقوفهم مع محمد علي فولوه بإرادتهم ليحقق لهم ماكانوا ينتظرونه من حاكم اختاروه هم .

كذلك كان موقف المصريين من حملة فريزر سنة ١٨٠٧ دليلاً علي هذه القوة التى بدأت تظهر وتواجه محاولات الإستعمار لبسط نفوذة على البلاد .

لكن محمد علي – للأسف – قضى على هذه القوة الوطنية ضمن العصبيات التي قضى عليها .

علي أن المجتمع رغم ذلك بدأ يتطور ، وبرزت حركة اليقظة الفكرية التي تقدمها أعضاء البعثات العلمية مثل رفاعه الطهطاوى ، ورجال الفكر الاسلامي من أمثال جمال الدين الأفغاني [(١)] ومحمد عبده . [(٢)]

وكان التدخل الأجنبى فى شئون مصر فى عهد سعيد ثم فى عهد اسماعيل واستغلال الأزمة المالية ومأساة الديون للتدخل السياسى فى شئون مصر مما دفع الحركة الوطنية للظهور خاصة إذا اسمحت الظروف لظهور زعيم أو أكثر يتقدم الصفوف ويواجه ببسالة قوي الإستعمار

---

(١) جاء جمال الدين الافغانى (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) الى مصر فى عهد إسماعيل (١٨٧١) وأشترك فى الثورة العرابية فنفى فى أغسطس عام ١٨٧٩ وقضى فترة فى باريس وأصدر فى باريس مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدةالعروة الوثقى وتوفى بالاسيتانة فى ٩ مارس ١٨٩٧ ـ أنظر عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٤٨ وما عندما

(٢) عن حياة محمد عبده ـ انظر محمد رشيد رضا : تابع الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

وسنمر سريعاً على بعض مراحل ومظاهر هذه الحركة الوطنية .

ولعل الثورة العرابية فى مقدمة الإنتفاضات المصرية في العهد الحديث.

<u>وألاسباب التى ساعدت على قيام الثورة تتلخص فيما يلى :</u>

١- المؤثرات الحضارية الغربية التى أثرت في المجتمع المصري نتيجة الحملة الفرنسية على مصر والبعثات العلمية الى أوربا .

٢- المدارس التى فتحت لتعليم المصريين طبقا للنظام الغربي - فتحت الأزهان والعقول الى حقوق المواطنين في الدول المتقدمة ، وقد تطور الأمر الى المطالبة بدستور وبحكم نيابي - كما رأينا في عصر اسماعيل .

٣- الأطما ع الأجنبية فى مصر والتى برزت منذ الحملة الفرنسية علي مصر وخاصة بعد أن تفتحت أعين انجلترا بالذات لأهمية موقع مصر في الطريق للهند

وانتهاز هؤلاء الأجانب للظروف التى مرت بها مصر للتدخل فى شئونها .

٤- برزت طبقة من طلبة العلم وطلبة جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وكان إنتقالهم الي بلادهم أيام العطلات فرصة لنشر الوعى بين الوطنيين .

٥ ـ ظهور جماعة نعسكريين المصريين السأخطين على الحالة الراهنة للبلاد ، واستنثار الأتراك والشراكسة بالمراكز الرئيسية ومعاملتهم السيئة لهم - وكان وصول هؤلاء الشراكسة للمراكز الرئيسية في الجيش قائماً لا علي أساس تفوق حربي ـ لكن على أساس عنصرى فحسب .

٦- الزج بالجيش المصري في حروب لا طائل من تحتها، كما حدث في حروب الجيش فى عهد اسماعيل .

٧ - تأسيس الجمعيات السرية لمحاربة الإستعمار والحكم المطلق - ففى عام ١٨٧٦ أسست (جمعية مصر الفتاة) وقد انضم لها أحمد عرابى فيما بعد ، كما ظهر (الحزب الوطنى) وكانت بداية جماعه الأحرار التى اجتمعت في دار السيد علي البكرى - نقيب الأشراف ثم في منزل اسماعيل راغب باشا رئيس مجلس شورى النواب للمطالبة بإسقاط الوزارة الأوربية وتسوية المشاكل المالية التى ورطت البلاد فى مشاكل سياسية عديدة .

٨- ظهور بعض الصحف الوطنية (صحيفة أبو نظاره) التي كانت تعبر عن رأي الوطنيين وتحمل على الإمتيازات الأجنبية والتدخل الأجنبي ، وتحكم الأتراك والشراكسة في الجيش ، وتطالب بفتح باب الترقى أمام الضباط المصريين - وقد اغلقت السلطات الحاكمة الجريدة ونفت صاحبها الي باريس فكانت تصدر في المنفى وتهرب الي مصر.

٩- الإستغناء عن العسكريين - والتجاء وزارة نوبار في فبراير ١٨٧٩ الي إحالة عدد من الضباط الي المعاش بحجة عجز ميزانية الدولة والرغبة فى الإقتصاد .

المراحل التى مرت بها الثورة :

١- حدث تقارب بين الجناحين العسكرى الذي تمثله جمعية مصر الفتاة، وبين الجناح الآخر الذى يمثله الحزب الوطنى - وقد بدأ الحزبان السريان يعلنان عن نفسيهما ويدعوان لعقد إجتماعات لدراسة الأوضاع القائمة فى البلاد .

٢- في ابريل ١٨٧٩ عقد مؤتمر حضره عدد من ضباط الجيش وعدد من رجال الدين على رأسهم شيخ الجامع الأزهر ، وقاضى القضاء وبطريرك الأقباط ، وعدد من أعضاء مجلس شورى النواب - وأسفر الإجتماع عن الاتفاق على المطالب التى تقدموا بها للخديوى اسماعيل وتتلخص في :

أ- منح مجلس الشوري النواب سلطات المجالس النيابية في الدول المتقدمة .

ب - تعديل قادة الإنتخابات لهذا المجلس ليكون أصدق تمثيلاً للأمة

جـ - تشكيل وزارة مصرية حميمة .

٣- تولي محمد توفيق باشا الحكم في ٢٦ يونية ١٨٧٩ وقد أظهر في أول الأمر عطفه علي الأماني الوطنية لتهدئة الحركة الي أن تتهيأ له الظروف للقضاء عليها - لكنه لم يلبث أن ألغى مشروع اللائحة الأساسية لمجلس النواب ، واعاد المراقبة الثنائيه ، وأغلق الصحف الوطنية لإسكات الأصوات الحرة - وبدأ يحكم حكما إستبدادياً مطلقا .

٤- أجمع العسكريون علي زعامة أحمد عرابي وطلبوا منه أن يتقدم الصفوف ويعبر عن رأيهم - هكذا انعقد لواء الزعامة لأحمد عرالى وبدأ الصدام بين الوطنيين العسكريين والخديوي وتمثل ذلك في حادث قصر النيل .

وفى منتصف يناير سنة ١٨٨١ ذهب أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى الي وزارة الداخلية لتقديم عريضة بأسم ضباط الجيش اليرئيس النظار (رياض باشا) .

وقد طالبوا فى عريضتهم إقالة (عثمان رفقى) ناظر الجهادية كما طالبوا ببعض الإصلاحات المتعلقة بنظام الجيش - فأمر الخديوى بالقبض على هؤلاء الزعماء الثلاثة وتقديمهم للمحاكمة أمام مجلس عسكرى وتم تنفيذ أمر الاعتقال واودعوا قاعة السجن بقصر النيل .

٥ -الهجوم على قصر النيل :

عندما علم رجال الجيش بهذا النبأ زحفوا على قصر النيل حيث السجن العسكرى وأخرجوا عرابى وزميليه عنوة ، وتوجه الجميع الي

قصر عابدين مجددين مطالبهم السابقة - فلم يكن أمام الخديوي إلا الاستجابة لهذه المطالب - فعزل (عثمان رفقى) ، وعين (محمد سامي البارودي) بدلاً منه .

وكانت لهذا الانتصار نتائج خطيرة فقد أدي الى :

أ - زيادة ثقة العسكريين بأنفسهم فدفعهم هذا النصر ليخطوا خطوة أخرى ، فبدلاً من تقديم مطالب محدودة خاصة بالجيش - اعتبروا أنفسهم مسئولين عن مطالب الأمة .

ب - تعلقت الجماهير بعرابى وزملائه ونظروا لهم على أنهم أبطال يمكن أن يقودوا الوطن في كفاحه الوطني والمطالبة بحقوقه .

جـ - تبلورت الحركة بعد ذلك الى المطالبة بحياة نيابية سليمة ومقاومة التغلغل الأجنبى فى البلاد بمظاهره المختلفة .

٦- المظاهرة العسكرية في ميدان عابدين :

حدث تطور آخر حين استقر رأى الوطنيين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ على أن يذهب عرابى على رأس قوات من الجيش الى ساحة عابدين لتقديم مطالب الأمة ، وتتلخص فى إقامة حياة نيابية دستورية ، ووضع حد لإزدياد التدخل الأجنبي .

ذهب عرابى الي ساحه عابدين بفرقته العسكرية ومن خلفه الألاف من الوطنيين ، ونزل الخديوي ويرفقته القنصل الإنجليزى والمراقب المالى البريطانى والجنرال (ستون) رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى وبعض الضباط .

وتقدم عرابى للخديوى بمطالب الشعب وهى :

أ - إسقاط الحكومة المستبده برئاسة رياض باشا .

ب - تشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى .

واشتد الحوار بين الخديوى ، وعرابى – فلما أعلن الخديوي لعرابى إنه ورث ملك هذه البلاد عن أبائه وأجداده وماهم الإعبيد إحساناته – كان رد عرابى جريئاً وحاسماً فقد قال للخديوى " لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً فوالله الذي لا اله إلا هو إننا سوف لانورث ولانُستعبد بعد اليوم " (١)

وأضطر الخديوي أن يحني رأسه مؤقتا للعاصفة فوافق على مطالب الأمة والجيش – واسند الى شريف باشا وهو من كبار أقطاب الحزب الوطنى – أمر تشكيل الوزارة .(٢)

وقبل شريف هذه المهمة فألف فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ الوزارة علي شرط أن يسحب عرابى وعبد العال حلمى قواتهما الي الشرقية ليتيح ذلك للوزارة فرصة العمل بعيداً عن ضغط الجيش .(٣)

وحاول الخديوي أن يستغل ذلك فى الوقيعة بين الحزبين الوطنيين لكن عرابى فوت عليه هذه الفرصة فترك هو وزملاؤه القاهرة – وأجريت الإنتخابات لمجلس النواب الجديد وأفتتح المجلس فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ حيث عرض عليه شريف باشا اللائحة الاساسية .

وقد ثار جدل حول حق المجلس فى نظر الميزانية ، فقد كان شريف باشا يرى أن مناقشة المجلس للميزانية سيترتب عليها الإصطدام بالدول الأوربية .

---

(١) مذاكرات عرابى ص ٢٣٦

وكذلك - Blunt,w : Secret History of The British Occupation Of Egypt (1907) P.11

(٢) هذه هى ثالث مرة يتولى فيها شريف باشا الوزارة

(٣) أورد عبدالرحمن الرافعى أسماء أعضاء المجلس فى كتابه الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى (١٩٣٧) ص ١٧٥ وما بعدها

٦- ارأدت بريطانيا وفرنسا تعضيد مركز الخديوى من الحركة الوطنية فارسلتا فى ٧ يناير ١٨٨٢ (المذكرة المشتركة) التي أيدتا فيها رغبتهما الصريحة في حل مجلس النواب وتأييدهما التام لموقف الخديو ومساندته في موقفه من الحركة الوطنية .

وأدى هذا لزيادة التوتر ، وأضطر شريف باشا للإستقالة ، وتولى (محمود سامي البارودى) رئاسة الوزراة وأسندت نظاره الحربية والبحرية الى عرابى ومحمود فهمى وقد صدر المرسوم بتأليف الوزارة الجديدة فى ٤ فبراير عام ١٨٨٢ واسرعت الوزارة الجديدة باصدار اللائحة الأساسية (الدستور) التى نصت على مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب ، كما نصت علي حق المجلس فى مناقشة الميزانية واقرارها . (١)

٧- أكتشفت مؤامرة من الضباط الشراكسة للإطاحة بالوزارة الجديدة وأدى ذلك الى محاكمة المشتركين في المؤامرة ورفض الخديوى التصديق على الأحكام التى صدرت بإدانة الضباط المتآمرين والحكم علهيم بالنفى الى اقاصى السودان وأدى هذا لزيادة التوتربين الوزارة والخديوى .

ونجح الخديوى فى إيجاد ثغرة بين الحزب العسكري وبين الحزب الوطنى الذى كان يري الإعتدال فى المطالب .

وتدخلت بريطانيا وفرنسا مرة ثانية لمساندة الخديوى أمام العسكريين فأرسلت قطعاً من اسطولهما الى الاسكندرية ، كما أرسلت الدولتان (المذكرة المشتركة الثانية) فس ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ تطالبان فيها بإقالة البارودى ، وابعاد عرابي وزملائه عن البلاد . (٢)

(١) صدر هذا الدستور فى ٧ فبراير ١٨٨٢

(٢) نص هذه المذكرة - ورد بالفرنسية فى الكتاب الأصفر - وثيقة رقم ١٣٩ سنة ١٨٨٢

ثانياً : الأحتلال البريطانى لمصر
(١٨٨٢)

وجدت بريطانيا الفرصة سانحة لتحقيق أحلامها فى فرض حمايتها على مصر منتهزة بعض الأحداث الداخلية التى زادها اشتعالا ـ التدخل الأجنبى فى شئون البلاد .

فقد استقالت وزارة البارودى احتجاجًا على المذكرة المشتركة ، وحاصر الأسطولان الإنجليزى والفرنسى الشواطئ المصرية مما أدى الى إضطراب الأحوال والإصطدام بين الأجانب والمواطنين .

ففى ١١ يونية ١٨٨٢ حدث خلاف عادى بين أحد الرعايا الإنجليز (مالطى) وأحد الأهالى ، وتطور النزاع حين أطلق المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث النار على الأهالى ، فوقع عدد من القتلى من الطرفين .

وتتالت الأحداث فقد إجتمع بالاسكندرية قناصل الدول الأجنبية ، كما سافر الخديوى إلى الإسكندرية بحجة تهدئة الخواطر .

وفى ٢٠ يونية ١٨٨٢ كلف الخديو إسماعيل راغب باشا بتأليف الوزارة بعد أن لبثت البلاد منذ ٢٧ مايو بعد إستقالة وزارة البارودى بلا وزارة .

وقد سعت الوزارة لتهدئة الخواطر فألفت لجنة مختلطة لإجراء تحقيق فى حوادث ١١ يونية ـ لكن انجلترا بالذات سعت لعرقلة الجهود المبذولة لإحتواء الأزمة .

---

(١) إختلفت الآراء حول عدد القتلى ، ولعل القريب للصواب هو ما ذكره سليم خليل نقاش من أن عدد القتلى ٣٨ من الأجانب ، ١١ من المصريين ، والجرحى ٣٦ من الأجانب ، ٣٣ من المصريين سليم خليل نقاش : مرجع سابق جـ ٥ ص ١٦ .

واجتمع ممثلو الدول العظمى بالاستانة على هيئة مؤتمر للنظر فيما سموه (المسألة المصرية) - وعلى الرغم من أن المؤتمر قرر أن ترسل تركيا قوة لإعادة الأمن والنظام لمصر وعدم تدخل الدول الأجنبية فى شئون مصر - لكن إنجلترا كانت تُبيت أمراً، فقد كانت تستعد لضرب الاسكندرية بالقنابل - فأوعزت الى الأميرال (سيمور) قائد الأسطول البريطانى بأن يختلق الوسيلة ليستند عليها فى ضرب الإسكندرية بالقنابل ، فما كان من القائد البريطانى إلا أن ارسل فى أول يولية سنة ١٨٨٢ الى حكومته يذكر إنه إكتشف أن المصريين يقومون بعمل ترميمات فى حصون الاسكندرية وتركيب بطاريات جديدة مما يؤكد أنهم يستعدون لمحاربة أساطيل الدول الأجنبية .

ورغم أن قائد الأسطول الفرنسى أبلغ حكومته بأنه لم يشاهد أية ترميمات تبرر مشاركة انجلترا فى عملها العدوانى ضد مصر - فإن إنجلترا استمرت فى تنفيذ خطتها .

وفى ١٠ يولية أرسل الأميرسيمور الي طُلبة باشا عصمت (قومندان) الإسكندرية إنذاراً يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين ، وعلى ساحل ميناء الإسكندرية الجنوبى - وإلا فإنه سيبدأ بضرب هذه الحصون فى غضون أربع وعشرين ساعة .(١)

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب - وقد استمر الضرب أكثر من عشر ساعات

---

(١) جاء نص هذا الإنذار فى الكتاب الأزرق البريطانى عن حوادث مصر سنة ١٨٨٢ مجموعة رقم ١٦ وثيقة رقم ٦٥٥ .

وأستأنفت بعض بوارج الأسطول ضربها لطابية قايتباى يوم ١٢ يولية سنة ١٨٨٢ ولم تسكت مدافع الأسطول الا بعد أن دكت حصون الإسكندرية ، وقد شب حريق هائل فى الإسكندرية واستمرت النار مشتعلة فى المدينة حتى اليوم التالى ، وقد ذكر بعض الكتاب إن الحرائق الأولى كانت بفعل قنابل الأسطول الإنجليزى - لكن البعض ذكر أن العرابيين هم الذين اضمروا الحريق لتعطيل نزول البريطانيين للبر ، وقد ثبت أن الحريق لم يُعوق نزول البريطانيين للبر .

وقد قرر الخديوى الأعتصام بسراى رأس التين حيث زاره قائد الأسطول البريطانى الأميرال سيمور وأكد له حرص انجلترا على حماية حياته - بينما قرر العرابيون ترك الإسكندرية والإنسحاب الى كفر الدوار وإنشاء الإستحاكامات هناك لمواجهة زحف الجيش البريطانى .

والغريب أن فرنسا لم تحرك ساكناً - بل تركت إنجلترا تفعل ما تشاء وأمرت (فرنسا) أسطولها بمغادرة الإسكندرية قبيل الضرب .

وفى الأسيتانة إجتمع ممثلو الدول الأوربية فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ - لا لبحث مسألة الإعتداء البريطانى على مصر - لكن لبحث أمر قناة السويس خشية أن يُقدم العرابيون على سد القناة بعد ضرب الإسكندرية.

العداء بين الخديوى وعرابى :

أرسل الخديو ، فى يوم ١٧ يوليه الى عرابى بكفر الدوار يأمره بالكف عن إستعداداته الحربية ، وأن يحضر الى سراى رأس التين لتلقى تعليماته - لكن عرابى رد ببرقية للخديو شارحاً الأسباب التى تُوجب الإستمرار فى الدفاع ، كما أرسل (عرابى) الى جميع المديريات والمحافظات برقيات إتهم فيها الخديوى بممالأة الأنجليز .

ودعا عرابى الى عقد (جمعية عمومية) من الأعيان والعلماء لعرض الوضع عليها .[1]

وفى مساء يوم ١٧ يولية ١٨٨٢ إجتمع بالقاهرة ما يقرب من أربعمائة عضو منهم الأمراء ، وشيخ الإسلام ، وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار المصرية ، وكبار العلماء والمديرون ، والقضاة والتجار ـ وتناقشوا فى الوضع ـ وقرروا أنه يلزم الأستمرار فى الإستعدادات الحربية طالما أن عساكر الإنجليز فى مدينة الإسكندرية ومراكبهم فى مياهها وكونوا من بينهم وفداً أطلق عليه (مجلس إدارة الحكومة أو المجلس القومى) يجتمع يوميا بوزارة الحربية برئاسة يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية ليتخذ ما يراه من قرارات إذ كان مجلس الوزراء بالإسكندرية فانقطعت صلتة بالمديريات والمحافظات .

أما الخديو فقد أصدر أمراً فى ٣٠ يوليه ١٨٨٢ بعزل عرابى من وزارة الحربية وتعيين عمر باشا لطفى محافظ الإسكندرية مكانه .

ولم يكترث عرابى بقرار الخديوى وأرسل الى يعقوب سامى باشا يدعوه الى عقد الجمعية العمومية ثانية للنظر فى أمر عزله ـ ولما إجتمعت الجمعية العمومية تلى الشيخ محمد عبده عليها الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدرها عرابى ـ وقد أصدر المجلس قراراً بعدم عزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ، ووقف ما يصدر من أوامر من الخديوى ونظاره الموجودين معه فى الإسكندرية [2]

---

(١) انظر الوقائع المصرية عدد ١٨ يولية ١٨٨٢

(٢) للإطلاع على قرار الجمعية العمومية يُرجع الى : الوقائع المصرية عدد ٣١ يولية ١٨٨٢ .

المعارك في الميدان الغربي (بين الإسكندرية وكفر الدوار):

ظل الإنجليز في الإسكندرية ينتظرون وصول المدد الذي طلبوه ، وفي ٢١ د ا ية أصدرت ملكة إنجلترا (الملكة فيكتوريا) أمراً بتعيين الجنرال سيرجارنت ولسي (Garnet Wolsely)قائداً عاماً للحركة على مصر ، وقد أستقر رأي وزارة الحربية البريطانية على الزحف على القاهرة عن طريق الإسماعيلية ، وأن تُتخذ الإسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة - وليس عن الطريق البري .

<u>ولعل الأسباب التي دعت الإنجليز لاتخاذ هذا القرار :</u>

١ - الإسماعيلية هي في منتصف الطريق بين بور سعيد ، والسويس فهي أنسب مكان لنزول الجنود الآتية سواء عن طريق البحر المتوسط أو من الهند عن طريق البحر الأحمر .

٢ - الخط بين الإسماعيلية والقاهرة لا يزيد عن ١٥٩ كيلو متراً في حين أن الخط بين الإسكندرية والقاهرة يبلغ ٢٠٨ كيلو متراً .

٣ - يغمر فيضان النيل الدلتا في شهور أغسطس ، وسبتمبر ، وأكتوبر مما يعوق الحركات الحربية فيها .

٤ - الصحراء بين الإسماعيليةوالقاهرة أنسب من الدلتا للزحف .

٥ - الزحف من الإسماعيلية يحمي قناة السويس ، وبحيرة التمساح .

هذا على ان القائد البريطاني جعل هذا الأمر في حيز الكتمان بل أوهم أنه سيتخذ الإسكندرية قاعدة للزحف - لينشغل العرابيون في تحصين مواقعهم في الغرب .

هذا وقد وضع (محمود باشا فهمى) الذى عيّنه عرابى رئيساً لأركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الإسكندرية خطة حكيمة تقضى بتخصيص خمسة مواقع للدفاع وتحصينها - الأول فى كفر الدوار، والثانى فى رشيد، والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس، والرابع فى دمياط، والخامس فى الصالحية والتل الكبير.

كما أشار فى بداية الحرب بسد ترعة الإسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة الى بورسعيد والإسماعيلية، والسويس، وسد قناة السويس ذاتها لمنع الإنجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية.

لكن عرابى لم يسمع لنصيحة محمود باشا فهمى وصرح بأن الإنجليز لابد أن يحترموا حياد القناة فلا يتخذونها قاعدة عسكرية.

وقد وقع عرابى فى خطأ جسيم فقد عُنى بإنشاء الإستحكامات المنيعة فى شرق القناة وأهمل الميدان المغربى.

وحدثت معركتان بين الإنجليز ومقدمة الجيش المصرى، الأولى فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ فى الرمل والثانية فى ١٧ أغسطس ١٨٨٢ قرب كفر الدوار، وقد استمر ورود الإمدادات للإنجليز فى الإسكندرية من مالطة، وقبرص، وجبل طارق وإنجلترا ذاتها.

وقد أصدر الخديوى فى ١٧ أغسطس ١٨٨٢ منشوراً حذر فيه المصريين من الإنضمام الى عرابى وأظهره بمظهر العاصى لأوامره.

ولم يزد عدد جيش المصرى النظامى المشترك فى المعارك عن ١٩٫٠٠٠ مقاتل موزعين بين المواقع المختلفة (١)

---

(١) إحصاء بلنت : التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر (تعريب جريدة البلاغ سنة ١٩٠٧) ص ٢٨٧

وتجدد القتال بين الأنجليز والمصريين بين الإسكندرية وكفر الدوار في أيام ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ ولم يستطع الإنجليز اختراق خطوط دفاع العرابيين .

وفي الوقت الذي نشر فيه العرابيون الخطب ، والمنشوات [١] والمقالات لحض المصريين على مقاومة الغزو الانجليزي لبلادهم - نجد الخديو يصدر المنشورات يحذر فيها المصريين من الإنضمام الى عرابي ويدعو الخديو الضباط لإطاعة أوامر الجنرال ولسلي الذي يعمل بتصريح من الخديو لحفظ الأمن في البلاد .

المعارك في الميدان الشرقي :

وصل الجنرال وسلي الى الإسكندرية في ١٥ أغـــسطس ١٨٨٢ ، وبمجرد وصوله أخذ يُعد العدة لتحقيق الخطة التي وضُعت للزحف صوب القاهرة من ناحية قناة السويس .

وكان عرابي قد أهمل الدفاع عن البلاد من ناحية الشرق ، ورفض فكرة سد قناة السويس رغم أنه قد عقد مجلساً عسكريا في أواخر يولية للنظر في أمر القناة ، وقد أجمع المجلس على وجوب تعطيلها حتى لا يستطيع الجيش الإنجليزي إجتيازها - ورضخ لنصيحة دليسبس الذي طمأنه الى أن الإنجليز لا يمكن أن يقُدموا على إستخدام القناة وأنه المسئول عن ذلك، ولم يفكر عرابي في سد القناة إلا بعد إن كانت الفرصة قد فاتت وإجتازت السفن الإنجليزية القناة مقلة الجنود والمعدات الحربية حتى وصلت الى الإسماعيلية واحتلتها .

(١) سليم خليل نقاش : مصر المصريين مرجع سابق جـ ٥ ص.١٩٤ .

(٢) الكتاب الأزرق البريطاني سنة ١٨٨٢ مجموعة ١٧ ص ٤١ وثيقة ٨٩ .

وفى ذلك يقول جوننبيه (John Ninent) صديق عرابى وشاهد عيان :

"إن بساطة عرابى جعلته يرتكب أغلاطاً كبيرة ، ظهرت عواقبها فيما بعد، فبمقدار ما بذل من الهمة فى الدفاع عن الإسكندرية وتحصين خطوط الدفاع فى كفر الدوار بحيث إمتنعت على الإنجليز - قد أظهر منذ البداية غفلة بالغة فى الميدان الشرقى إذ استمع الى النصائح الكاذبة التى خدعه بها المسيو فرديناند دليسبس حين زعم أن الإنجليز لا يمكن أن يتعرضوا للعمل الفرنسى ، فامتنع عرابى عن سد القناة فى الوقت المناسب ، واستمسك برأيه رغم ماكانت تمنحه الخطة من الميزة الحربية ورغم ما إرتأه زملاؤه ، وما إرتأيته أنا وكررته عشرات مرات ، تارة بالقول القارص ، وطوراً بالكتابة فى وجوب سد القناة ، ورغم كل ذلك أصر عرابى على رأيه ، فمهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف فى تاريخ المعارك " (١) .

ولم يكتف الإنجليز بإحتلال القناة وإتخاذ الإسماعيلية قاعدة لزحفهم بل إستعانوا ببعض ضعاف النفوس من أمثال سلطان باشا لرشوة البدو القاطنين غربى القناة بين الإسماعيلية ورأس الوادى والصالحية ، وكان سلطان باشا - يُرافق الجيش الإنجليزى الزاحف - نائباً عن الخديو ليقدم له كل التسهيلات اللازمة .

وقد وصل الجنرال ولسلى الى الإسماعيلية فى ٢١ أغسطس ١٨٨٢ ، وفى يوم ٢٢ أغسطس وصل المدد الذى طلبه القائد الإنجليزى من الهند الى السويس - ووضع الإنجليز أيديهم على سكة الحديد بين الإسماعيلية والسويس وسيطروا على ترعة المياه العذبة بين المدينتين .وبعد إحتلال

(١) Ninet , John : Arabi Pacha (1884) P . 105

الإسماعيلية - إحتل الإنجليز (نفيشة) ، و(المحسمة) الواقعة للغرب منها ، وفى ٢٦ أغسطس أحتلوا (القصاصين) ، وصاروا على مسافة خمسة عشر كيلو متراً فقط من التل الكبير ، ووقع محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى أسيراً فى يد الإنجليز ، وكان أسره ضربة عنيفة أصابت الدفاع الوطنى .

أما عرابى فبعد أن أدرك نية الإنجليز فى الزحف على القاهرة من ناحية الشرق - إنتقل الى معسكر التل الكبير ومعه جماعة من ضباطه ، وبصحبته عبدالله النديم - خطيب الثورة العرابية .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ هاجم المصريون الانجليز في القصاصين - لكن إستطاع الفرسان البريطانيون صدهم .

وفى سبتمبر ١٨٨٢ هاجم المصريون الإنجليز فى القصاصين للمرة الثانية ، لكن - كما ظهر فيما بعد - نجح الإنجليز فى رشوة أحد قادة عرابى وهو (على بك يوسف خنفس) فأطلعهم على الخطة الموضوعة للهجوم ، كما نجح بعض أتباع الإنجليز فى تضليل إحدى الفرق التي كان يقودها محمود سامى باشا البارودى فلم تصل ميدان المعركة فى الوقت المناسب - وإنتهت المعركة بهزيمة منكرة للعرابيين ، وجرح فيها القائدان راشد باشا حسنى ، وعلى فهمى .

وفى فجر يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ هاجمت القوات الإنجليزية خطوط الدفاع المصرية فى التل الكبير ، وكان عدد القوات المصرية بها لا يزيد عن عشرة الآف جندى ، وقد عهد عرابى بالقيادة فى التل الكبير لعلى باشا الروبى ، وقد إتخذ الإنجليز مرشدين وعيوناً لهم ممن اشتروا ذممهم وممن إستطاع محمد باشا أبو سلطان رئيس مجلس النواب أن

يُسخرهم فى خدمة الجيش الغازى - فكانت معركة التل الكبير سلسلة من الخيانات والفضائح انتهت بهزيمة الجيش المصرى .

واتجه عرابى الى العاصمة حيث كان (المجلس العرفى) مجتمعاً وقد استقر رأى المجتمعين على التسليم وكتابة عريضة الى الخديو ، يلتمسون فيها العفو عنهم ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضية، وقد حرر العريضة وأمضاها عرابى وسافر بها الى الإسكندرية .

أما الإنجليز فقد زحفوا على العاصمة واحتلوها ، واحتلوا القلعة ، وثكنات قصر النيل ، وقشلاق عابدين .

أما الخديوى ، فقد عاد الى العاصمة حيث استقبله الجنرال ولسلى قائدا الجيش البريطانى ، ونجل الملكة فيكتوريا ، والسير ادوار مالت المعتمد البريطانى وأطلقت المدافع ايذاناً بوصوله ، واستعرض الخديوى الجيش المصرى فى ميدان عابدين ، وأنعم بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى على محمد سلطان باشا على خيانته، كما أنعمت عليه ملكة انجلترا بلقب سير ، وعاد الجنرال ولسلى الى إنجلترا فى ٤ أكتوبر ١٨٨٢ تاركاً بمصر قوة حربية من إثنى عشر ألف جندى .

شكل (١٠)

المعارك فى الجبهة الشرقية

بين العرابيين والانجليز

محاكمة العرابيين :

اعتقل زعماء الثورة العرابية ، والضباط والأعيان الذين أيدوها ـ ماعدا السيد عبدالله النديم الذى إختفى عن الأنظار ولم تستطع عيون الحكومة أن تعرف مقره .

والعجيب أن الإنجليز أبدوا عطفاً على عرابى وزملائه أثناء المحاكمة ، وعينت الحكومة البريطانية السير شارلس ويلسن (Chareles Wilson) لحضور جلسات التحقيق ـ وقد تدخل فى توجيه التحقيق فبرئ عرابى من الإشتراك فى مذبحة الإسكندرية وفى حريقها ، وقد أخذت لجنةالتحقيق بهذا الرأى ، وتقدم للدفاع عن عرابى محاميان إنجليزيان هما المستر برودلى (Broadley) والمستر نابيه (Napier) .

وفى ٣ ديسمبر ١٨٨٢ أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على عرابى وبعد ذلك بأيام صدرت الأحكام على باقى الزعماء السبعة ـ طلبه باشا عصمت ، وعبدالعال باشا حلمى ، ومحمود سامى البارودى ، وعلى فهمى باشا ، وكانت كلها بالإعدام مع تعديل الأحكام الى النفى المؤبد ومصادرة أملاك الزعماء السبعة ، وكان ذلك بتدخل إنجلترا ، وقد اختارت الحكومة الإنجليزية (جزيرة سيلان) بالهند منفى للزعماء السبعة ، بينما صدرت أحكام على بقية العرابيين بالنفى الى مصوع أو سواكن أو غيرهما من الأماكن خارج القطر المصرى .

وقد قضى الزعماء السبعة فى منفاهم حياة بؤس وشقاء وإنقطعت صلتهم بالناس ، وتوفى فى المنفى عبدالعال حلمى ، ومحمود باشا فهمى، ويعقوب باشا فهمى ، بينما صدر عفو الخديو عباس حلمى الثانى عن محمود سامي البارودى فعاد الى مصر سنة ١٩٠٠ ، وعاد على

فهمي ، وعرابي في عام ١٩٠١ ـ وقد توفي عرابي بالقاهرة في ٢١ سبتمبر ١٩١١ .

ويرجع فشل الحركة العرابية الى عدة عوامل :

١ ـ إنقسام الجبهة الوطنية ـ فالخلاف بين أعضاء الحزب الوطني ، والحزب العسكري ـ لعب دوراً هاماً في تفتيت الجبهة الوطنية وأعطى للخديوي والدول الأستعمارية فرصة لضرب الحركة الوطنية.

٢ ـ كان عرابي يفتقر للخبرة الإدارية والخبرة في إدارة مثل هذه المعارك ، فلم يفطن لأهمية التعبئة الشعبية لمساندة الجيش في حربه ـ رغم أن عمر مكرم مثلاً من قبل فطن لأهمية ذلك في مواجهة الغزو البريطاني لمصر في عام ١٨٠٧ م .

٣ ـ كانت هناك عناصر من الجيش مياله للخديو والإنجليز ولم يقم بتطهير جيشه من هذه العناصر رغم افتضاح أمرها حين دبر الضباط الشراكسة مؤامرة ضد وزارة البارودي الوطنية .

٤ ـ لم يكن سياسياً بارعاً ، فلم ينجح في إستغلال التناقض بين بريطانيا وفرنسا ومصالح كل من الدولتين للإيقاع بينهما .

٥ ـ موقف السلطان العثماني من الحركة الوطنية فقد طعن الحركة من الخلف بإصدار إعلان بعصيان عرابي وإعتبار الحركة مجرد تمرد عسكري .

٦ ـ الظروف الدولية في عام ١٨٨٢ لم تكن في صالح الحركات الوطنية فهي فترة التكالب الإستعماري على أفريقيا بالذات .

٧- لم يُقدر عرابى قوة عدوه حق قدرها ولذلك قصّر فى ترتيب الإستعدادت المناسبة لمواجهة عدوه .

٨- تصميم إنجلترا على إنتهاز هذه الظروف التى تمر بها مصر إقتصاديا لتحقيق أطماعها التى بدت منذ حملة بونابرت على مصر - فى وضع يدها على مصر ضماناً لمصالحها فى هذه المنطقة الأستراتيجية .

وهكذا انتهت هذه الصفحات الطويلة التى بدأت بالحماية الفرنسية على مصر والصراع الدولى خاصة بين انجلترا وفرنسا على النفوذ فيها - والمحاولات المريرة من المصريين للوقوف فى وجه هذه الأطماع وفى أن يحصلوا على حقهم الطبيعى - كباقى الشعوب - فى حكومة دستورية مسئولة أمام ممثلى الشعب .

وكان على المصريين أن يواصلوا الكفاح فى سبيل الحصول على حقوقهم ،وكان كفاحهم مريراً لأنهم لم يكونوا يواجهون الحكام المستبدين من أسرة محمد على فحسب - لكن كان عليهم أيضاً أن يخلصوا بلادهم من براثن الإنجليز الذين استغلوا أيضًا رغبة الحكام في ضمان بقائهم فى الجكم - خاصة بعد تجربة خلع الخديو اسماعيل - لضرب الحركة القومية المناهضة للتدخل الأجنبى فى شئون البلاد .

ثالثاً ـ مصر من الإحتلال الى الثورة
(١٨٨٢ ـ ١٩١٩)

إحتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢ بحجة حماية الخديو ، وتأمين حياة الأجانب ومصالحهم ، وسحق العصيان العسكري ، وقد كانت إنجلترا تُدرك أن وضعها فى مصر غير قانونى ، وأن وجود قوات إنجليزية فى البلاد فيه تحدٍ للإتفاقات الدولية ، كما أن وضع الإنجليز كان وضعاً شائكاً لا بالنسبة لموقفهم من المصريين فحسب ، ولا بالنسبة لعلاقات انجلترا بتركيا وموقفها منها فحسب ـ بل أيضاً لأنه كانت بالبلاد إدارات دولية كالمحاكم المختلطة ، وصندوق الدين وغير ذلك ـ ولذلك بادرت إنجلترا بالإعلان عن أن وجودها فى مصر وإحتلالها لها أمر مؤقت أملته ظروف معينة .

وقد وجدت بمصر بناءً على ذلك ثلاث سلطات :

١ ـ سلطة انجلترا ـ متمثلة فى جيش الإحتلال ، وممثلها فى مصر (المعتمد البريطانى) ، وكان السيرافلين بارنج (Evlin Baring)أول معتمد بريطانى فى مصر ، وقد مُنح لقب لورد فى ٢٤ مايو ١٨٩٢ فأصبح يطلق عليه (لورد كرومر) وظل معتمداً لبريطانيا فى مصر حتى مايو عام ١٩٠٧ وخلفه سير ألدون جورست ـ الذى ظل معتمداً لبريطانيا حتى عام ١٩١١ فخلفه كتشنر وظل فى وظيفته هذه حتى عام ١٩١٤ حيث عُين وزيراً للحربية.

٢ ـ سلطة الخديوى ـ صاحب السلطة الشرعية فى البلاد ـ وقد دخلت إنجلترا مصر بإسم حماية الخديوى ، وقد رأينا كيف عاد توفيق من قصر رأس التين بالإسكندرية الى القاهرة فى ركاب البريطانيين ، وبعد

وفاة توفيق تولى إبنه عباس الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤) ، فحاول أن يمارس سلطاته كاملة - لكن أدى ذلك لإصطدامه مع ممثل انجلترا ، وكان أول صدام حين أقال عباس مصطفى فهمى من رئاسة الوزارة فى أواخر عام ١٨٩٢ وولى مكانه فخرى باشا ، فما كان من كرومر إلا أن يلح فى طلب تنحية فخرى وتولية رياض ، وكان له ما أراد مع نصيحة من الحكومة البريطانية لعباس بالا يجرى تعديلاً وزارياً دون إستشارة المعتمد البريطانى .

وقد حاول عباس أن يواجه هذا التدخل فى شئون البلاد بالتحالف مع المد الوطنى ، فأصطفى مجموعة من الشباب الذين توسم فيهم الوطنية والذكاء من أمثال مصطفى كامل فعاونهم فى دراستهم وأوفدهم الى أوربا فى مهمات سياسية - لكن كما سنرى - لم يستمر هذا الوفاق بين عباس والحركة الوطنية المصرية بل أسرفت الحكومة فى التنكيل بالمعتدلين من المصريين وأتاح ذلك للأنجليز وأنصار الأحتلال فرصة لإذلال الخديوى - كما حدث فيما عُرف بحادثة الحدود فى عام ١٨٩٤ حين كان كتشنر قائداً عاماً للجيش المصرى .

٢ - سلطة الأمة (الحركة الوطنية) - وقد كان عليها أن تواجه سلطة الحاكم المطلق ، وسياسة الأستعمار وأذنابه .

وكانت انجلترا قد أرسلت فى نوفمبر ١٨٨٢ لورد دفرن (Dufferin) لدراسة أحوال البلاد لتقديم مقترحاته لحكومة الإحتلال .

وفى تقريره أقترح اللورد دفرن :

- تصفية الثورة العرابية تماماً والذين ساندوها - وكانت هذه مهمة المحاكم ولجان التحقيق .

- تسريح الجيش المصرى الذى شارك فى الثورة ، وقد صدر بذلك مرسوم خديوى وتقرر إنشاء جيش جديد من عناصر لم تشترك فى الثورة ، وتكون تحت قيادة انجلترا .
- إنشاء بوليس يحافظ على النظام فى الأقاليم تحت إشراف إنجليزى.
- إحلال مستشار مالى إنجليزى محل المراقبة الثنائية .
- تعيين مفتشين انجليز فى وزارة الأشغال للإشراف على أحوال الرى.
- فيما يتعلق بالتعليم - اقترح أن يهدف التعليم الى تخريج موظفين للحكومة يمكنهم القيام بالأعمال التى يُطلب منهم القيام بها فى طاعة ونظام :

على أن رجوع بعض أعضاء البعثات من أوربا - خلق جمهوراً لديه الرغبة للتعليم - وقد أحس كرومر بخطر ذلك فحاول مقاومة فكرة إنشاء (جامعة مصرية) على أساس أن التعليم الأولى أجدى وأنفع .

- فيما يتعلق بنظام الحكم رأى دوفرين إستمرار الوضع كما هو فيحكم الخديو عن طريق وزرائه - كما أشار الى إنشاء مجالس تمثيلية - (مجالس المديريات ، ومجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية) وهى مجالس إستشارية لا سلطان لها .

وهكذا كان على الحركة الوطنية المصرية مواجهة هذه السياسة البريطانية .

وقد تزعم الحركة الوطنية فى مصر مصطفى كامل وخلفه بعد وفاته محمد فريد

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية الحديثة

عاصر مصطفى كامل فترة من أدق وأحرج فترات التاريخ فى مصر ، وكانت حياته قصيرة ، إذ لم يعش أكثر من ٣٤ عاماً - لكنها كانت مليئة بألوان متعددة من الكفاح .

ولد مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ بدرب البيضة بشارع شيخون بالصليبة ، ونال شهادة الدراسة الثانوية فى عام ١٨٩١ ، والتحق فى نفس العام بمدرسة الحقوق الخديوية ، كما التحق فى عام ١٨٩٢ أيضاً بمدرسة الحقوق الفرنسية فجمع بين المدرستين وحصل على شهادة الحقوق من كلية (تولوز) الفرنسية فى نوفمبر ١٨٩٤ .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الوطنى ، وهو طالب بالمدرسة الثانوية ولم يتجاوز عمره يومئذ السادسة عشر ، إذ أسس فى عام ١٨٩٠ جمعية أدبية وطنية أطلق عليها اسم (جمعية الصليبة الأدبية) ، كانت المنبر الأول الذى مارس فيه نشاطه الخطابى (١) .

وكانت مصر فى ذلك الوقت تعانى من الإحتلال البريطانى الذى جثم على صدرها منذ عام ١٨٨٢ بعد هزيمة العرابيين ، وكانت الصدمة عنيفة فلم يقتصر أثرها على النتائج العسكرية وما ترتب عليها من تحكم المحتلين ومندوبهم فى مصر - اللورد كرومر - فى شئون البلاد اذ أمتد الأثر الى نفوس المصريين وإيمانهم بقوتهم ، فدب اليأس الى النفوس وشاعت روح الخضوع للمحتل .

---

(١) لمزيد من المعلومات عن نشأة مصطفى كامل - أنظر :
على فهمى : مصطفى كامل ٢٤ ربيعا . سيرته ، وأعماله من خطب ورسائل سياسيه وعمرانية (٩ أجزاء فى ثلاثة مجلدات بالقاهرة ١٩٠٩) .

أدرك مصطفى كامل هذا الوضع ، فكان عليه أن يواجه المحتل الغاصب بالإضافة الى مواجهة الجبهة الداخلية فى مصر بما هى عليه من وهن وتخاذل .

وتنوعت الأسلحة والأساليب التى واجه بها مصطفى كامل هذا الموقف، واستغل كافة الظروف والأحداث لخدمة القضية الوطنية وكشف أساليب المستعمر البريطانى ووسائله غير المشروعة وإدعاءاته الكاذبة .

فكان لا يفتأ يكتب المقالات ، ويؤلف الكتب ، ويجوب البلاد فى الداخل، والخارج رافعاً صوت مصر يطالب بحريتها وإستقلالها ، مستحثاً مواطنيه على الإلتفاف حول راية الجهاد وداعياً الأحرار فى كل أنحاء العالم لتقديم يد العون لشعب يدافع عن حريته وحقه فى الحياة الكريمة .

وفى سنة ١٨٩٥ سافر الى فرنسا ، وفى يونية من هذا العام قدم لمجلس النواب الفرنسى نداءً فى شكل صورة رمزية سياسيه تمثل مصر ترسف فى قيود الإحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها ، وقد طبع من هذه الصورة عدة آلاف من النسخ أرسلها الى جميع صحف العالم ، كما وزعها علي الصحفيين والسياسيين الفرنسيين ، وكان لهذا العمل دوى هائل فى أوربا وفى مصر ، فقد لفت أنظار العالم الى المسألة المصرية .

وفى سبتمبر من هذا العام (١٨٩٥) تعرف بمدام (جولييت آدم) الكاتبة الفرنسية ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا ، وشرح لها القضية المصرية ودعاها لمساندة هذه القضية العادلة ، ومنذ ذلك الوقت توطدت الصداقة بينهما وقد دعاها لزيارة مصر فجاءت إليها فى يناير عام ١٩٠٤ فاستقبلها استقبالاً حافلاً ، وصحبها فى رحلات

متعددة شاهدت فيها آثار مصر وعظمتها ، وقد غادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤ بعد أن أقامت فيها ستة أسابيع ، وبعد عودتها لفرنسا كتبت عدة مقالات نوهت فيها بحضارة مصر ، وبوطنية شعبها وحقه فى الحرية والأستقلال .

وفى يناير عام ١٨٩٧ كتب الى (جلاد ستون) - زعيم حزب الأحرار البريطانى - وكان قد اعتزل الوزارة وذكره بما قاله عن أن زمن الجلاء عن مصر قد أوفى منذ سنين ، وقد تلقى رد جلاد ستون على خطابة ، وقد بعث الى جلاد ستون خطاباً ثانياً من مصر فى ٢٧ فبراير ١٨٩١ (١) .

وفى عام ١٨٩٨ وقعت حادثة فاشوده - حيث عهدت فرنسا الى الكابتن مرشان (Marchand) بالزحف الى فاشوده الواقعة على النيل الأبيض وإحتلالها ، وكان كتشنر سرداراً للجيش المصرى يقود حملات إسترداد السودان فأمرته انجلترا بعد موقعة أم درمان - أن يتوجه فى النيل الأبيض على رأس قوة من الجيش المصرى حيث التقى بالكابتن مرشان وأبلغه أن هذا الأحتلال يُعد إنتهاكاً لحقوق مصر - وكان الأمل أن تتيح هذه الحادثة فرصة لفتح باب المسألة المصرية ومطالبة إنجلترا بإنجاز وعدها بالجلاء عن مصر - لكن فرنسا اضطرت للإذعان لانجلترا وأمرت قواتها بالجلاء عن فاشودة وكان هذا التسليم لضغوط الإنجليز صدمة للمواطنين المصريين فقد رأوا فى حادثة فاشودة برهاناً على رسوخ أقدام الإنجليز فى البلاد (٢) .

---

(١) نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب مجموعة أوراق مصطفى كامل - مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر : مصطفى كامل - أوراق مصطفى كامل - المراسلات ١٩٨٢

(أنظر المراسلات المتبادلة بين مصطفى كامل وجلاد تسون ص ٢٧١ وما بعدها)

(٢) للدراسة التفصيلية لحادثة فاشودة يُرجع الى :

على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى حوض النيل .

وفى خطبة لمصطفى كامل بالقاهرة فى ٢٣ /١٢/ ١٨٩٨ بعد حادثة فاشودة دعا المصريين للتشبث بالأمل ولمواصلة الجهاد وقال كلمته المأثورة (لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة) .

وفى مستهل عام ١٨٩٩صُدم الوطنيون فى مصر بإتفاقية السودان التى وقعت فى ١٩ يناير ١٨٩٩ (١) والتى أعطت انجلترا رسمياً حق الأشتراك فى إدارة السودان ورفع العلم الإنجليزى الى جانب العلم المصرى فى كافة أرجائه ـ وأن توضع إدارة السودان فى يد حاكم عام يعُين بأمر عال خديو بناءً على طلب الحكومة البريطانية (٢) .

وقد هاجم مصطفى كامل الإتفاقية واعتبر يوم توقيعها يوم حداد بالنسبة للمصريين .

و رأى مصطفى كامل أنه لابد من جريدة يومية تكون علماً للحركة الوطنية فأصدر فى ٢ يناير ١٩٠٠ (٣) جريدة **اللواء** وكان يحرص على كتابة إفتتاحيتها فى أغلب الأيام ويوقع عليها بإمضائه ، وممن ساهم فى الكتابة بها محمد فريد ، وشوقى أمير الشعراء ، وإسماعيل صبرى ، وخليل مطران وغيرهم .

وفى مارس ١٩٠٤ أنعم السلطان على مصطفى كامل بالباشوية .

وفى ٨ إبريل ١٩٠٤ وقُع **الأتفاق الودى** بين فرنسا وإنجلترا وكان لهذا الإتفاق الذى تبادلت فيه إنجلترا وفرنسا مصر والمغرب كما تتبادل

---

(١) عن ظروف هذه الإتفاقية وبنودها ونقدها أنظر :
شوقى الجمل : سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر جـ ٢ (القاهرة ١٩٦٩) ص ٧٠
(٢) يلاحظ أنه لم يتول مصرى حكم السودان طوال سريان هذه الإتفاقية التى استمرت نافذة المفعول حتى إستقلال السودان فى عام ١٩٥٦ .
(٣) تاريخ صدور العدد الأول .

السلع - وتعهدت فرنسا بترك يد إنجلترا حرة فى مصر فلا تُحرج الإنجليز بمطالبتهم بتحديد موعد للجلاء عن مصر - أثر سئ فى نفوس المصريين الذين كانوا ينظرون لفرنسا على أنها صديقة قوية يمكن الإعتماد عليها فى مقاومتهم للإنجليز .

أما مصطفى كامل فلم يتزعزع يقينه فى الجهاد ، لأنه كان قد نفض يده من جدوى مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، تلك الحادثة التى أدت إلى إنسحاب فرنسا أمام انجلترا وتركها تفعل ما تشاء فى وادى النيل ، فكان إتفاق سنة ١٩٠٤ توكيداً رسمياً للإتجاه الجديد للسياسة الفرنسية .

وقد ركز مصطفى كامل فى خطبه، وفى أعداد اللواء [١] منذ تلك الأحداث على دعوته المصريين للثقة فى أنفسهم والأعتماد على جهودهم وإيمانهم بحقهم الطبيعى فى بلادهم - لمواجهة الإنجليز الذين احتلوا بلادهم .

وفى يونيه ١٩٠٤ ظهر كتاب مصطفى كامل عن اليابان ليضرب للمصريين المثل بأمة كانت مغمورة ثم بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها [٢] .

وفى عام ١٩٠٥ ظهر له كتاب ثان بالفرنسية جمع فيه خُطبه وترجمها للفرنسية وكان الهدف تعريف العالم بالحركة الوطنية المصرية [٣]

وقد أسهم مصطفى كامل فى إنشاء (نادى المدارس العليا) الذى أُفتتح فى إبريل ١٩٠٦ بهدف تجميع المثقفين المصريين وتقوية الروابط

---

(١) انظر مثلا - اللواء عدد ١٨ إبريل ١٠٠٤ ،
وأنظر خطبة مصطفى كامل فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية فى ٧ يونية (١٩٠٤) .
(٢) مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر : أوراق مصطفى كامل - الخطب -
- كذلك كتابه الشمس المشرقة
(٣) كتاب Egyptiens et Anglias (Paris 1905)

بينهم ، وقد ظل النادى قائما حتى أغلقته السلطة العسكرية البريطانية فى عام ١٩١٤ .

حادثة دنشواى :

وفى ١٣ يونية ١٩٠٦ حدثت (حادثة دنشواى) [١] ـ وكان مصطفى كامل فى أوربا فى ذلك الوقت ـ فلما وصلته أنباء المحاكمة الظالمة التى حدثت ثارت نفسه وأعلن فى الصحف حرباً شعواء على إنجلترا وسياستها فى مصر التى تتنافى مع كل مبادئ الإنسانية التى تُنادى بها الدول المتحضرة [١]

وقصد مصطفى كامل بعد ذلك لندن حيث قابل عدداً من رجال السياسة بها ونشر عدة مقالات فى جريدة (الديلى كرونكل) وغيرها من الجرائد مما هز الرأى العام البريطانى .

نتائج حادثة دنشواى :

أدت حادثة دنشواى لعدة نتائج منها :

١ ـ اشتداد الحركة الوطنية : فقد أظهرت الحادثة للمصريين مدى الغُبن الذى يقع عليهم طالما الإستعمار جاثم على صدر الأمة ، فكان

---

(١) ذهب خمسة ضباط انجليزى إلى بلدة دانشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم لصيد الحمام ـ فأصابت رصاصة امرأة فسقطت صريعة ، كما احترق جرن للقمح مما أثار الأهالى وحدث احتكاك بينهم وبين الضباط الإنجليز ، وفر اثنان من الضباط . وسقط إحدهما وهو الكابتن (بول) "Paul" من الإعياء ومات بعد ذلك متأثراً من ضربة الشمس ـ وإنعقدت المحكمة المخصوصة يوم ٢٤ يونية لمحاكمة المتهمين الذين بلغ عددهم إثنين وخمسين متهماً ـ فحكم بإعدام أربعة ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على إثنين ، وبها لمدة خمسة عشر سنة على واحد ، وبالسجن لمدة سبع سنوات على ستة ، والحبس والشغل لمدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة والجلد خمسين جلدة على خمسة ، وقد نُفذت الأحكام بطريقة تقشعر منها الأبدان وعلى مرأى من أهالى المحكوم عليهم .

التفاصيل انظر : عبدالرحمن الرافعى :مصطفى كامل والحركة الوطنية ١٩٣٩ ص ٢٠٠ وما بعدها

لهذا أثره فى جمع الشمل حول التيارات الوطنية وإتحادهم لمواجهة المحتل الغاشم .

٢ ـ إهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية : فقد نبهت هذه الحادثة الأفكار الى الأوضاع فى مصر وأن مصر ساخطة وتطالب بحريتها وإستقلالها .

٣ ـ تغيير سياسة الإحتلال : كان للسخط الداخلى والعالمى الذى قُوبل به الحادث والأحكام الجائرة التى صدرت والطريقة التى نفذت بها ـ أثر فى إنجلترا فشعرت الحكومة الإنجليزية بحرج موقفها وأن من الواجب إجراء تعديلات قد تسهم فى تهدئة الخواطر فيخف السخط على الإحتلال وفى هذا المجال قررت إنجلترا إسناد بعض المناصب الكبرى الى الإكفاء من المصريين ، ففى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦ عُين سعد زغلول وزيراً للمعارف .

٤ ـ تأسيس الجامعة المصرية :

كان مصطفى كامل أول من دعا الى تأسيس جامعة مصرية ، فقد كتب فى جريدة اللواء يدعو الى هذه الفكرة [1] وبعد أن وقعت أحداث دنشواى ، وعاد مصطفى كامل من أوربا بعد الجهد الذى بذله دفاعاً عن المصريين ولفضح سياسة الإحتلال وأساليبه أجمع عدد من البارزين وفى مقدمتهم محمد فريد ـ على تكريمه وجُمع مبلغً من المال لهذا الغرض ـ لكن مصطفى كامل اعتذر عن عدم قبول هذا التكريم وطلب أن يُخصص المبلغ الذى جُمع كنواة لإنشاء جامعة أهلية ، وقد تألفت لجنة لهذا الغرض من سعد زغلول ، وقاسم أمين وغيرهما وبدأت الدعوة لجمع التبرعات لإنشاء الجامعة .

---

(٢) نشر مقالاً مستفيضا فى جريدة الفيجارو فى عدد ١١ / ٧ / ١٩٠٦ كان من نتائجه فى النهاية إقالة اللورد كرومر من منصبه .

٥ - **إستقالة اللورد كرومر** : استقر رأى وزارة الأحرار فى إنجلترا بعد ما أثارته الصحف الإنجليزية والعالمية من نقد لسياسة إنجلترا فى مصر عقب حادثة دنشواى - على ضرورة تغيير اللورد كرومر - وفى أبريل ١٩٠٧ قدم كرومر إستقالته بعد أن شغل مركزه مدة أربع وعشرين سنة (١٨٨٣ - ١٩٠٧) كان فى خلالها الحاكم المطلق لمصر ، وقد خلف اللورد غورست - كرومر كممثل لبريطانيا فى مصر .

وفى عام ١٩٠٧ أصدر مصطفى كامل جريدتين يوميتين إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية (ليتندار ايجبشيان) و (ذى إجبشيان ستاندارد) وذلك لإحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر بالأهداف الوطنية على حقيقتها - كما قال [1] .

تأسيس الحزب الوطنى (حزب الجلاء) :

منذ عاد مصطفى كامل الى مصر من الخارج عزم على وضع نظام أساسى للحزب الوطنى وقد خطب فى الإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧، وكانت خطبته بمثابة دعوة عامة للأمة للإنضمام للحزب الوطنى ، وإتخذ (الجلاء) مطلبا أساسياً للحزب حتى صار يُعرف بحزب الجلاء .

وقد عُقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ وإنتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيساً للحزب الوطنى مدى الحياة .

وفى هذا الإجتماع أتفُق على لائحة الحزب وأهم ماجاء فيها :

- إنتخاب مصطفى كاملا رئيساً للحزب مدى الحياة .
- تجتمع الجمعية العمومية للحزب مرة فى كل سنة فى شهر ديسمبر .

(١) انظر خطبته بمناسبة ظهور الجريدتين فى الحفل الذى أقامه بفندق الكونتننتال فى ٢ مارس ١٩٠٧ .

وهى تختص بانتخاب اللجنة الإدارية ، والتصديق على ميزانية الحزب ، والنظر فى إقتراحات الأعضاء ، وينتهى الإجتماع (بتقرير شامل) .

- تتألف اللجنة الإدارية من ثلاثين عضواً - عدا الرئيس وهى تُنتخب لمدة ثلاث سنوات ، وتجتمع مرة فى كل شهرعلى الأقل ، وتنتخب وكيلين للحزب ، وسكرتيراً وأمينا للصندوق من بين أعضائه .

- كذلك تُشكل لجنة تنفيذية من ثمانية أعضاء من بينهم الوكيلان والسكرتير وأمين الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الإدارية وتجتمع مرة كل أسبوع .

- وأنشأ ناد الحزب ، وفروعاً له فى الأقاليم .

وقد إتخذ الحزب مبدأ اشتهر به هو (ألا مفاوضة مع المحتل إلا بعد الجلاء) .

هذا ونتيجة للجهود التى بذلها الحزب الوطنى تقرر فى ديسمبر ١٩٠٧- العفو عن مسجونى دنشواى ، وتم ذلك فى ٧ يناير ١٩٠٨ ، وقد قوبل نبأ الإفراج عنهم بالإبتهاج العام فى البلاد

علاقة مصطفى كامل بالخديو عباس الثانى : (١)

شهدت العلاقات بين مصطفى كامل والخديو عباس الثانى - تطورات وتغيرات وذلك حسب تطور الظروف السياسية فى مصر وموقف الخديو عباس منها .

وقد إعتزم عباس فى أول عهده بالحكم مقاومة التدخل البريطانى ، ووجد فى مصطفى كامل الزعيم الوطنى الشاب الذى إستطاع رغم حداثة

(١) عباس الثانى هو ابن الخديو توفيق باشا البكر ، وكانت ولايته للخديوية فى يوم ٨ يناير ١٨٩٢

سنه أن يرفع علم الجهاد ، فأعجب به وأمده بالمال والتأييد ، بل ساهم الخديو عباس فى الحركة الوطنية وقتاً ما بماله ونفوذه ، وكان أمل مصطفى كامل أن يستمر هذا الإتجاه من الخديوى دعماً للحركة الوطنية - لكن بعد حادثة فاشودة [1] - ضعف أمل الخديوى فى الجلاء واتجه الى التقرب الى الإحتلال ، ثم جاء الإتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ فأدى لإنحياز الخديوى بالكامل الى الإحتلال - فرأى مصطفى كامل أن يقطع علاقته بالخديو وأعلن فى جريدة اللواء إنه رأى أن يقطع كل علاقة له بالخديو حتى لا يظن أحد أن عليه (على الخديوى) شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى [2] .

وقد أرسل مصطفى كامل للخديو - بعد أن عاد (مصطفى كامل) من باريس - كتابا جاء فيه : إن الإنجليز اظهروا فى خلال السنوات الأخيرة فى التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل مثلى ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لإعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود [3] .

والحقيقة إنه لم يكن ممكناً أن يستمر مصطفى كامل على إتصاله بالخديو لأن عباس الثانى قد عُرف عنه عدم الإستقرار فى الميول والخطط والآراء . وقد ظهر استقلال مصطفى كامل عن الخديوى فى استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى على المعاش مع ما اشتهر به من النزاهه والكفاءة ، كما انتقد وقوف الخديوى تحت العلم

(١) سبقت الإشارة لحادثة فاشودة ص ٢٥٦

(٢) اللواء عدد ٢٥ كتوبر ١٩٠٤ .

(٣) خطاب مصطفى كامل للخديو فى ٢٤ أكتوبر ١٩٠٤ .

البريطاني في حفلة إستعراض الجيش البريطاني بميدان عابدين في نوفمبر ١٩٠٤ ,

وفاة مصطفى كامل :

اشتد المرض على مصطفى كامل ، وقد نصحه الأطباء في مصر ، وفي الخارج بالراحة - لكن الأحداث في مصر كانت تتوالى - وقد سافر لفرنسا في صيف ١٩٠٧ للإستشفاء لكن رغم إشتداد المرض عليه فإن حادثة دنشواى لم تُتح له فرصة الإخلاد للراحة والعلاج ، فعاد الرجل وعلامات الضعف بادية عليه - وفي عصر الأثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ أسلم الروح وهو في الرابعة والثلاثين من عمره .

وحين أذيع نعيه عم الحزن أرجاء مصر - وقد نعاه الشعراء من أمثال اسماعيل باشا صبرى ، وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، كما رثاه أمير الشعراء شوقى ، وخليل مطران وغيرهم ، وقد أقيمت للفقيد حفلات تأبين شارك فيها أيضاً الشعراء والأدباء في الإشادة بفضله ووطنيته ، كما عُهد للمثال الفرنسي المسيو سافين (Savien) بصنع تمثال له من البرونز.

وقد تولى رئاسة الحزب بعده - رفيقه في الجهاد محمد فريد لكن السلطات البريطانية تعقبته فتعرض للمحاكمة والسجن مما دعاه للرحيل الى أوربا في عام ١٩١٢ و أدى هذا لضعف الحزب الوطني .

حزب الأمة والأحزاب الأخرى :

تكون حزب الأمة في عام ١٩٠٦ ، وأصبحت صحيفة (الجريدة) التي تأسست في مارس ١٩٠٧ والتي رأس تحريرها أحمد لطفي السيد هي التي تُعبر عن مبادئه ، وكان رئيس الحزب محمود سليمان باشا ،

ووكيلاه على باشا شعراوى وحسن باشا عبدالرازق ، أما سكرتيره فهو أحمد لطفى السيد .

وفى الوقت الذى رفع فيه زعماء الحزب شعار (الإستقلال الكامل عن الدولة العثمانية) - فإنهم لم يجاهروا بالعداء للمحتل بل هادنوه .

هذا وقد عرفت مصر إلى جانب الحزب الوطنى ، وحزب الأمة - فى الفترة بين عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٤ - العديد من الأحزاب الصغيرة الأخرى [١] .

وفى سبتمبر عام ١٩١١ عمل كتشنر كمعتمد لبريطانيا فى مصر محل جورست ،

وكان كتشنر كما وصفته إحدى الجرائد البريطانية " بمثابة ملك شرقى مُطلق الأرادة لا ترد له كلمة . "

وأدى هذا لزيادة التوتر بين كتشنر والخديوى ، وكان هذا التوتر قد بدأ عندما كان كتشنر سرداراً للجيش المصرى - وقد كان موقف كتشنر عدائياً أيضاً من الحركة الوطنية .

وفى أغسطس ١٩١٤ أصبح كتشنر وزيراً للحربية وحل محله كمعتمد بريطانى فى مصر السير هنرى مكما هو ف (H.Makmahon)

---

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

يونان لبيب رزق : الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ (القاهرة ١٩٧٧) .

ثانياً : مراجع أجنبية :

1- Blunt, W. : Secret History of the English Occupation.(London, 1907).

2- Cromer, The Earlof : Modern Egypt . (London, 1908).

3- Lioyd , L : Egypt Since Cromer 2 Vols. (London. 1933-24).

4 - Maurice, (Colonel) : Campaign of 1882 in Egypt .

5 - Milner , Alfred : England in Egypt (1893) .

6 - Morlowe , J : Cromer in Egypt . (London, 1970).

7- Morlowe, J.: Anglo - Egyptian Relations (1800 - 1956),(London, 1965) .

8- Ninet , John : Arabi Pacha , (1894).

9- Scotidis : l'Egypte Contemporane et Arabi Pacha .

رابعاً : ثورة ١٩١٩

الأوضاع فى مصر قبل الثورة :

فى ٤ أغسطس ١٩١٤ أعلنت انجلترا الحرب على المانيا ، ومع أن مصر كانت من الناحية القانونية ولاية عثمانية - لكن إنجلترا لم تأبه بالوضع القانونى - بل عملت حسب ما تمليه مصلحتها - ففى ١٨ أكتوبر صدر مرسوم بتأجيل جلسات (الجمعية التشريعية) الى أجل غير مسمى، وفى ٢ نوفمبر أعلنت الأحكام العرفية فى البلاد ، وفى ٦ نوفمبر أعلنت حالة الحرب بين إنجلترا وتركيا فأعلنت بريطانيا أنها ستأخذ على عاتقها أعباء الدفاع عن مصر ، وأنها لا تدعو الشعب المصرى الى الإشتراك الفعلى فى الحرب .

ولم تستطع إنجلترا تنفيذ هذا التعهد فقد إشتركت القوات المصرية فى الدفاع عن قناة السويس ، كما اشتركت قوات مصرية أخرى فى القتال على حدود مصر الغربية حين تعرضت مصر لهجوم من ناحية الغرب من جهة ليبيا .

وقد لجأت انجلترا فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ الى خلع الخديو عباس الثانى الذى كان غائباً عن مصر ، وولت محله عمه حسين كامل الذى صدر أمر تعيينه - سلطاناً بخطاب صادر من القائم بأعمال الوكالة البريطانية وليس بفرمان سلطانى - وقد أعلنت انجلترا الحماية على مصر وترتب على ذلك إلغاء وزارة الداخلية المصرية وتحويل شئونها الى المندوب السامى البريطانى ، وقد أعيد تشكيل وزارة حسين رشدى التى كانت تتولى الحكم من قبل ، وكان عدلى يكن باشا وزيراً للمعارف فيها .

وقد أدت الظروف الإقتصادية والإجتماعية فى مصر - بسبب الحرب وما فرضته على المصريين من تضحيات الى إزدياد شعور المصريين بحقوقهم المهضومة فى بلادهم وبما جره عليهم وجود الإنجليز فى البلاد من ويلات حرب لاناقة لهم فيها ولا جمل ، ولعل إلقاء نظره على أوضاع مصر وما عانته أثناء الحرب - يعطى صورة عن هذه العناصر ودورها فى الثورة .[1]

أهم العناصر التى قامت على اكتافها ثورة ١٩١٩ :

١ - الفلاحون : وهم من أطلق عليهم (أصحاب الجلاليب الزرقاء) وهم يمثلون الطبقة الكادحة من المصريين ، وقد عانوا الكثير بسبب نظام الإحتكار الذى فرضه محمد على ، وكانوا يُسَخرون فى حفر الترع وتطهيرها ، كما سخُروا فى حفر قناة السويس ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى عانى الفلاح المصرى الكثير - فقد عمدت القوات الإنجليزية لمصادرة الحاصلات الزراعية ودواب الفلاح وماشيته لسد طلبات جيوشها ، كما سخروا الفلاحين فى حفر الخنادق وساقوهم سوقاً الى معسكراتهم للخدمة فى القوات البريطانية ، وقد أدت الحرب والضائقة المالية التى تلتها الى نمو الملكيات الزراعية الكبيرة على حساب صغار الفلاحين - فزاد ذلك من سخطهم .

٢ - العمال : عانى الحرفيون من نظام الإحتكار ، ومن إستغلال رؤس الأموال الأجنبية ، وفتح المجال أمام الشركات الأجنبية ومنتجاتها وأدى تصدع نظام الطوائف الذى كان سائداً فى مصر الى سوء حالة العمال

(١) توفى السلطان حسين كامل فى ١٩ أكتوبر ١٩١٧ ، وأصبح أخوه أحمد فؤاد سلطاناً بعد أن أعلن الأمير كمال الدين حسين بن السلطان حسين كامل تنحية عن العرش - فعاصر أحمد فؤاد أحداث ثورة ١٩١٩ .

وشعورهم بالظلم الواقع عليهم نتيجة ضاطة أجورهم وزيادة ساعات العمل دون ضوابط مانعة ، وقسوة أصحاب رؤوس الأموال ، وقد شعرت الأحزاب - وفي مقدمتها الحزب الوطني - بقوة العمال فحاولت أن تبسط نفوذها على نقابات العمال التى أخذت تظهر وتضم صفوفهم ، وحاول الوفد أيضاً حين شعر بقوة العمال أن يُسيطر عليهم ويوجه حركاتهم وقام الحزب الإشتراكي المصرى بعد ذلك على أساس أن يرتكز أصلاً على القاعدة العمالية ، لكن - كما ذكرنا - أن هذا الحزب لم يُكتب له البقاء طويلا . كما أنه لم يلعب دوراً كبيراً فى الحركة الوطنية .

٣ - المثقفون لعلها أكثر الطبقات فاعلية فى ثورة ١٩١٩ لقوة هذه الطبقة بحكم إحتكاكها الحضارى بالحضارة الغربية ، وبحكم شعورها بالظلم أكثر من غيرها من الطبقات نتيجة حرمانها من الوظائف الكبيرة ، وقد أدركت إنجلترا خطر هذه الطبقة المثقفة على أطماعها ، وكانت سياسة (دنلوب) مستشار وزارة المعارف ترمى الى توجيه التعليم بحيث لا يمثل المتعلمون عقبة حقيقية أمام الأستعمار - لكن لا شك فى أنه رغم هذا التوجيه الإستعمارى للتعليم لإعداد مجرد موظفين للوظائف الصغيرة التى يُراد شغلها - فقد بدأ تيار فكرى سياسى ، ونجح المثقفون فى عام ١٩٠٥ فى أن يؤسسوا (نادى المدارس العليا) الذى أصبح فيما بعد معقل القوى المحركة لثورة ١٩١٩ .

أضف الى هذا أن الأزهر الشريف بدأ يلعب دوراً حاسماً في الحركة الوطنية بعد أن هبت عليه ريح التجديد على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

أحداث ثورة ١٩١٩:

١ ـ تاليف الوفد المصرى :

كان التفكير فى المطالبة بحقوق مصر شاغل الوطنيين المصريين بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر ١٩١٨ ، وقد إتجهت الأراء الى تأليف (وفد مصرى) لمطالبة الإنجليز برد حقوق مصر وإتخاذ الخطوات التى تؤدي الى هذه النتيجة .

فقد تقرر تأليف وفد من سعد زغلول ، وعبدالعزيز فهمى ، وعلى شعروای لمقابلة المندوب السامى البريطانى السير ريجنالد ونجيت لمحادثته فى المسألة المصرية .

وقد تمت المقابلة فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وكان هناك اتجاه لتأليف وقد (أهلى) وآخر (حكومى) لمناقشة الحكومة الإنجليزية فى مطالب مصر .

قابل سعد زغلول و زملاؤه المندوب السامى وطالبوا بإلغاء الأحكام العرفية وإلغاء الرقابة على الجرائد والمطبوعات ، كما طالبوا بإستقلال مصر ، مع استعدادها لعقد محالفة مع بريطانيا تُعطى إنجلترا حق حماية طريقها للهند ـ عبر قناة السويس ـ عند الإقتضاء .

ولما أبدى المندوب السامى البريطانى إعتراضه على الصفة التى تُخول سعد زغلول وزملاءه حق التحدث بإسم الأمة ـ عمدوا الى تشكيل الهيئة التى سميت (الوفد المصرى) وحصلت الهيئة على توكيلات من الأمة تخولها صفة التحدث بإسمها ـ والهيئة التى شُكلت كانت تتألف من : سعد زغلول رئيساً ، وعلى شعروای ، وعبدالعزيز فهمى ، ومحمد محمود، وأحمد لطفى السيد ، وعبداللطيف الميكاتى ، ومحمد على علويه ـ أعضاء وفوض هؤلاء فى أن يضموا لصفوفهم من يختارونه للإشتراك فى المهمة التى كُلفوا بها .

وقد إنضم للهيئة بعد ذلك مصطفى النحاس ، والدكتور حافظ عفيفى وسينوت حنا ، وجورجى خياط ، وواصف غالى ، ومحمد الباسل

٢ ـ الصدام بين الوفد والإنجليز :

بعد مقابلة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وتشكيل الوفد المصرى ـ طلب رئيس الوفد من سلطات الإحتلال ـ منحه هو وأعضاء الوفد جوازات للسفر الى إنجلترا ليتصلوا برجال السياسة الإنجليز وبالرأى العام الإنجليزى ـ وتُعرض عليهم مطالب الأمة المصرية .

وقد رفض الجانب الإنجليزى سفر الوفد ودعاه لأن يقدم اليه كتابة ما يريد تقديمه من إقتراحات بشرط إلا يخرج ذلك عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل (١) .

وأضُطر الوفد إزاء ذلك الى أن يُرسل نداءً الى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر ثم إلى الرئيس الأمريكى ولسن عندما وصل الى باريس ليشهد مؤتمر الصلح يحتج به على ما اتخذته السلطة البريطانية ضد الوفد ومنعه من السفر الى أوربا ليعرض على أولى الشأن مطالب المصريين راجياً أن تتاح الفرصة لمصر ليُسمع صوتها (٢).

كما وجه الوفد رسائل مماثلة لأعضاء مؤتمر الصلح ورجال السياسة ولرئيس مجلس العموم البريطانى يُعلن فيها بطلان الحماية البريطانية ويحتج على الحصار الذى تفرضه السلطات البريطانية على المصريين لمنعهم من السفر والتعبير عن رأيهم .

---

(١) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

عبدالرحمن الرافعى ثورة ١٩١٩ جـ ص ٧٥ وما بعدها

(٢) أختتم مؤتمر الصلح باريس فى يناير ١٩١٩.

هذا وقد أصدر الوفد فى ديسمبر ١٩١٨ بياناً بتشكيل الوفد ، وشرح مقاصده ، وأهدافه ، ووسائله (١)

كما إتجه الوفد الى طمأنة الأجانب بمصر فوعد بعدم المساس بحقوقهم وإمتيازاتهم .

وإتجه الوفد الى تعبئة الرأى العام الداخلى فإزدادت حركة جمع التوقيعات والتوكيلات الشعبية لأعضاء الوفد للتحدث بإسم الأمة - كما تعددت الإجتماعات العامة ليتحدث فيها أعضاء الوفد للجماهير عن القضية المصرية والمطالب الوطنية وموقف السلطات البريطانية من مطالب المصريين العادلة .

وقد حاولت السلطات البريطانية فى مصر منع هذه الإجتماعات السياسية .

٣- موقف إنجلترا والسلطات من وزارة رشدى باشا :

طلب رشدى باشا رئيس الوزارة المصرية السماح له ولزميله عدلى باشا يكن بالسفر الى إنجلترا للمناقشة فى المسألة المصرية - وكان ذلك بناءً على إتفاق مع سعد زغلول - وحاول السير ونجت أن يُقنع حكومته بالموافقة على ذلك ، وسافر من أجل هذا لباريس ثم الي لندن - لكن الحكومة البريطانية كانت ترى أن الوقت غير مناسب لهذه الزيارة بسبب إنشغال الوزارة البريطانية بمؤتمر الصلح المنعقد فى باريس - فطلبت تأجيل هذه الزيارة .

وكانت الحركة الوطنية فى مصر قد إزدادت إشتعالاً ، ومركز سعد وأعوانه قد ازداد قوة - وقد أصر رشدى باشا على السماح له ولمن يطلب

---

(١) حددت مهمة الوفد بالسعى بالطرق السلمية المشروعة - فى استقلال مصر استقلالاً كاملاً وأشير إلى أنه وأن يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها راسا أو بواسطة مندوبيهم بالهيئات النيابية .

من المصريين ـ بالسفر الى لندن وطلب من السلطان (فؤاد) أن يقبل إستقالته من الوزارة إذا لم يسمح له وللوفد المصرى بالسفر لعرض قضية البلاد .

٤ ـ نفى سعد وزملائه :

أضطر السلطان فؤاد فى مارس ١٩١٩ لقبول إستقالة رشدى باشا، وكان هذا التصرف طعنة للحركة الوطنية ودليلاً على الخضوع لضغوط الإنجليز ـ مما دعا سعد زغلول وأعوانه الى تقديم عريضة للسلطان فؤاد شديدة اللهجة استهجنوا فيها تصرفه وأعلنوه أنه لن يجد من أى مصرى مخلص استعداداً لتشكيل وزارة فى هذه الظروف .

وقدم القائد العام الإنجليزى فى مصر إنذاراً لسعد زغلول وأصحابه، وكان رد الوفد على هذا الإنذار بأنه يطلب الإستقلال التام ويرى أن استمرار الحماية أمر غير مشروع .

وفى ٨ مارس ١٩١٩ ألقى القبض على سعد زغلول باشا ،وحمد الباسل باشا ، وإسماعيل صدقى باشا ، ومحمود باشا ونقلوا الى الإسكندرية ومنها الى مالطة .

وكان هذا العمل بمثابة الشرارة التى فجرت الثورة

٥ ـ إندلاع الثورة وتطورها :

بدأت الثورة فى القاهرة بمظاهرات الطلبة التى بدأت فى ٩ مارس ١٩١٩ عندما وصل إليهم نبأ القبض على سعد زغلول ورفاقه ـ ثم اشترك عمال النقل وغيرهم فى الثورة وقطعوا الخطوط الحديدية والتلغرافية لعرقلة إتصال القوات البريطانية التى كانت منتشرة فى أنحاء البلاد ، كما وضعت المتاريس فى الشوارع ، وإنضم المحامون ، والتجار وغيرهم من طوائف الأمة ، بل إشتركت المرأة المصرية فيها مسجلة تطوراً

إجتماعياً خطيراً في تاريخ البلاد ، وكان انضمام عنصرى الأمة من المسلمين والأقباط أروع إنتصارات الثورة .

فكان قساوسة الأقباط يخطبون من منابر المساجد وفى الجامع الأزهر، كما كان مشايخ المسلمين يخطبون أمام مذابح الكنائس .

وإنتشرت الثورة من القاهرة الى الدلتا والأقاليم ـ وقابلت السلطات الإنجليزية الثورة بالعنف والقسوة فحرقت القرى المجاورة للخطوط الحديدية والتلغرافية التى أتلفت ، وحصد رصاصهم المئات من المتظاهرين واشترك البدو فى الفيوم وغيرها في الثورة . ووصل الأمر الى أن بعض المدن مثل زفتي ، والمنيا ، وأسيوط ـ تشكلت فيها لجان تولت السلطة الفعلية فيها واستولت على مراكز البوليس ودبرت بنفسها شئون الأمن .

ولما قبض على سعد زغلول وصحبه تولى (على باشا الشعرواى) رئاسة الوفد مؤقتا واتخذ بيت سعد زغلول (بيت الأمة) مركزاً للنشاط الوطنى ، وأرسلت برقيات الأحتجاج على اعتقال زعماء الأمة ، كما أرسلت الكتب الى السلطان فؤاد تطالبه بالوقوف فى صف الشعب فى هذه الأزمة .

وانزعجت الحكومة البريطانية للأوضاع التى ترتبت على سياستها فعينت الجنرال اللنبى(Allenby)مندوبا سامياً وكلف بتحقيق ما يلى :

١ ـ القضاء على الإضطربات القائمة وإعادة النظام للبلاد .

٢ ـ القيام بتحريات دقيقة لمعرفة أسباب شكوى الشعب .

٣ ـ إزالة الشكوى التى تستوجب العدالة إزالتها .

وصل اللنبى الى مصر فى ٢٥ مارس ١٩١٩ ، فاستدعى أعضاء الوفد الباقين فى القاهرة ، كما استدعى بعض الأعيان المصريين ، ورجال وزارة رشدى باشا المستقيلة .

وطلب منهم أن يكتبوا له تقريراً عن أسباب شكوى المصريين ، وقد قدم له أعضاء الوفد طلباتهم التى تتلخص فى :

١ ـ الإفراج عن سعد باشا ورفاقه .

٢ ـ السماح لهم بالسفر ـ ولو بصفتهم الشخصية لا الرسمية ـ للخارج

وفى يوم ٧ أبريل ١٩١٩ أصدر المندوب السامى منشوراً أعلن فيه الإفراج عن سعد زغلول وزملائه الثلاثة ـ والسماح لهم بالتوجه الى حيث يشاء ون .

واتجهت سياسة انجلترا الى محاولة الحصول على إعتراف الدول المجتمعة فى موتمر السلام (بالحماية).

وإن أمكن الحصول على إعتراف الشعب المصرى نفسه بالحماية . وكان للإفراج عن الزعماء وسفرهم الى باريس ـ أثره القوى على الروح المعنوية للمصريين .

وتقرر أن يسافر خمسة آخرون من أعضاء الوفد (على الشعرواى باشا ، وسينوت حنا بك ، وجورج خياط بك ؛ ومصطفى النحاس ، والدكتور حافظ عفيفى بك) ليلحقوا بالأعضاء الآخرين بمالطة ويتوجه الجميع الى باريس .

٦ ـ نشاط الوفد المصرى فى باريس ولندن:

وفى ١٩ إبريل ١٩١٩ وصل أعضاء الوفد المصرى الى باريس ـ لكنهم صُدموا إذ وجدوا أبواب مؤتمر الصلح موصدة فى وجوههم والقوى التى كانوا يظنون أنها ستساند حق مصر ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التى كان رئيسها ولسون قد أعلن أثناء الحرب حق الشعوب فى تقرير مصيرها ـ كانت تسعى للإتفاق مع الدول الأخرى لتحقيق أطماعها هى

فقد أعلنت الولايات المتحدة إعترافها بالحماية البريطانية على مصر مع عطفها على أماني الشعب المصرى لتوسيع نطاق الحكم الذاتي .

وقد رأى أعضاء الوفد المصرى أن بقاءهم فى باريس لا جدوى منه ورأى البعض منهم العودة الى مصر ، بينما اقترح البعض طرق باب انجلترا التى أصبحت بإعتراف مؤتمر الصلح - صاحبه الحل والربط ، وقد كُلف بعض المصريين المقيمين بانجلترا بهذا العبء . وبُذلت محاولات لجذب الهيئات النيابية والرأى العام والصحف الحرة فى باريس وأوربا لصف القضية المصرية التى أصيبت بنكسة نتيجة الإعتراف الدولي بالحماية .

وقد تجددت الإضطرابات فى مصر ،وكان من أبرزها اضراب الموظفين - وكانت قد تشكلت فى ٢١ مايو ١٩١٩ وزارة برئاسة محمد سعيد باشا - وحاولت هذه الوزارة أن تضع حداً للمظاهرات ، فأصدرت فى ٥ نوفمبر قراراً بمنع المظاهرات - لكن لم تلبث أن تجددت المظاهرات وكان أهمها ما حدث فى ١٣ نوفمبر فى ذكرى مقابلة زعماء الوفد للمندوب السامي - الذى أصبح (عيداً للجهاد الوطنى) ، وأضطرت وزارة محمد سعيد باشا للإستقالة وخلفتها وزارات يمكن أن نطلق عليها إسم (الوزارات الإدارية)، فقد كانت مهمتها مجرد تسيير للأمور الإدارية فى البلاد ، بينما تركت الشئون السياسية فى يد الوفد (فى باريس) يوجهها كيفما يرى .

٧ - لجنة ملنر :

قررت الحكومة البريطانية إرسال لجنة تحقيق الى مصر برئاسة اللورد ملنر لتدرس الأحوال دراسة دقيقة وتتشاور مع أصحاب الرأى من المصريين ومع السلطان ووزرائه فى الإصلاحات اللازمة ولتقترح نظام

الحكم الملائم لتحقق إنجلترا أهدافها في الدفاع عن مصر ضد كل خطر خارجي أو تدخل أجنبي مع تحقيق رغبة المصريين في تأسيس نظام دستوري يحكم بموجبه السلطان ووزرائه ومندوبي الأمة المنتخبين تحت إرشاد بريطانيا .

وصلت لجنة ملنر الى مصر في ٧ ديسمبر ١٩١٩ وسط جولا يوحي بإمكانية نجاحها في مهمتها، فقد نظمت اللجنة المركزية للوفد بالقاهرة بالإتفاق مع سعد زغلول ورفاقه ـ حركة لمقاطعة اللجنة ، وتقرر القيام بمظاهرات إحتجاج على اللجنة وإرسال برقيات الى ممثلي الدول الأجنبية بمصر بهذا المعنى .

ورغم ذلك قامت اللجنة بإتصالات ببعض الساسة المصريين ، كما أبدى ملنر استعداده للتفاوض مع الوفد ممثلاً في سعد زغلول ورفاقه ، وتقدم بمقترحات تمثل وجهة النظر البريطانية ، ودارت مفاوضات بين الطرفين في باريس ثم لندن انتهت الى اقتراحات تقضي :

١- يعقد محالفة بين مصر وانجلترا تعترف فيها مصر بمصالح إنجلترا الخاصة في مصر.

٢- أن تعترف انجلترا بحق مصر في أن يكون لها تمثيل سياسي مع البلاد الأجنبية .

٣- يوضع دستور مصري يقر مبدأ المسئولية الوزارية أمام الهيئة التشريعية ، وأن تطلق الحريات بالنسبة لجميع المصريين .

٤- يصفي وضع الموظفين البريطانيين والأجانب في مصر خلال عامين .

٥- تساعد انجلترا مصر على التخلص من الإمتيازات الأجنبية . (١)

---

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى
Lioyod: Egypt Since Cromer Vol.2 (1934)P.30

وقد رأى سعد وزملاؤه عرض مشروع هذا الإتفاق على الأمة لتبدى فيه رأيها - وكان الاتجاه الغالب فى مصر الى قبول المشروع باعتباره إنه يحد من تدخل بريطانيا فى شئون مصر بينما كان رأى (الحزب الوطنى) بالذات رفضه تاما .

٨- مفاوضات عدلى - كريزون :

فى مارس ١٩٢١ قبل عدلى يكن باشا رئاسة الوزارة وكان قد لعب دوراً هاماً فى المفاوضات بين ملنر وسعد زغلول - وكان عدلى يعتمد على ثقة سعد زغلول فيه ، وكان يرجو أن يوفق فى الاتفاق مع الانجليز على وضع دستور يحقق أمانى ومطالب المصريين ، وقد قوبلت وزارة عدلى من المصريين بالابتهاج ، وعاد سعد زغلول الى مصر ، ودعاه عدلى للإشتراك فى المفاوضات مع الانجليز - لكن سعد زغلول اشترط شروطاً معينة للاشتراك مع وزارة عدلى فى المفاوضات منها أن يكون الهدف من المفاوضات إلغاء الحماية ، والحصول على الاستقلال الكامل لمصر ، والغاء الاحكام العرفيه - وأن يكون (للوفد) الأغلبية بين أعضاء لجنة المفاوضات ، كما تكون له رئاسة وفد المفاوضات ، وأن يصدر مرسوم سلطانى بتشكيل وفد المفوضات .

ورفض عدلى هذه الشروط وأوضح إعتزامه المضى فى التفاوض حتى إذا رفض الوفد الاشتراك فى المفاوضات .

وترتب على هذا مهاجمة سعد زغلول لعدلى يكن وإثارته الجماهير ضده حتى أن بعض الجماهير كانت تهتف بالهتاف الذى شاع فى ذلك الوقت (إن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى) .

وسافر عدلى مع وفد المفاوضات الى لندن ، وأرسل الوفد بعض رجاله لمراقبة المفاوضين المصريين هناك وإثارة البلبلة حول تمثيلهم للأمة وانتهي الأمر بفشل هذه المفاوضات .

٩- تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

بعد فشل المفاوضات اتجهت انجلترا لإصدار تصريح من جانبها يضع الأمور فى مصر في الوضع الذى ترتضيه بريطانيا .

ولجأت انجلترا الى نفى سعد وبعض أعضاء الوفد الذين وصفوا بالتطرف الى ـ عدن ثم نقلوا الى سيشل ومنها الى جبل طارق .

وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت بريطانيا تصريحها المشهور .

إعترفت فيه بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وانهت حمايتها علي مصر - لكنها احتفظت بأمور معينة تسوى فيما بعد في مفاوضات تجرى بين مصر وبريطانيا.

وقد جاء التصريح في خطاب سلمه اللورد أللنبي للسلطان احمد فؤاد وهو يحمل عنوان (تصريح لمصر) . (١)

وقد جاء في التصريح بعد المقدمة إن حكومة جلالة الملك تعلن المبادئ الآتية :

١- انتهت الحماية البريطانية علي مصر وتكون مصر دولة مستقله ذات سيادة .

٢- حالما تصدر حكومة عظمة السلطات قانون تضمينات (يحل محل الاجراءات التي اتخذت باسم السلطات العسكرية)

- تلغى الاحكام العرفية التى اعلنت فى ٥ نوفمبر ١٩١٤

٣- الى أن يحن الوقت الذى يتسنى فيه إبرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك ، وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانها ، ذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين ـ تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى الأمور الآتية :

---

(١) عن خطاب الحكومة البريطانية الى السلطان فؤاد ونص التصريح يرجع إلى عبدالرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية جـ ١ (١٩٦٩) ص ٣٤ وما بعدها .

أ - تأمين مواصلات الامبراطوريه البريطانية فى مصر .

ب - الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو الوساطة.

جـ- حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات .

د- السودان .

وحتى تتم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ماهى عليه الان

وهكذا بموجب هذا التصريح - حصلت مصر على استقلالها بشروط معينة.

على أننا نشير إلى أن بريطانيا نجحت فى أن تثير الصراع الحزبى بين المصريين ، بل وأن توجد الشقاق والإنقسام بين صفوف الوفد ذاته .

تقييم لثورة ١٩١٩ :

لم تحقق ثورة ١٩١٩ الأهداف المرجوة كاملة ، فقد إنتهت الثورة الي صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وبموجبه نالت مصر استقلالاً مبتوراً بحكم التحفظات التي لازمت التصريح . (١)

ولعل من الأسباب التي أدت الي عدم تحقيق الثورة لأهدافها كامله :

١- أن الثورة تحولت الي حركة سياسية فحسب ، فلم تتخط الحدود السياسية لتحقق مطالب التغيير الإجتماعى .

٢- نجح الإستعمار بأساليبه فى أن يعطى للمصريين إستقلالاً زائفاً لاقيمة له ومع ذلك وجد قبولاً لدى الكثيرين الذين لم يدركوا وسائل الإستعمار وأساليبة . كما أن ذلك أدى لإنقسام المصريين فانقسموا بين معارض ومؤيد .

---

(١) لتقييم تصريح ٢٨ فبراير وموقف الحزب الوطني منه : أنظر عبدالرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها

٣- بدلاً من تكتل الجهود ضد المستعمر إنقلب الوضع الى تنافس وتناحرين الأحزاب المصرية بهدف الوصول لكرسى الحكم .

٤- كان المصريون - مثل غيرهم من الشعوب المهضومة الحق - يأملون بعد الحرب العالمية الأولى ومابذل فيها من وعود - أن يجدوا تأييداً دولياً لقضيتهم - لكن ظهر أن الدول الإستعمارية كانت تسعى فى ذلك الوقت لأن تحقق أطماعها دون إلتزام بالمبادئ التى أعلنت أثناء الحرب .

على أنه لاشك في أن ما ظهر أثناء الثورة من وحدة طوائف الامة ، ومن مشاركة مختلف فئات الشعب في الثورة ، بالاضافة إلى مشاركة المرأة المصرية فيها - كان كسباً حقيقيا لمصر والمصريين ، وهذا بالاضافة الى أنه أعقب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وضع دستور ١٩٢٣ الذى أنهى الحكم المطلق ووضع بداية للفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى مصر

خامسا : ثورة ١٩٥٢

الأوضاع في مصر بين الثورتين :

عقب صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أعلن فؤاد نفسه ملكا لمصر فى ١٥ مارس ١٩٢٢ ، وأُعيدت وزارة الخارجية المصرية وشكلت وزاره ثروت باشا لجنة من ثلاثين عضواً لإعداد الدستور الذى عُرف (بدستور ١٩٢٣). وقد رفض الوفد الإشتراك فى (لجنة إعداد الدستور) .

ورغم أن هذا الدستور الذى صدر فى ١٩ إبريل ١٩٢٣ أعطى للملك سلطات واسعة إزاء السلطتين التشريعية والتنفيذية - فقد كان من حقه حل البرلمان والدعوة لإنتخابات جديدة - لكنه كان خطوة فى تقريرأن الأمة مصدر السلطات ، ووضع نهاية للحكم المطلق .

وقد قرر هذا الدستور أن جميع السلطات مصدرها الأمة

كما قرر مبدأ المساواة بين جميع المصريين فى الحقوق والواجبات ، ومبدأ إحترام الحريات العامة . (١)

وقد أحرز الوفد أغلبية ساحقة فى إنتخابات ١٩٢٤ التى جرت حسب دستور ١٩٩٣وبناء على ذلك شكّل سعد زغلول فى يناير ١٩٢٤ أول وزارة برلمانية عُرفت (بوزارة الشعب) وأفتتح أول برلمان مصرى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤

على أن إغتيال سردار الجيش المصرى السير لى ستاك فى القاهرة فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ، وتقديم المندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى

ملاحظة : أصدر الملك فؤاد فى ١٣ إبريل ١٩٢٢ أمراً ملكياً بنظام وراثة العرش - يقضى بأن الملك وراثى فى أسرة محمد على ، وينتقل العرش الى أكبر أبناء الملك ثم الى أكبر أبناء ذلك الأبن الأكبر وهكذا .

(١) الدستور من ١٧٠ مادة - وللتفصيل يرجع إلى :
عبدالرحمن الرافعى : مصدر سابق ص ٩٣ وما بعدها

إنذاره للحكومة المصرية في ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ ـ ترتب عليه إستقالة سعد زغلول باشا في ٢٣نوفمبر فألف زيور أحمد باشا رئيس مجلس الشيوخ وزارة جديدة قبلت المطالب البريطانية التي جاءت في الأنذار البريطاني ومنها سحب الجيش المصري من السودان .

وتتابعت الأحداث بعد ذلك ، فقد شهدت الفترة بين ثورة ١٩١٩ ، ١٩٥٢ صراعاً بين قوات ثلاث : الوفد بصفته أكبر الأحزاب السياسية في مصر ، والإنجليز ، والقصر .

وقد تركزت القضية الوطنية خلال هذه الفترة حول مسألتين هما جلاء القوات البريطانية عن مصر ، ووحدة وادي النيل ـ وكان الأسلوب الذي اتبعه القادة المصريون سواء من الوفديين أو غيرهم لتحقيق المطالب الوطنية هو أسلوب التفاوض .

وحدثت في هذه الفترة بين الثورتين أحداث نتيجة الصراع بين القوى الثلاثة ، وكان القصر ـ كما كان الإنجليز حريصاً على ألا يُعطي الفرصة لحزب الوفد [1] حتى يستقطب جماهير الشعب ويُصبح صاحب الكلمة العليا في تسيير دفة الأمور في البلاد إستناداً على أنه الحامي للدستور والساهر على مصالح الشعب ، ولذا استخدم القصر حقه في إقالة الوزارة كلما اشتد الصراع ووصل الى درجة التحدي .

وشهدت هذه الفترة الإنقلاب الدستوري الذي قام به صدقي بإصدار (دستور ١٩٣٠) ليحل محل الدستور ١٩٢٣ ، وقد أهدر الدستور الجديد سلطة الأمة وحقوقها في مواضع كثيرة [2]

---

(١) توفي سعد زغلول في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ وأنتخب مصطفى كامل النحاس رئيساً للوفد المصري

(٢) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ جـ٢ ١٩٦٣ ص ١٥٣

ملاحظة : في ١٧ إبريل ١٩٣٥ ـ أعيد العمل بدستور ١٩٢٣

كما شهدت هذه الفترة أيضاً قيام عدة أحزاب أخرى أسسها بعض المخالفين لسعد زغلول والمنشقين عن الوفد منها:

أ- حزب الأحرار الدستوريين : الذى تأسس فى عام ١٩٢٢ وأختير عدلى باشا رئيسا له .

ب - حزب السعديين الذى أسسه ماهر والنقراشى فى عام ١٩٣٩ .

جـ - حزب الكتلة الوفدية الذى أسسه مكرم عبيد فى عام ١٩٤٢ .

ومن الأحزاب التى قامت بمساندة القصر الملكى لتكون آداته فى الدفاع عن مصالحه :

د - حزب الإتحاد الذى تأسس فى عام ١٩٢٥ .

هـ - وحزب الشعب - الذى أسسه صدقى باشا فى عام ١٩٣٠ .

على أن تعدد الأحزاب لم يؤد لإثراء الحياة النيابية بل بالعكس كانت الأحزاب أداة للقصر الملكى ولإنجلترا لتحققا مصالحهما - فقد أصبح الصراع من أجل الوصول الى كرسى الحكم هدفاً أساسياً لكل حزب منها وكان الحزب يصل لكرسى الحكم ويبقى فيه إلى أن يرى القصر أو ممثل بريطانيا فى مصر أن المصلحة تحتم خلعه من الكرسى وإبداله بمن يلعب الدور أفضل لصالح القصر أو الإستعمار.

ومن الأحداث الهامة في هذه الفترة :

توقيع معاهدة ١٩٣٦ واتفاق مؤتمر سنة ١٩٣٧ (١)

١ - ففى ١٣ فبراير ١٩٣٦ صدر مرسوم ملكى بتعيين الهيئة الرسمية لا برام معاهدة صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانيا العظمى وكانت هذه الهيئة برئاسة مصطفى النحاس باشا بينما تألفت الهيئة البريطانية برئاسة السير (مايز لامبسون) .

ملاحظة : جرت عدة محاولات (مفاوضات) بين مصر و بريطانيا الوصول لأتفاق يرضى عنه الطرفان - دون جدوى حتى تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ - والمزيد بين التفاصيل يرجع الى محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (١٩٥٦)

وقد جرت المحادثات بين الطرفين بقصر الزعفران وإنتهى الأمر بالتوقيع على المعاهدة فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بوزارة الخارجية البريطانية بلندن .

٢ - وفى أثناء ذلك توفى الملك فؤاد فى ٢٨ إبريل ١٩٣٦ وخلفه الملك فاروق وتألف مجلس للوصاية حتى يبلغ الملك الجديد السن القانونية.

٣ - ترتب على المعاهدة جلاء القوات البريطانية عن القاهرة وجميع الجهات الأخرى فيما عدا الإسكندرية ومنطقة القنال - على أن تجلى القوات البريطانية عن الإسكندرية بعد إتمام الثكنات اللازمة لها فى منطقة القنال على أن تقوم الحكومة المصرية بتمهيد الطرق الآتية : القاهرة - السويس ، والقاهرة - الإسكندرية ، الإسكندرية - مرسى مطروح .

على أن تؤيد إنجلترا طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم وقد نُص على أن تعاون مصر حليفتها فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يُخشى خطرها .

وفيما يتعلق بالإمتيازات الأجنبية فقد أتفق على أن تعاون إنجلترا مصر لإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، وإنهاء عمل المحاكم المختلطة - وقد تم ذلك بموجب الإتفاق الذى عُقد فى مؤتمر بسويسرا فى عام ١٩٣٧ بين مصر والدول ذات الإمتيازات فى مصر.

أما فيما يتعلق بالسودان فقد أتُفق على العمل باتفاقيتى سنة ١٨٩٩ وقد ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول ولم تنجح المحاولات التى بُذلت لمفاوضة الإنجليز لتعديل معاهدة ١٩٣٦ بعد أن زاد سخط المصريين عليها ، وإنتهى الأمر بعرض النقراشى باشا فى عام ١٩٤٧ النزاع المصرى - البريطانى على مجلس الأمن - لكن المجلس أوصى بالعودة مرة أخرى إلى المفاوضات .

وفى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ أعلنت حكومة حزب الوفد فى مصر إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير ، و١٠ يوليه ١٨٩٩ الخاصتين بنظام الحكم فى السودان - لكن إنجلترا لم تعترف بهذا الإجراء الذى اتخذ من جانب واحد - وتطورت الأحداث التى أدت لقيام ثورة ١٩٥٢ فى مصر .

أسباب قيام ثورة ١٩٥٢ :

ثورة ١٩٥٢ فى مصر من الثورات الفريدة - فهى ثورة - رغم آثارها ونتائجها العميقة على مصر مجتمعها وتاريخها - ثورة بيضاء لم تُسفك فيها دمائنا

وترجع أسبابها الى عوامل متعددة نذكر منها :

١ - لم يحُقق تصريح ٢٨ فبراير، ولا معاهدة ١٩٣٦ أطماع المصريين ، فلم يتحقق الإستقلال الحقيقى الكامل ، ولم ينجح أسلوب المفاوضات الذى اتبع طوال هذه المفاوضات فى حل القضية المصرية .

٢ - لم يقف الإنجليز عن التدخل فى شئون مصر الداخلية - فكانوا يفرضون إدارتهم على البلاد وفق مصالحهم ، ولم تكن هناك قوة تقف فى وجوههم ، ولعل إنذارهم للملك فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ومحاصرتهم لقصر عابدين بالدبابات ، وقبول الانذار وإجابة طلبهم بتولى الوفد الحكم كان مما أضعف مركز القصر ، والوفد وأثار مشاعر المصريين .

٣ - التضحيات التى قدمتها مصر فى الحرب العالمية الثانية لخدمة أهداف الحلفاء وسد مطالب جيوشهم في مصر وغيرها ، وما تعرضت له البلاد من جانب المحور ، وما تسبب عن فرض الأحكام العرفية فى البلاد - فكان أقل ما يتوقعه المصريون بعد إنتهاء الحرب أن تُجاب

مطالبهم العادلة التى تتلخص فى جلاء القوات الأجنبية عن البلاد ، وسيطرة مصر على قناة السويس ، وإتمام وحدة وادى النيل ، واشتراك مصر فى مؤتمر السلام بعد إنتهاء الحرب .

لكن لم تُبد إنجلترا استعداداً لتحقيق هذه المطالب ، كما أن مجلس الأمن حين عرض عليه محمود فهمى النقراشى القضية المصرية فى عام ١٩٤٧ لم ينصف مصر (١) .

٤ ـ ظلت الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال مطحونة تئن من أوضاعها الإجتماعية ، بينما كبار الإقطاعيين يضعون أيديهم على غالبية أرض مصر ولم يتنبه الوفد فى غمار كفاحه السياسى ـ لمطالب الجماهير الشعبية الملحة فى الإصلاح الإجتماعى الجذرى .

٥ ـ زيادة عدد المثقفين المصريين نتيجة فتح المدارس والجامعات أدى الى خلق طبقة من المثقفين وغالبيتهم من أبناء الطبقة التى تُعانى من الفقر والفوارق الإجتماعية ـ وقد تفتحت عيون هذه الطبقة لحقوقها ، وتأثرت بالأفكار والمبادئ والتيارات الإشتراكية التى سادت العالم بعد الحرب العالمية الثانية .

٦ ـ شعور القاعدة العريضة من العمال والفلاحين بالظلم الواقع عليها ، وقد كان لهذه الطبقة دورها في الكفاح الوطنى فى ثورة ١٩١٩ ، وفى الأحداث التى وقعت فى الفترة بين ثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ فقد إنسحب العمال المصريون من القاعدة الإنجليزية فى القناة مضحين بلقمة العيش لشل حركة المستعمر المتمركز فى البلاد ، كما إنتشر

---

(١) عرضت القضية المصرية على مجلس الأمن فى ٥ أغسطس ١٩٤٧ ، وظل المجلس يتداول فى الأمر حتى ٢٨ أغسطس ـ لكن المجلس قرر دعوة الطرفين إلى التفاوض فيما بينهما لحل الخلاف ـ إنظر مجلس الوزراء : قضية وادى النيل ـ بيانات صاحب الدولة محمد فهمى النقراشى رئيس مجلس الوزراء أمام مجلس الأمن (أغسطس ١٩٤٧)

الوعى بين الفلاحين فى الريف فصاروا . يطالبون بتغير الأوضاع الإجتماعية بما يُحقق لهم حياة كريمة .

٧ ـ حرب فلسطين وما أظهرته من إمتداد الفساد الى الجيش ـ فقد زُج به فى الحرب من غير إستعداد عسكرى ، وزود بالأسلحة الفاسدة وكانت المتاجرة بأرواح الجنود قمة الخيانة ، فكانت النتيجة الهزيمة ـ مما أدى للشعور بالمرارة بين الضباط والجنود الوطنيين .

٨ ـ إضطراب الأمور فى البلاد ، وضعف الوزرارت التى تولت الحكم فى الفترة ما بين ١٩٣٤ ، ١٩٥٢ ، وكانت فترة حكمها قصيرة فلم تتمكن أى منها أن تضع برنامجاً لإصلاح أحوال البلاد وتتاح لها الفرصة لإكماله فقد أصبح تدخل السراى ، والإنجليز لتحقيق مصالحهم دون الإلتزام بالدستور وأحكامه أمراً عاديا .

٩ ـ وكان الغاء وزارة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ ـ وذلك فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ ـ وما تبع ذلك من مذبحة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ـ وحريق القاهر– دليلاً على مبلغ ما وصلت إليه الأمور من الفوضى بحيث لم يكن بد من تغيير فورى . (١)

١٠ ـ حركة الضباط الأحرار : فقد أخذ الشعور بالمسئولية وبأن الوطن ينتظر من الشباب المثقف من ضباطه عملاً ينقذه من الأوضاع التى تردى فيها ، وبدأت الفكرة عند قلة من ضباط الجيش ثم انضم لصفوف الأحرار من الضباط أعداد من الغيورين على مصلحة بلادهم وكانت بداية النجاح حين جرت الإنتخابات لإختيار مجلس إدارة نادى الضباط ـ فسقط فى هذه الإنتخابات أذناب الملك وعيونه ، ونجح الضباط الأحرار فى السيطرة على إدارة النادى .

---

(١) للمزيد من المعلومات يرجع إلي

عبدالرحمن الرافعى : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٩)

وتقدمت الطليعة من الضباط الأحرار بطلبات لإصلاح شئون الجيش وتغيير القيادات فيه ليصبح قوة حقيقية فى خدمة مصر ـ لكن الملك لم يبُد استعداداً للإستجابة لمطالب الضباط الأحرار .

ولذا قررت الطليعة من الضباط الأحرار القيام بثورة فى صبيحة يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ لتضع حداً للفوضى والإضطراب الذى تُعانى منه البلاد ـ وتم لها ذلك بنجاح منقطع النظير .

ما حققته ثورة يولية ١٩٥٢ :

لقد حددت الثورة أهدافها من البداية فى المبادئ الستة التى أعلنتها وهى :

١ ـ القضاء على الإستعمار وأعوانه من الخونة المصريين .

٢ ـ القضاء على الإقطاع .

٣ ـ القضاء على الأحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

٤ ـ إقامة عدالة اجتماعية .

٥ ـ إقامة جيش وطنى قوى .

٦ ـ إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

ولتحقيق هذه الأهداف :

١ ـ قضت الثورة على الملكية الفاسدة وأجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش لولى عهده ، وغادر البلاد فى ٢٦ يولية ١٩٥٢ , وفى ١٨ يونية ١٩٥٣ أعلن مجلس قيادة الثورة إلغاء الملكية وقيام الجمهورية .

٢ ـ وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون الإصلاح الزارعى الذى قضى بتحديد الملكية الزراعية بما لا يزيد عن ٢٠٠ فدان للفرد ، وإنخفض هذا النصاب الى ١٠٠ فدان بمقتضى القانون الذى صدر فى ١٩٦١ ـ

ونص القانون على إنشاء جمعيات تعاونية لمعاونة صغار المزارعين .

٣ ـ مسألة السودان : فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ نجحت حكومة الثورة فى توقيع إتفاقية السودان مع إنجلترا بهدف تمكين السودانيين من الوصول الى الحكم الذاتى .

٤- مسألة الجلاء : نجحت حكومة الثورة أيضاً فى توقيع إتفاقية الجلاء مع انجلترا فى ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ وبموجبها ألغيت نهائيا معاهدة ١٩٣٦ وحددت مدة عشرين شهراً يتم فى خلالها خروج جميع القوات البريطانية من مصر .

٥- تأميم شركة قناة السويس والعدوان الثاثى على مصر : فى ٢٦ يوليه ١٩٥٦ اعلنت حكومة الثورة مصر تأميم شركة قناة السويس وتصدت فرنسا وانجلترا لهذا العمل فدعت الى عقد مؤتمر فى لندن فى ١٦ اغسطس ١٩٥٦ للنظر فى أمر تدويل القناة ، وأسفر عن مؤتمر لندن ظهور (مشروع دلاس) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية وهو يهدف الى تدويل القناة وفرضه علي مصر ، وتقدمت مصر الى مجلس الأمن بشكوى لنظر القضية باعتبار أن التأميم حق خاصة أن مصر أبدت إستعدادها لتعويض المساهمين عن حقوقهم تعويضاً عادلاً - وقد وصل مجلس الأمن إلى اتفاق يقضى باحترام سيادة مصر على أراضيها ويدعو مصر للدخول فى مفاوضات مع الدول المنتفعة بالقناة بشأن تحديد رسوم المرور تحديداً عادلاً يراعى فيه مصلحة الطرفين - ويقضى كذلك بأنه إذا اختلفت الحكومة المصرية مع الشركة السابقة للقناة يجب الإلتجاء للتحكيم لفض الخلاف بينهما .

وقد دبرت انجلترا وفرنسا واسرائيل عد إنهم الغاشم علي مصر فى ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ - وانقضت القوات المعتدية على المدن المصرية

خاصة مدن القنال تمطرها بقنابلها لكن أمام بطولة الشعب والجيش المصرى ومقاومته الباسلة - وأمام إجماع الدول الكبرى أضطرت الدولة المعتدية للإنسحاب .[1]

وترتب على ذلك أن أعلنت مصر إنتهاء العمل باتفاقية الجلاء التى ابرمت مع انجلترا فى اكتوبر ١٩٥٤ ، وكان لانتصار مصر صداه فى الدول الأفريقية خاصة تلك التى كانت تطالب بحريتها وإستقلالها .

٦- **إعلان دستور ١٩٥٦ :** ألغت الثورة دستور ١٩٢٣ وأعلنت فى يناير ١٩٥٣ حل الأحزاب القديمة كلها باعتبارها مسئولية عن إفساد الحياة السياسية فى مصر .

والفت حكومة الثورة فى يناير ١٩٥٣ لجنة لوضع مشروع دستور جديد .

وفي عام ١٩٥٦ اعلنت باسم الشعب مواد الدستور الجديد الذى يعبر عن إراده الشعب وأماله العريضه - والدستور الجديد من ١٩٦ مادة تتضمن المبادئ والقواعد التى توضح ملامح المجتمع الجديد .

وقد أقر هذا الدستور النظام الجمهورى الرياسى ، كما أقر أن مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة - وحدد السلطة التشريعية فى (مجلس الأمة) وينتخب أعضاؤه لمدة خمس سنوات ، كما قرر استقلال القضاء ، وكفل المساواة في الحقوق بين جميع المواطنين ، وإعطى للمرأة حق الإنتخاب والاشتراك فى عضوية مجلس الأمة .

٧- **السياسة الخارجية في ظل مبادئ الثورة :** حددت مصر في ظل حكومات الثورة سياستها الخارجية في إطار تأييد قضايا الحرية والاستقلال ، واستنكار استعمار الشعوب ، ونبذ سياسة القوة

---

(١) للمزيد من المعلومات يرجع إلى

محمد أحمد أنيس وآخرون : العدوان الثلاثى على مصر (القاهرة ١٩٥٦)

كوسيلة لحل المشاكل الدولية ، كما نادت بسياسة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز .

يتضح ذلك من موقف مصر فى مساندة حقوق الشعوب المظلومة سواء فى الأمم المتحدة أو في المؤتمرات الدولية أوالأفريقية أوالآسيوية .

ومصر من الدول المؤسسة لحركة عدم الإنحياز ودورها فى مؤتمر باندنج في أبريل عام ١٩٥٥ دليل على ذلك - فهذا المؤتمر الذى لعبت فيه مصر دوراً فعالاً يعتبر بحق أول مؤتمر فى التاريخ الحديث ينجح فى وضع أسس عادلة لحل مشكلات أفريقيا وآسيا .

أما موقف ثورة يوليو ١٩٥٢ من القضايا العربية فهو نابع من شعورها بمسئوليتها بصفتها الشقيقة الكبرى للدول العربية ، ولذا ساندت حركات التحرير فى الجزائر وباقى دول المغرب العربي بالإضافة الي مساندتها للحركات الوطنية فى المشرق العربى ولشعب فلسطين فى كفاحه المرير فى سبيل حقه الطبيعى فى أن يكون له وطن آمن ، وفى الوقوف فى وجة أطماع اسرائيل فى هذه البلاد العربية - وقد خاضت مصر الحروب وسقط الآف الشهداء وعاني إقتصادها الكثير من جراء ذلك .

ودور مصر في قيام منظمة الوحدة الأفريقية (١٩٦٣) وفي دعمها للقيام برسالتها نابع أيضا من الشعور بواجبها بحكم أنها دولة أفريقية وبحكم موقعها على الباب الشمالى الشرقى للقارة (١) .

هذه بعض المعالم من إنجازات ثورة يوليو ١٩٥٢ ويضيق المجال لتفصيل كل ماحققته هذه الثورة ومازالت تحققه .

تقييم لثورة يوليو ١٩٥٢ :

لاشك فى أن الثورة قد حققت الكثير من أمان وطموح الشعب

(١) للمزيد من التفاصيل عن دور الثورة الأفريقى يرجع إلى :
شوقى الجمل : الدور الأفريقى لثورة ٥ يوليو ١٩٥٢ (الهيئة المصرية للكتاب ١٩٥٤)

المصرى وصححت الكثير من الأخطاء التى تعرض لها الذين تقدموا الصفوف في ثورة ١٩١٩ .

لكن لابد أيضا أن نشير الى أن أمام هذه الثورة الكثير مما يُرجى أن تحققه - كما أنها ككل عمل ثورى لابد أن تلاقى بعض الظروف التى قد تحرف مسارها لكن من حسن حظ مصر أن الثورة بإعتبارها نابعة من الشعب فهي قادرة على تعديل مسارها والسير بخطى قوية حثيثة للتغلب على مايصادفها من عقبات .

مراجع
للمزيد من المعلومات

أولا : مراجع عربيه أو معربة :

١ – أحمد زكريا الشلق : معالم التاريخ المصرى الحديث الدوحه ١٩٨٦

٢ – احمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن.

٣ – أرثر ادوادو شمت : الحزب الوطنى المصرى (ترجمة فؤاد دواره – ١٩٨٣) .

٤ – جلال يحيى : أصول ثوره يوليه ١٩٥٢ (الاسكندريه ١٩٦٠)

٥ – جمهورية مصر : القضية المصرية ١٨٨٢ – ١٩٢٤ (القاهرة ١٩٥٥)

٦ ـ جمهورية مصر: السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ ـ ١٢ فبراير١٩٥٣ .

٧ – حمدى حافظ : ثورة ٢٣ يوليه (القاهرة ١٩٦٤) .

٨ ـ شوقى الجمل : الدور الأفريقى لثورة يوليو ١٩٥٢ (القاهرة١٩٥٤)

٩ـ صلاح عيسى : الثوره العرابية .

١٠ ـ عبدالرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ١٩٤٩

١١ـ عبدالرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٩٤٨ .

١٢ – عبدالرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .

١٣ – عبدالرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ جزءان القاهرة ١٩٥٥ .

١٤ – عبدالرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ٣ أجزاء .

١٥ – عبدالرحمن الرافعى : مقدمات ثورة يولية ١٩٥٢ .

١٦ – فتحى رضوان : مصطفى كامل (القاهرة ١٩٤٦) .

١٧ – مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : أوراق مصطفى كامل .

١٨ – مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : أوراق محمد فريد .

١٩ – محمد أنيس وأخرون : العدوان الثلاثي على مصد (١٩٥٦) .

٢٠ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصريه البريطانية ١٩٥٢

٢١ – محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصره وقيام الجمهورية العربية المتحدة .

٢٢ – محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطاني لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه (١٩٥٠) .

٢٣ – مصطفى الحفناوي : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة جـ ٤ (١٩٥٦) .

٢٤ – مكى شبيكة : بريطانيا وثورة ١٩١٩ المصرية (١٩٧٦)

ثانياً : مراجع باللغات الأجنبية:

1 - Afaf. Al Sayyid : Egypt & Cromer (London 1968)

2 - Arthur, George,Sir : Life of Lord Kitchener 3 Vols (London 198)

3 - Blunt , W : Thes Seeret History of The British Oecu pation of Egypt (London 1923

4 - Cromert The Earl of : Modern Egypt 2 Vols (N.y.1908)

5 -Hoit P.M : Political (and Social Change in Modern Egypt 1968

6- Lioyod,L. Egypt Since Cromer 2 Vols (London 1933 -34)

7-Maurice , Clonel : Campaign of 1882 in Egypt.

8 - Milner , Alfred: England in Egypt.

9 - Morlowe , J .: Anglo - Egyptian Relations 1800 - 1956 (London 1965) .

10- Ninent, John, : Arabi Pacha (1894) .

11 - Scotidis : l'Egypte Contemporane et Arabi PaCha .

الفصل السابع

الثورة المهدية فى السودان

(دراسة لأوضاع السودان من ١٨٨٠ إلى ١٨٩٩)

المحتويات :

١ ـ مقدمة :الاداره المصرية للسودان منذ عهد محمد على وحتى قيام الثورة المهدية

٢ ـ حركة المهدى بالسودان

٣ ـ تطورات الحركة :

(محاولات رؤوف باشا للقضاء على الحركة ، هجرة المهدى الى كردفان ، سقوط الأبيض ، حملة هكس ، الثورة فى شرقى السودان ، ارسال غوردون لسحب الحاميات والموظفين المصريين ، سقوط الخرطوم ونهاية غوردون)

٤ ـ أحوال السودان فى فترة حكم المهدية :

- ادارة السودان .
- الموارد المالية للدولة .
- الحالة الاقتصادية .
- العملة .
- المواصلات .
- السلطة القضائية .
- القوة الحربية .
- حروب الخليفة

مقدمة :

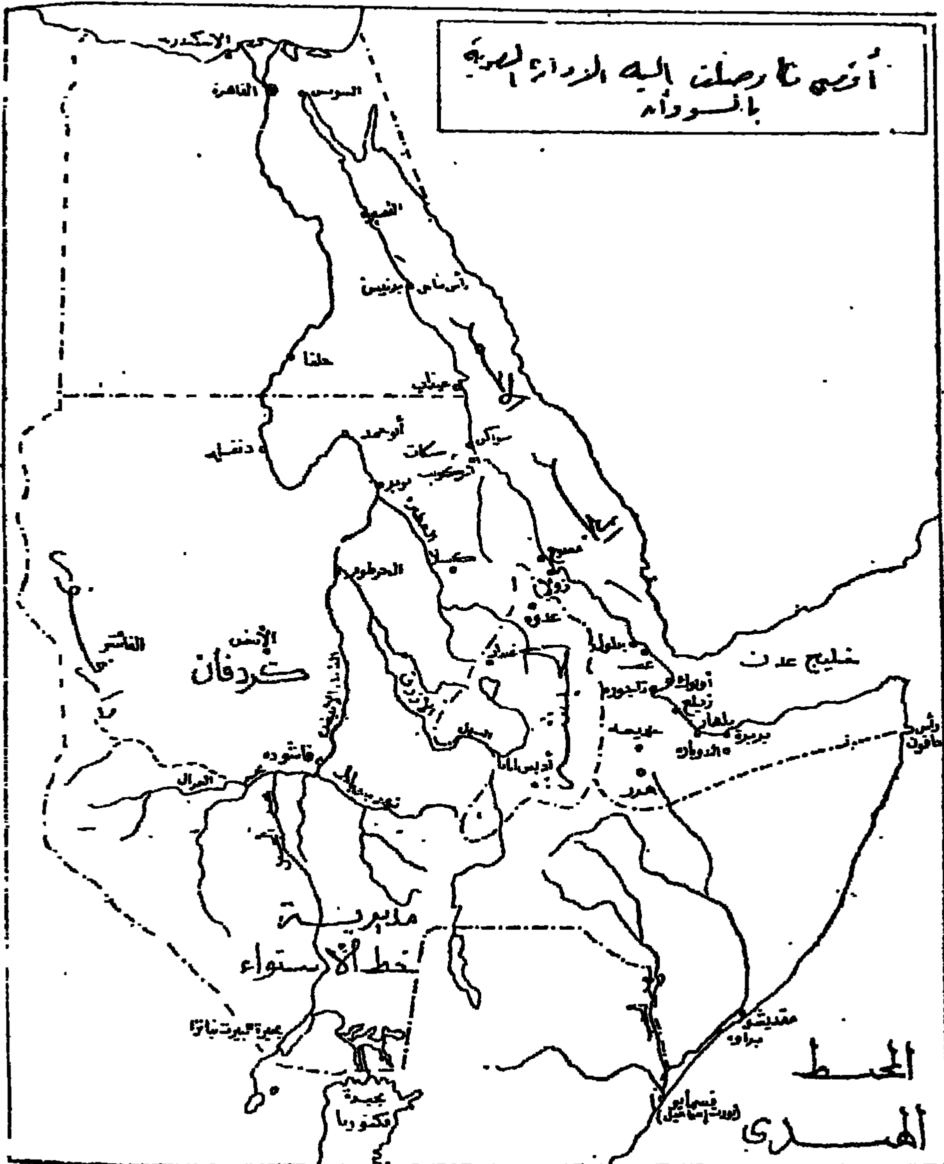
امتدت الادارة المصرية الى السودان فى عهد محمد على ، فقد ضم سنار ، وكردفان الى ادارته . وفى عهد اسماعيل امتدت الادارة المصرية فى السودان الى مناطق جديدة - كما شرحنا فى دراستنا السابقة .

فقد ضم بحر الغزال ، ودارفور للادارة المصرية ، كما امتدت الادارة المصرية فى السودان الى أقاليم جديدة مطلة على البحر الأحمر ، فشملت هذه الادارة سواكن ومصوع ، وبربرة ،وزيلع ، بل ارسلت حملة استولت على هرر .

وفى الجنوب امتدت الادارة المصرية لمديرية خط الاستواء . ولم تسر الإدارة المصرية فى السودان على وتيرة واحدة كل الوقت ، فقد كانت البلاد كلها تخضع أحياناً لحكمدار واحد لكن فى بعض الأحيان أيضاً كانت تُعزل المديريات عن بعضها فى الإدارة أو تدمج مديريات معينة تحت إدارة واحدة (مديريات عموم) .

لكن بوجه عام كانت تدار البلاد بواسطة الحكمدار يعاونه المديرون فى الأقاليم ، ونظار الأقسام ، ومشايخ الأخطاط ، أما القبائل الرحل فلها شيوخها ، وشيخ القبيلة يتصل بالمديرية رأساً .

وفى ظل هذه الإدارة تحقق الى حد كبير الأمن ، كما تحقق التطور الاقتصادى فى ميدان الزراعة ، والصناعة ، والتعدين ، وانشئت مدن كبرى كالخرطوم ، وكسلا وغيرهما ، وارتبط السودان جنوبه وشرقه وغربة بمصر وبالعالم الخارجي، وأصبح السودان - الذى كان قبل امتداد الادارة المصرية إليه فى ١٨٢٠ - سلطنات (سلطنة الفونج ، وسلطنة الفور) وممالك منفصلة ، ووحدات قبلية - يرتبط ببعض فى ظل إدارة مركزية فى الخرطوم أو كمديريات ترتبط فى النهاية بقوانين وتعليمات صادرة من القاهرة .



شكل رقم (١)

أقصى ما وصلت إليه الادارة المصرية

فى السودان (فى عهد الخديوى اسماعيل)

حركة المهدى بالسودان

فى أغسطس ١٨٨١ بدأت فى السودان حركة ضد السلطات الحاكمة تزعمها محمد أحمد المهدى .

ولد محمد أحمد - الذى تزعم الحركة المهدية - فى جزيرة ضرار فى مديرية دنقلة فى عام ١٨٤٨ من عائلة كان أفرادها يعملون فى بناء السفن - لكنه ولع بالعلوم الدينية ، وغلب عليه التصوف ، وانصرف للعلم.

وقد تعلم فى إحدى المدارس القرآنية (الخلاوى) وكان شيخه هو الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم ، وقد أصبح لمحمد أحمد مركز ممتاز عند استاذه لما تميز به من الصلاح والزهد :

وانتقل بعد ذلك مع اخوته إلى جزيرة أبا (Abba) هم يصلحون السفن وهو يتعبد بجوار الشاطئ - وكان يعيش حياة زهد وتقشف يقتات من صيد السمك بسنارته ، وكان يزور استاذه من حين لآخر [(١)] .

ومن يتبع تطورات الحركة المهدية منذ بدأ محمد أحمد المهدى دعوته فى أغسطس ١٨٨١ وحتى سقوط الخرطوم فى يد أتباعه فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ يذهل للسرعة التى تطورت بها الأحداث .

فقد مرت الحركة بالمراحل التالية :

١ - فى أغسطس ١٨٨١ بدأت حركة المهدى ، باعلانه أنه المهدى المرتقب ، والذى ينتظره العالم الإسلامى ليخلص الإسلام مما علق به من إنحرافات تخالف تعاليم الدين الصحيح ، وكان سنه فى ذلك الوقت دون الأربعين وقام برحلة لكردفان طاف فيها بأنحائها ينشر دعوته ، ثم عاد لجزيرة أبا .

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن حياة المهدى يرجع إلى :
Slatin,R.C : Fire and Sword in the Sudan (1879-1895)
[Translated by F.R Wingate - London 1896]

وقد إنضم البعض لدعوته ، وعاهدوه على نصرته ولعل الأوضاع التى آلت إليها الأمور فى السودان فى ذلك الوقت ، وكراهية الناس للحكومة بسبب العنف الذى اتبعه غوردون حين كان حكمداراً للسودان وهو يحاول تنفيذ سياسة إلغاء تجارة الرقيق بالقوة ومضاعفة الضرائب ، بالإضافة إلى ضعف الحكومة فى مصر خاصة بعد عزل اسماعيل فى١٨٧٩ ـ كل هذه سهلت إنضمام الناس لحركة المهدى ، والإيمان بدعوته خاصة بعد الأنتصارات العجيبة التى حققها على قوات الحكومة .

٢ ـ لما علم رؤوف باشا حكمدار السودان ـ الذى خلف غوردون فى الحكمدارية بخبر المهدى ـ أرسل له رسولاً يستدعيه للخرطوم لمقابله الحاكم العام ـ لكن محمد أحمد رفض المجئ .

فأرسل رؤوف باشا قوة لإحضاره ـ لكن أساء ضباط هذه القوة المرسلة التصرف فحين وصلوا لجزيرة أبا قسموا أنفسهم فرقتين كل فرقة نزلت على ساحل ، وقد أتاح ذلك الفرصة لأتباع المهدى لمهاجمة جنود الفرقتين وإفنائها .

٣ ـ الهجرة إلى كردفان : بناء على نصيحة عبدالله محمد التعايشى ـ وهو من جماعة البقارة بغرب السودان (دارفور) ، وكان قد ألتقى المهدى وانضم إليه ـ انتقل المهدى واتباعه للغرب (كردفان) ، وهى منطقة بعيدة عن مركز الحكومة ونفوذها ، وقيل إن المهدى فى هجرته هذه للغرب كان متشبهًا بالرسول ﷺ فى هجرته ـ وقد رحب بعض الأهالى وزعماء القبائل هناك بالمهدى وأتباعه ، وقد بذلت الادارة بالسودان محاولات للتصدى لهذه الحركة التى استشرى أمرها ـ لكنها أخفقت فى الإيقاع بالمهدى ورجاله وأدى ذلك بالطبع لزيادة أتباع المهدى.

وأرسل حكمدار السودان لمصر يطلب تعزيزات لإخماد هذه الفتنة لكن قيام الثورة العرابية فى مصر جعل الحكومة عاجزة عن إرسال أية بخرة السودان ـ فأرسل عبد القادر باشا حلمي للسودان ليحل محل محمد رؤوف باشا ـ لكن على الرغم من أن عبد القادر حلمي باشا رسم خطة ناجحة لتأمين الخرطوم وغيرها من المناطق النيلية ، وبدأ يحارب المهدى بنفس سلاحه ـ سلاح الدين ـ فكلف عدداً من رجال الدين بأن يثبتوا بطلان دعوة المهدى بأنه المهدى المنتظر ـ لكن الحكومة المصرية استدعت عبدالقادر حلمي باشا من السودان لأسباب غير مفهومة .

٤ ـ سقوط الأبيض : حاصرت قوات المهدى (الأبيض)وقد إستمر الحصار أكثر من ستة شهور ، لاقت خلالها حاميتها الكثير من الضنك فقد قلت المؤن حتى أن رجال الحامية اضطروا إلى أكل أى شئ يصل إلى أيديهم من لب أشجار النخيل والصمغ والجلود ، ولما وصلت الحالة إلى درجة اليأس كتب محمد باشا سعيد رئيس حامية المدينة وكبار القواد للمهدى يعرضون التسليم له على أن يعد بحماية أرواح رجال الحامية جميعا ـ فوافق المهدى ودخلت قواته الأبيض في ١٩ يناير ١٨٨٣ واستولت على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، واستقر المهدى فى ديوان الحكومة بالأبيض ، وأمر بإرسال ضباط الحامية الى أماكن بعيدة حيث قتلوا .

٥ ـ **حملة هكس** : جهزت حملة بقيادة هكس باشا (Hiecks Pa-sha)وهو ضابط انجليزى خدم فى الهند ووضعت تحت يده قوة من ١٠,٠٠٠ جندى من أنواع مختلفة ـ وذلك بعلم انجلترا التى كانت تحتل مصر فى ذلك الوقت ـ وبمشورتها .

وفى ٨ سبتمبر ١٨٨٣ تحرك هكس باشا بحملته من الدويم صوب

كردفان ، لكن انتهى أمر الحملة بأن ضلل بها في طريق وعر في وسط غابات (شيكان) الكثيفة ، واستطاعت قوات المهدى المختبئة بين الأحراش أن تحصد رجال الحملة الذين كان قد أضناهم العطش فلم ينج من رجال الحملة سوى مالقرب من ٣٠٠ جندى .

وقد سرت أخبار انتصارات قوات المهدى في كل أرجاء السودان وأدت إلى تدفق المؤيدين للمهدى ، وأضطر حاكم دارفور (سلاتين باشا) للاستسلام ، وكذلك حاكم بحر الغزال (فرانك ليبتون) ، وهكذا أصبح السودان الغربي كله في يد المهدى ، أما حاكم مديدية خط الأستواء (امين باشا) فقد تراجع للجنوب وانقطعت صلته بالخرطوم .

٦ - الثورة فى السودان الشرقى : انتشرت الثورة فى شرق السودان، خاصة أن المهدى عين (عثمان دقنة) أميراً على شرق السودان وأمره بإخضاع هذه الجهات وكان عثمان دقنه من أقوى الشخصيات التى انضمت للمهدي .

وقد كان يهم انجلترا المحافظة على موانئ البحر الأحمر التى تتحكم في الطريق الملاحى للهند - فنصحت الحكومة المصرية بإرسال قوة على رأسها فالنتين بيكر شقيق المكتشف صموئيل بيكرلحماية طوكر وسواكن - لكن نجحت قوات المهدى فى شرق السودان فى ٥ فبراير ١٨٨٤ في هزيمة هذه القوة وقتل عدد كبير من جيش بيكر الذى أضطر للإنسحاب إلى سواكن ، وقد وافقت انجلترا على إرسال قوة أخرى لسواكن استطاعت أن تحول دون وقوع سواكن فى أيدى اتباع المهدى .

٧ - ارسال غوردون لسحب الحاميات المصرية والموظفين من السودان : أشارت الحكومة البريطانية على الحكومة المصرية - بإرسال غوردون لإخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية والموظفين وترحيلهم

الى مصر ، وإعادة السلطة في أنحاء السودان المختلفة لعائلات الحكام السابقتين ـ وذلك لمعرفة غوردون السابقة بالسودان .

وفى ١٨ يناير ١٨٨٤ غادر غوردون لندن متجها للقاهرة فى طريقه للخرطوم ، وقد وصل غوردون إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ .

وقد أنعكست شخصية غوردون وما اشتهر به من تردد وعدم ثبات على رأى معين مدروس ـ حتى فى أخطر المواقف ـ على تصرفاته فى السودان ـ فقد انحصرت مهمته فى الخرطوم حين غادر لندن ـ فى مجرد موافاة الحكومة البريطانية بتقارير عن أفضل الوسائل لتحقيق الإنسحاب من السودان ، لكنه إتجه بعد ذلك للتفكير فى أن يقوم بتسليم البلاد إلى ذريات السلاطين السابقين الذين كانوا يحكمون قبل امتداد الادارة المصرية للسودان ، وفكر فى وقت ما فى أن يرسل له الزبير باشا رحمت الذى كان بالقاهرة ليتولى أمر السودان لما له من مكانة وألح على ذلك ، وتعددت أفكاره بخصوص جنوب السودان ، كما اتجه تفكيره ـ خاصة بعد أن ضيق المهدى عليه الخناق ـ لأن ترسل له الحكومة البريطانية قوة من الهند تساعده على إخضاع قوات المهدى ـ وقد أخذ سيل البرقيات ينهمر على بارنج فى القاهرة حتى أن عدد البرقيات التى كانت تصل إليه يومياً ـ تتروا ح بين العشرين والثلاثين برقية ، وكان التضارب فيها بين الأراء واضحاً .

٨ ـ سقوط الخرطوم ونهاية غوردون : رغم أنه وصل لعلم الحكومة الإنجليزية فى ٢٥ مارس ١٨٨٤ أن الخرطوم ـ أصبحت محاصرة من كل جانب ، وأن الخط التلغرافى بين القاهرة والخرطوم ـ قد قطع ـ فإنها أغمضت عينيها عن الحالة وأرسلت للسيد اقلين بارنج لمحاولة الأتصال بغوردون وإخباره أن الحكومة تترك له الحرية في البقاء حيث هو أو

الإنسحاب عبر أى طريق يهتدى إليه وأخيراً قررت الحكومة البريطانية إرسال الجنرال كتشنر (Kitchener) ليستقر كضابط مخابرات فى مركز أمامى على النيل ليمكنه تلقى أخبار غوردون ، وتوصيل الأخبار إليه.

وفى ٢٦ مايو ١٨٨٤ سقطت بربر فى أيدى الأنصار - وأمام هياج الرأى العام فى إنجلترا - قررت الوزارة البريطانية إرسال حملة بقيادة اللورد ولسلى (LordWolseley) لانقاذ غوردون لكن الأمور أخذت تطورا سريعا - فقد أخذت قوات المهدى تضيق الخناق على الخرطوم فى الوقت الذى كان غوردون قد علم بإخبار حملة الإنقاذ وكان يترقب وصولها بفارغ الصبر وانتهى الأمر بسقوط أم درمان فى يد قوات المهدى فى ١٥ يناير ١٨٨٥ وأصبح مركز الخرطوم حرجًا للغاية .

٨ - **سقوط الخرطوم** : فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ عقد المهدى مجلسا من خلفائه ، وكبار أعوانه ، وبعد التداول أصدر المهدى أوامره لشن الهجوم على الخرطوم وقد شجع المجتمعين لاتخاذ هذا القرار المعلومات التى وصلتهم من الفارين من المدينة المحاصرة عن إنتشار المجاعة والأمراض بها.

وفى صبيحة ٢٦ يناير ١٨٨٥ زحف حوالى ٥٠٫٠٠٠ من الدروايش بقيادة عبدالرحمن النجومى على استحكامات الخرطوم التى كان غوردون قد حفر حولها خندقا لحمايتها - ودخل الدراويش المدينة وهاجموا سراى الحاكم حيث كان غوردون مختبئاً بها فبادروا بطعنه وحزوا رأسه وأرسلوها للمهدى في أم درمان .

أما عن حملة الإنقاذ فقد لاقت مشاق عبور النيل عند الجندل السادس فلم تصل على مشارف الخرطوم إلا فى السابع والعشرين من يناير ١٨٨٥، ولما علم قائد الحملة بأخبار مقتل غوردون وسقوط الخرطوم أبرق للحكومة البريطانية-وقد أحدث مقتل غوردون بهذه الطريقة هزة عنيفة فى انجلترا .

أحوال السودان فى فترة حكم المهدية

توفى محمد أحمد المهدى فى ٢٢ يونية ١٨٨٥ أى بعد فتح الخرطوم بما يقرب من ٥ شهور وخلفه عبدالله التعايشى ، وقد امتدت فترة حكمه ثلاث عشرة عاما (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨) وقد اتخذ المهدى (أم درمان) عاصمة للدولة بعد أن ضُربت الخرطوم ، وقد تحولت من قرية صغيرة الى مدينة كبيرة ، وفى وسط المدينة بنى الجامع الكبير ، وقد أضُطر الأمراء لأن يتخذوا لهم منازل فى أم درمان ـ ولعل الخليفة عبدالله التعايشى ـ الذى حرص على أن ينفذ الأمراء هذا ـ كان يرى في هذا الأجراء ضماناً لولائهم له ، هذا بالأضافة الى ما أجراه من عملية الهجرة الضخمة لأبناء عشيرته من الغرب ليعيشوا حوله .

وقد حاول المهدى إقامة أحكام الشريعة والدين بقدر فهمهم لها فقد حرم التدخين كما حرم شرب المسكر وقد كونّ المهدى (مجلسا من الأمناء) تحت رئاسة الخليفة عبدالله التعايشى للنظر فى الشئون الادارية، فكان هذا بمثابة وزارة على رأسها الخليفة

وقد تفرغ المهدى في فترة حكمه القصيرة للشئون الدينية ، فكتب المنشورات والرسائل .

وعين المهدى أربع خلفاء على غرار الخلفاء الراشدين ـ وهم عبدالله التعايشى ، وعلى ودحلو ، وخصص المكان الثالث للسيد المهدى السنوسى كله رفض أن يشغله ومحمد الشريف ابن عم المهدى .

وحين تولى الأمر الخليفة عبدالله التعايشى فى يونية ١٨٨٥ ركز السلطة في شخصة فهو الذى يهيمن على الإدارة المركزية فى (أم درمان) ، وهو الذى يعين الحكام فى المديريات ، ويشرف على بيت المال ،

وعلى أعمال القضاء ، ويعين أمراء الجيوش ، واستعان الخليفة فى تصريف شئون الدولة بأخيه يعقوب الذى كان ملماً بالقراءة والكتابة ، وعمد الخليفة عبدالله التعايشى من المبدأ إلى تجريد الخلفاء الآخرين من كل نفوذ وسلطة مما أدى لثورتهم عليه ، ولذا نشر عيونه وجواسيسه فى كل مكان وقضى على كل من شك في ولائه له .

وقسم الخليفة السودان الى ست مقاطعات (عمالات) عين على كل منها (عاملاً) أو (أميراً) ومن أشهر الأمراء- عثمان دقنه فى السودان الشرقى ، ود النجومى فى السودان الشمالى .

الموارد المالية للدولة : كانت العشور أو الزكاة هى أهم موارد الدولة على أنه فى كثير من أجزاء السودان كان الأمر عبارة عن جمع المال بقدر ما تسمح به الظروف ، كما كان الصرف بهذه الوسيلة أيضا.

الحالة الإقتصادية : أصاب الأقتصاد السودانى كثيراً من التدهور فمساحات واسعة من الأرض على ضفتى النيل تركت بوراً ، وحتى الصمغ الذي كانت تنتجه كردفان انخفض محصوله لهجرة كثير من قبائل كردفان وتمركزهم فى أم درمان ، وقد فتكت الأوبئة بعدد كبير من الأهالى.

العملة : استغل المهديون الضربخانة المصرية ،واستخدموا المصريين العاملين بها

المواصلات : كانت صعوبة المواصلات بين الأماكن البعيدة وقصر الحكومة فى أم درمان من الأمور التى جعلت ولاة الأقاليم البعيدة شبه سلاطين أو ملوك مستقلين بأقاليمهم .

السلطة القضائية : عهد بالسلطة القضائية لأشخاص يحكمون وفق الشرع الإسلامى بقدر فهمهم له - لكن القضايا التى تمس أمن الدولة كان يفصل فيها الخليفة بنفسه .

الطباعة والاتجاهات الفكرية : استغلت المطبعة الحجرية التى استولوا عليها بالخرطوم ، واستعانوا لإدارتها بعدد من المصرين .

القوة الحربية : رغم ما كان يؤكده المهدى من أن الملائكة تحارب معه - فقد أدرك أهمية تدبير ميدان الحرب ، فاستعان بالمصريين والأجانب فى ذلك ، كما أنهم استغلوا ما غنموه من أسلحة فى حروبهم السابقة مع المصريين ، وقد استولى المهدي على خمس بواخر من الإدارة المصرية السابقة حاولوا أصلاحها واستخدامها .

حروب الخليفة : واجه التعايشى عدة فتن داخلية اضطر لاخمادها - كما دخل في مغامرات حربية متعددة أهمها :

أ - مع الحبشة : دخل الإحباش في حروب مع الدراويش بسبب الأقاليم التى على حدود الدولتين (القضارف ، والقلابات) وقد استطاعت قوات الخليفة أن تهزم قوات الحبشة في واقعة القلابات فى عام ١٨٨٩ - لكن لما تولى منليك عرش الحبشة هادن الدراويش ليتفرغ لحروبه ضد الإيطالين .

ب - مع مصر : كان الخليفة عبدالله مصراً على غزو مصر فعهد فى عام ١٨٨٩ إلى (عبدالله النجومى) بغزو مصر . وفى ٢ أغسطس ١٨٨٩ وقعت بين الطرفين معركة توسكى) وقتل فيها النجومى نفسه ومايقرب من ١٢٠٠٠ من رجاله .

كما أوقعت القوات المصرية الهزيمة بقوات عثمان دقنة قرب سواكن فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ وقرب طوكر فى ١٩ فبراير ١٨٩١ .

جـ - مع الإيطاليين : إحتل الإيطاليون مصوع وأخذوا يمدون نفوذهم جنوبا وغربا مما أدى لاصطدامهم مع الدراويش .

وقد انهكت هذه الحروب المتتالية قوى التعايشى وشجعت انجلترا على اخذ قرار بالعمل لاسترداد السودان .

شكل (١١)

السودان فى عهد المهدية .

الفصل الثامن

استرداد السودان
ونظام الحكم الجديد فيه

المحتويات

أخلى السودان كله - كما سبق أن ذكرنا - ماعدا سواكن التى حرصت انجلترا على الا تقع فى أيدى المهديين لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لها.

لكن انجلترا من جانبها ودون استشارة مصر قررت فى عام ١٩٨٦ استرداد السودان، وقد تم ذلك بواسطة الجيش المصرى الجديد الذى كان قد تم إعداده بعد تسريح جيش عرابى، وبالاستعانة ببعض الضباط الانجليز وعلى رأسهم كتشنر .

ومن أهم الدوافع التى دفعت انجلترا لإقرار سياسه استرجاع السودان والقضاء على قوه المهديين فيه .

١ - **مركز انجلترا فى مصر:** فقد كانت انجلترا إلى ذلك الوقت تنظر لإحتلالها لمصر على أنه إجراء موقت - لكن أدت التطورات السياسية إلى أن تنظر انجلترا الى أن وجودها فى مصر سوف يطول، فكان طبيعيا أن تهتم بتوفير الاستقرار الإقتصادى لمصر، وأن تعمل لتأمين حدود مصر الجنوبية، وهذا لايتوفر وعلى حدود مصر الجنوبية قوة تهدد سلامة مصر، وقد تكرر التهديد بمنع تدفق مياه النيل عن مصر. (١)

٢ - **مشروعات ضبط النيل** : أجريت في هذه الفترة عدة دراسات قام بها مهندسون فرنسيون وغيرهم - أثبتت أن تطور الاقتصاد المصرى خاصة فى مجال الزراعة - يستلزم القيام بمشروعات مدروسة على منابع

---

(١) لمن يريد المزيد عن مشكلة التحكم فى مياه النيل الأتية لمصر يرجع الى :

Johnston, H.: The Nile Quest .(1904)

النيل الاستوايه وعلى مجرى النهر ، ولايتوفر ذلك والسيطرة على أعالى النيل وجزء هام من مجراه فى أيدى قوة معادية .

٣ - **تحسن موقف الماليه المصرية والجيش المصرى** : فالجيش المصرى الجديد أثبت كفاءته وقدرته على مواجهة الأنصار ، كما أن المالية المصرية أصبحت قادرة على الصرف على الحملات المرتقبة فلا يتحمل دافعو الضرائب البريطانيون أعباء مالية أخرى .

٤ - **حالة الأنصار** : المعلومات التى وصلت إلى القائمين بالأمر في مصر عن طريق الأسرى الذين هربوا من أسر المهديين - مثل سلاتين باشا أكدت سوء حالة الأنصار ، ومابينهم من خصومات وتنافر بسبب سياسه عبدالله التعايشى التى شرحناها سابقا .

٥ - **شعور الانجليز بعقدة الذنب** : فقد وجد عدد من المسئولين الانجليز حملوا الحكومة الانجليزية مسئولية وقوع السودان فى أيدى جماعة نشرت الفوضى بين أرجائه ،وكذلك حملوها مسئولية مقتل غوردون بالخرطوم لعدم تقديم المساعدة التى طلبها فى الوقت المناسب .

٦ - **موقف الدول الاستعمارية من السودان** : فقد شجع انتهاء الإدارة المصرية في السودان الدول المعادية . (١)

٧ - **انتصار الأحباش على الإيطاليين فى عدوه فى أول مارس ١٨٩٦** : فقد خشيت انجلترا أن يتحالف الأجياش والمهديون معاً مما يهدد مصالحها ومصالح حلفائها .

---

(١) للمزيد من التفاصيل يجع إلى الآتى :
شوقى الجمل : سودان وادى النيل وعلاقتة بمصر ج٣ (١٩٨٠) ص ١٤١ ومابعدها .

حملات استرداد السودان

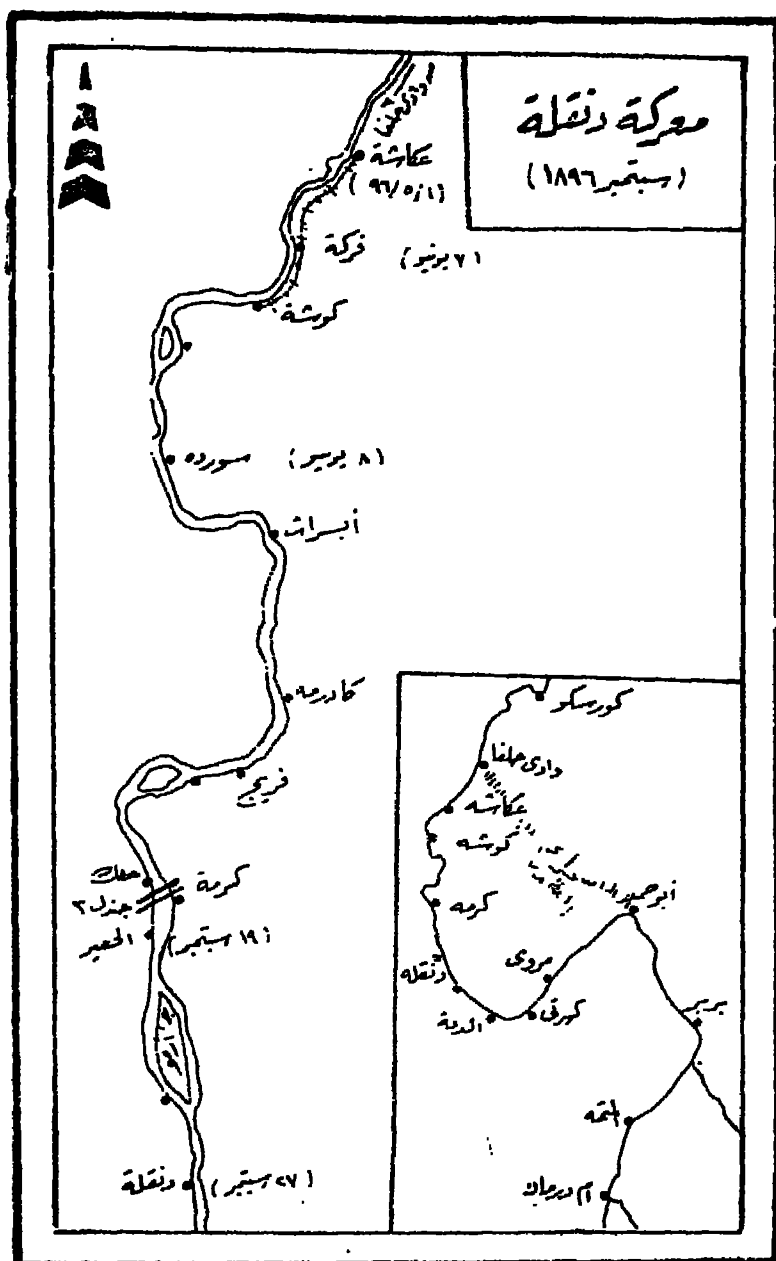
١ - حملة دنقلة (مارس ١٨٩٦) :

قررت الحكومه البريطانية فى ١٢ مارس ١٨٩٦ أن ترسل حملة بقيادة سردار الجيش المصرى السير هيربرت كتشنر (H. Kitchener) لإحتلال دنقله - والغريب أن انجلترا لم تستشر الخديوى قبل تقرير إرسال الحملة .

ولما لم تكن الحكومة المصرية قد رتبت أمر الموارد المالية التى تطلبها الحملة - فقد وجهت انجلترا نظر الحكومة المصرية للأخذ من أموال صندوق الدين . ولما حكمت المحكمة المختلطة بعدم سلامة هذا الإجراء أقرضت انجلترا مصر مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لسداد المبلغ المسحوب من الصندوق لتمويل الحملة .

تحركت الحملة من وادى حلفا واستولت على عكاشة ثم فركة ، وكوشة، وكرمة . وفى ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦ استولت الحملة على دنقلة ، وكان الجيش المصرى - أثناء تقدمه يمد خطوط السكك الحديدية من وادى حلفا عبر صحراء العطمور فى اتجاه أبوحمد .

وبعد نجاح دنقله تقرر استئناف الزحف - لكن قبل ذلك شعرت انجلترا أن الأمر يستلزم ضمان حياد الحبشة ، وعدم تقديمها أيه مساعدة للمهديين ، ولتحقيق ذلك أرسلت انجلترا فى فبراير ١٨٩٧ بعثه إلى أديس أبابا برئاسة - رينيل رود (Rennel Rodd) نجحت فى عقد معاهدة تضمنت عدم تقديم الأحباش آيه مساعدة للمهديين .



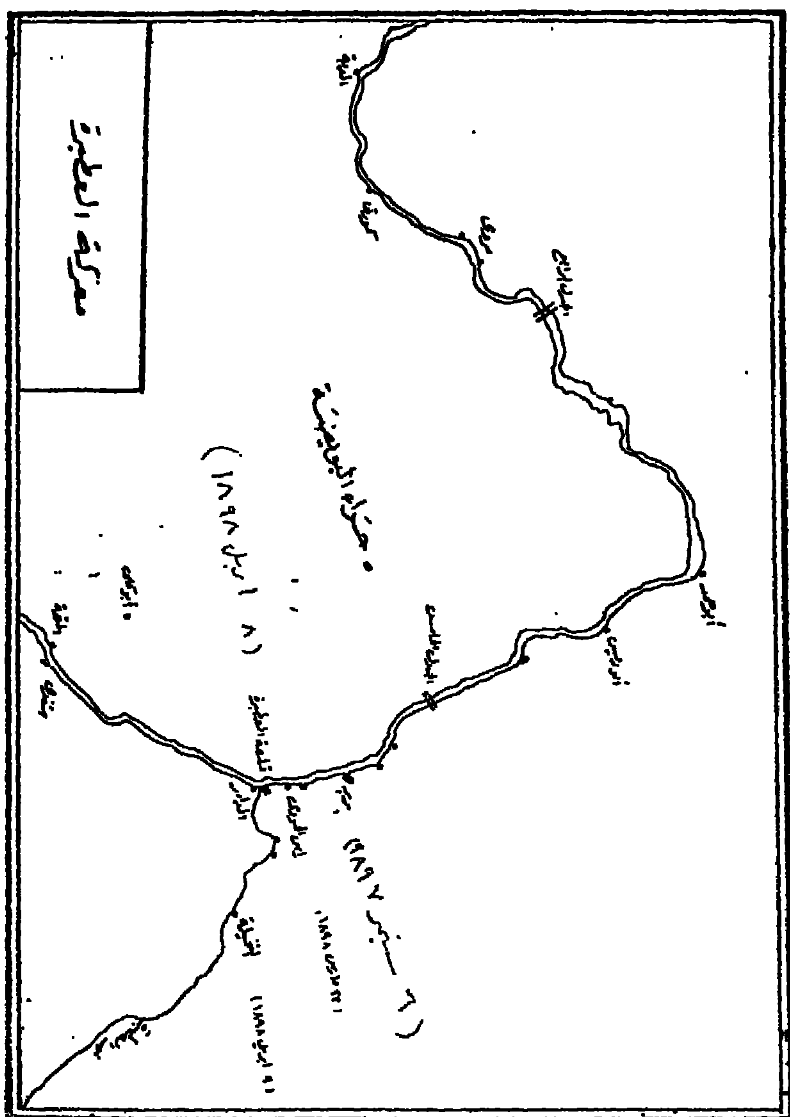
شكل (١٣)

معركة دنقلة (سبتمبر ١٨٩٦)

٢ - معركة العطبرة ١٨٩٨ : بعد نجاح حملة دنقلة أمرت الحكومة البريطانية كتشنر بالاستعداد للزحف جنوباً - وكان الدافع لذلك ماوصل لسمع الحكومة البريطانية من أن الفرنسيين أرسلوا حملة بقيادة مارشان لإحتلال فاشودة على النيل الأبيض .

وتقدم الجيش المصرى فاستولى على [أبوحمد] وأخلى الدراويش بربر، فاستولى عليها الجيش الزاحف فى ٦ سبتمبر ١٨٩٧ ، وانضمت قبائل الجَعليين للجيش المصرى. وحاصر كتشنر الدراويش المتحصنين في العطرة ، وفى ٨ أبريل ١٨٩٨ بدأ الهجوم على العطبرة وانتهت معركة العطيرة باندحار جيش الدراويش ، وقتل أكثر من ٧.٠٠٠ من رجال الحامية التى كانت متمركزة بهاوأسُر عدد من كبار قادتهم وفر من استطاع الفرار ومنهم عثمان دقنه .

وقد أدت هذه المعركة لزعزة معنويات جيش الخليفة الذى قرر بعد المعركة التخلى عن كل المناطق الواقعة شمال أم درمان وتركيز جهده فى المناطق الواقعة جنوبها .



شكل (١٤)

معركة العطبرة

٣ - معركة أم درمان (٢ سبتمبر ١٨٩٨)

بعد معركة العطرة حشد الخليفة قواته البالغ عددها ٥٠,٠٠٠ مقاتل مسلحين بالحراب في سهول كررى عند أم درمان ، وفى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وقعت معركة أم درمان ، واندحر جيش الخليفة وقتل أكثر من ١١,٠٠٠ حصرتهم مدفعية الجيش المصرى بالإضافة إلى ١٦,٠٠٠ جريح ، ٤,٠٠٠ أسير ووصل كتشنر أم درمان وفرّ الخليفة عبدالله التعايشى ، وبعض قوات جيشة تجاه الغرب ، وبعد دخول كتشنر أم درمان قام بعمل يتنافى مع كل مبادئ الإنسانية فقد أمر بنبش قبر المهدى وأجتز رأسه لكن بارنج أعاد الجمجمة حيث دفنت سرا فى مقبرة فى وادى حلفا .

وقد منح كتشنر لقب لورد الخرطوم .

وبعد موقعة أم درمان رفع كتشنر العلمين المصرى والبريطانى جنبا إلى جنب على سراى الحكومة المخربة فى الخرطوم وفقا للتعليمات التى تلقاها من كرومر ، وقد أدى هذا لعاصفة من الانتقاد من الجنود والضباط المصريين (١)

٤ - فاشودة :

صدرت التعليمات لكتشنر متابعة السير فى النيل الأبيض إلى فاشودة، فإذا وجد بها القوة افرنسية التى يشاع وصولها من مستعمرات فرنسا لغرب أفريقيا - فعليه أن يأمر القائد الفرنسى بالانسحاب من أملاك الخديوى ، قد وصل كتشنر إلى فاشودة فى ٢١ سبتمبر ١٨٩٨ على رأس كتيتين من الجنود بالإضافة إلى خمس سفن فى النيل .

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن (١٨١٩ - ١٩١٩) القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٨٩ .

وحين تقابل كتشر مع مارشان طلب منه الخروج من ذلك المكان – يكن اتفق الطرفان على رفع الراية المصرية على مسافة ٧٠٠ ياردة من الراية الفرنسية انتظارا لأوامر الحكومة الفرنسية .

وقد أرسل اللورد سالسبورى (Salisbury) الوزير البريطانى خطابا للحكومة الفرنسية يؤكد أن قيام الثورة فى السودان لايفقد الحكومة المصرية حقها فيه فهذه الأرض المتنازع عليها هى ملك لمصر .

وقد بعثت الحكومة الفرنسية فى ٤ نوفمبر ١٨٩٨ تأمر رجالها بالإنسحاب من فاشودة – فقد كانت تدرك عجزها عن الاحتفاظ بوضعها هناك (٢)

٥ - نهاية الخليفة :

بعد هزيمة الدراويش فى أم درمان – تعقبت القوات الزاحفة البقيه الباقية من قوات الدراويش .

لكن أحمد فضيل – من أمراء الدراويش هرب إلى القضارف ثم إلى الرصيرص ، ثم لحق بقوات الخليفة الذى كان قد حرب مع أكثر من ٧,٠٠٠ من أتباعه إلى كردفان .

وقد أعادت حملة بقيادة وجت (Wingate) لتعقيب قوات الخليفة والقضاء عليها ، ونجحت قوات ونجت فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ فى احتلال أبار المياه فى جديد وضيقت الخناق على قوت الخليفة التى كانت متمركزة فى (أم دبيكرات) والتى وجدت نفسها محاصرة بقوات وخجت من الشمال بينما كانت البوارج فى النيل تمطرها بقذائف مدافعها من

---

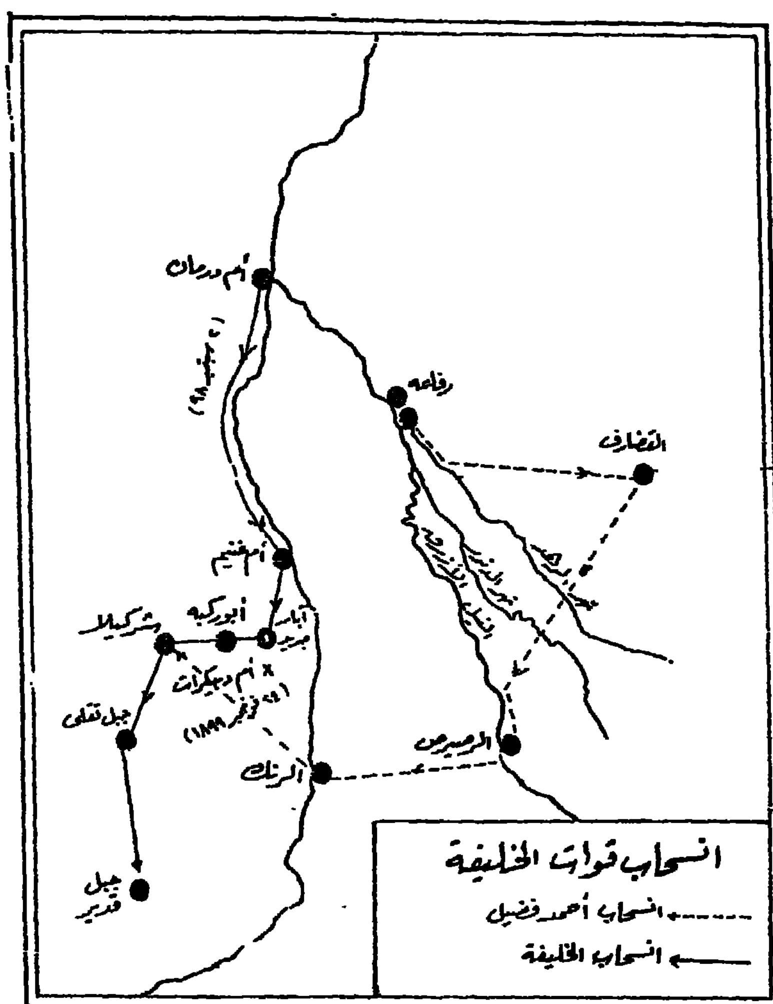
(١) للتفاصيل الكاملة لحادثة فاشودة ودوافعها ونتائجها يرجع إلى : على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (القاهرة ١٩٥٨) .

الشرق - فلم تكن أمام الخليفة إلا أن يخوض معركتة النهائية فى هذه المنطقة .

وانتهت المعركة بقتل الخليفة عبدالله ومايقرب من ١٠٠٠ من اتباعه منهم الصديق ابن المهدى ، وهارون محمد شقيق الخليفة ، والأمير أحمد فضيل ، وأفلت عثمان دقنه ، ونجح فى إجتياز النيل الأبيض ووصل إلى شاطئ البحر الأحر ، وظل متخفيا فى أحد الكهوف إلى أن قبض عليه .

وقد سقطت الأبيض عاصمة كردفان ، أما دارفور فقد استطاع (على دينار) من سلالة الفور السابقين أن يستخلصها من الدراويش وظل يحكمها من قبل حكومة السودان حتى عام ١٩١٦حين نبذ ولاءه للحكومة فقبض عليه .

وهكذا تمت تصفية الثورة المهدية .



شكل (١٥)

انسحاب الخليفة والقضاء عليه

اتفاقية الحكم الثنائى
ونظام الحكم الجديد فى السودان

بعد استعادة السودان كانت انجلترا حريصة على أن تمد نفوذها إليه وأن تضمه لأمبراطوريتها الأفريقية.

لكن انجلترا لم تستطع أن تنفرد بالسيطرة رسمياً على السودان لأسباب متعددة منها :

١ ـ حقوق مصر القديمة الثابتة في السودان قبل الثورة المهدية وما تكبدته مصر فى عمليات الفتح الجديد ـ وكانت انجلترا تستند على حقوق مصر في السودان لتواجه أطماع الدول الأستعمارية الأخرى ـ وفى مقدمتها فرنسا فيه .

٢ ـ كانت انجلترا تدرك أن السودان يعتبر أرضا عثمانية والخديوى يقوم بالحكم باعتباره تابعا للسلطان .

٣ ـ كانت بريطانيا تريد أن تتحمل مصر تبعات تعمير السودان بعد الثورة المهدية .

وقد استطاع كرومر بمساعدة مستشارية القانونين أن يضع نظاما غريباً أقره اللورد سالسبورى ـ وهو ما عرف بإتفاق الحكم الثنائي الذى أبرم في ١٩ يناير ١٨٩٩ ـ وكان ـ كما ذكرنا ـ قد مهد له برفع العلمين المصري والبريطانى على مبنى الحكومة بالخرطوم .

وهذا الوفاق من مقدمة واثنى عشر مادة :(١)

في المقدمة : اشارة لحقوق مصر السابقة في السودان ، ولما أصبح

---

(١) نص الوفاق ورد فى :

شوقى الجمل: تاريخ سودان النيل وعلاماته بمصر جـ ٢ ـ فى خلاصة الكتاب

للحكومة البريطانية من حقوق مترتبة على إشتراكها فى عملية الفتح ، ولذا استلزم الأمر وضع نظام خاص لتشترك الحكومتان الإنجليزية والمصرية في إدارة السودان :

المادة ١ : تعريف بالأراضى التى يشملها هذا الإتفاق والتى أطلق عليها لفظ السودان .

المادة ٢ : تختص برفع العلمين البريطاني والمصرى فى جميع أنحاء السودان ماعدا سواكن .(١)

المادة ٣ : تختص بأن تكون السلطة التنفيذية فى السودان فى يد (حاكم عموم السودان) يعين بأمر خديوى بعد موافقة الحكومة البريطانية .

المادة ٤ : تقضى بأن اصدار القوانين واللوائح من سلطة الحاكم العام

المادة ٥ : تقضى بالا تسرى القوانين واللوائح المصرية على السودان

المادة ٦ : تتعلق بالمساواة بين جميع الأوربيين فيما يختص بحرية المتاجرة أو الإقامة أو التملك فى السودان .

المادة ٧ : خاصة بالرسوم الجمركية على البضائع الواردة من مصر أو غيرها من البلاد الأخرى .

المادة ٨ : بخصوص عدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة ألى أية جهة من جهات السودان .

المادة ٩: بشأن وضع السودان تحت الأحكام العرفية .

المادة ١٠ : خاصة بتعيين القناصل أو وكلاء القناصل أو مأمورى القنصليات بالسودان .

---

(١) خضعت سواكن بعد ذلك لأحكام هذا النظام بموجب اتفاقية ـــ فى ١٠ يولية ١٨٩٩

المادة ١١ : بشأن منع ادخال الرقيق الى السودان .

المادة ١٢ : بشأن منع إدخال الأسلحة النارية والأشربة الروحية للسودان

نقد الأتفاق :

قابلت الصحف العربية والأجنبية توقيع الاتفاقية باستنكار كامل ، وقد نشر الزعيم المصرى مصطفى كامل فى جريدة اللواء مقالات انتقد فيها الأتفاقية واعتبر يوم توقيع الاتفاقية يوماً سيئاً (يوما مشؤوما) وقد انتقد رجال القانون الفرنسيون بالذات الاتفاقية على أساس :

١ ـ لم تكن للخديو الحق فى عقد مثل هذه الاتفاقات مع الدول الأجنبية فسلطته كانت مقيدة بالفرامانات العثمانية .

٢ ـ المعاهدات الدولية (اتفاق لندن ١٨٤٠ ، ومعاهدة بارس ١٨٥٦ ، ومعاهدة برلين ١٨٧٨) تحتم عدم المساس بأى جزء من ممتلكات الدولة العثمانية ـ فهذه الإتفاقية فيها نقض واضح لهذه المعاهدات .

٣ ـ استندت انجلترا ـ كمبرر لاشتراكها فى حكم السودان وإدارته ـ إلى ما أسمته حق الفتح وهذا يخالف الواقع .

٤ ـ وضعت الأتفاقية فى يد الحاكم العام سلطات تنفيذية ، وتشريعية وقضائية عجيبة .

٥ ـ خالفت الاتفاقية المبادئ الدولية بإلغائها الأمتيازات الأجنبية أو سلطة المحاكم المختلطة في السودان ـ وهى حقوق لم تكن بريطانيا تمتلك المساس بها .

الفصل التاسع

سياسة انجلترا فى السودان

(من ١٨٩٩ الى استقلال السودان ١٩٥٦)

المحتويات :

أ ـ أحوال السودان فى الفترة من ١٨٩٩ إلى ١٩١٤

ب ـ أحوال السودان فى الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٤

ثورة ١٩٢٤ أسبابها ونتائجها.

ج ـ انفراد انجلترا بإداره السودان (١٩٢٤ ـ ١٩٣٦)

د ـ السودان فى الفترة من ١٩٣٦ حتى ١٩٥٣

هـ ـ ثورة ٢٣ يولية فى مصر موقفها من قضية السودان :

(اتفاقية الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودانيين ـ ١٢ فبراير ١٩٥٣)

ـ قيام جمهورية السودان الديمقراطية (١٩٥٦) .

أحوال السودان (١٨٩٩ - ١٩١٤)

١ - **الحاكم العام** : وضعت السلطة الكاملة فى يده ، وكان تعيينه - كما اشترطت اتفاقية ١٨٩٩ مرهونا بموافقة انجلترا ، ولم يعين طوال سريان هذه الأتفاقية مصرى واحد في هذه الوظيفة .

فقد كان كتشنر أول حاكم للسودان ، وخلفه السير ونجت الذى تولى ادارة السودان لمدة سبعة عشر عاما (١٩٠٠-١٩١٦) ، ثم السيرلى ستاك (١٩١٦ - ١٩٢٤) الذى قتل فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ وخلفه السير جيوفرى ارشر:

٢ - **السكرتيريون** : إلى جانب الحاكم العام وجد السكرتير العام ، ثم ثلاثة من السكرتيريين هم السكرتير الادارى ، والسكرتير المالى ، والسكرتير القضائى :

٣ - **مديرو الادارات** : وضع على رأس كل ادارة من الادارات الهامة بالبلاد مدير.

٤ - **التقسيم الأدارى** : قسم السودان الى مديريات ، والمديريات الى مراكز .

٥ - **المفتش العام** : ابتدعت هذه الوظيفة ، وقد شغلها سلاتين لمدة طويلة حتى نشوب الحرب العظمى الأولى .

٦ - **مجلس الحاكم العام** : انشئ فى عام ١٩١٠ ، وهو يتكون من الحاكم العام والسكرتيريين الثلاثة ، وأربعة من رؤساء الإدارات الهامة ومن مهامه - سن القوانين ، وإقرار الميزانية وإبداء الرأى فى السياسة العامة :

المشروعات العمرانية والثقافية الهامة :

اقيمت فى هذه الفترة عدة مشروعات ، وقد تحملت الخزانة المصرية العبء المالى لهذه المشروعات ومن أهمها :

١ ـ تعمير الخرطوم ، وإقامة قصر جديد للحاكم مكان القصر القديم .

٢ ـ أكملت السكك الحديدية التى كان الجيش المصرى قد بدأها وقد وصلت السكة الحديدية عام ١٩١٠ جنوبي الخرطوم ، وبعد ذلك مدّ الخط الحديدى من الخرطوم الى سنار ، وغربا الى الأبيض ، كما اعيدت الخطوط البرقية .

٣ ـ التعليم : فتحت مدارس ابتدائية فى وادى حلفا ، و سواكن ، وواد مدنى ، وأم درمان .

وفى عام ١٩٠٢ افتتح اللورد كتشنر ـ كليه غوردون التذكارية ، وقد اكتتب فيهابعض البريطانيين باعتبارها كلية تذكارية تحمل اسم غوردون ، ـ وقد فتح القسم الثانوى منها عام ١٩١٣ ، وبعد عام ١٩٤٢ تحولت الى كلية جامعية وقد ركز الاهتمام فيها على اللغة الانجليزية ، وربطت الدراسة بالمناهج الإنجليزية . وقد تُرك التعليم فى جنوب السودان لنشاط الجمعيات التبشيرية المسيحية ، وقد ساهمت مصر بنصيب فى النهضة التعليمية فى شمال السودان ، ففى عام ١٩١٦ افتتحت كلية الإقباط بالخرطوم ، وافتتحت بها مدارس البنات القبطية ، وقد أنشئت فى الخرطوم منطقة تعليمية تشرف على المدارس المصرية بها .

٤ ـ الصحة : أنُشئت عدة مستشفيات أميرية فى المدن الرئيسية

٥ ـ القضاء : كان القضاء المدنى تحت سلطة السكرتير القضائى وقد وجد عدد من القضاة لكن أنُشئت المحاكم الشرعية للفصل فى الشئون المتعلقة بالشريعة الإسلامية .

٦ ـ المشروعات الأقتصادية : اقيمت عدة مشروعات للنهوض بالزراعة خاصة زراعة القطن فى منطقة الجزيرة ، وكسلا ، وطوكر.

وقـد تم في عـام ١٩٢٥ بناء خـزان سنار لخـدمـة زراعـة القطن فى الجزيرة .

وبالإضافة الى القطن ـ يعتبر الصمغ العربى من المحاصيل السوادنية الهامة وقد بُذلت جهود للاهتمام بالثروة الحيوانية ومكافحة أمراض الحيوان وفى مجال الصناعة ـ اتجهت الجهود لإنشاء محالج للقطن وغزله.

٧ ـ الأمن الداخلى : قامت عدة حركات محلية ـ حرصت الحكومة علي قمعها فى مهدها .

٨ ـ تسوية مشكلات الحدود : عقدت فى ١٥ مايو ١٩٠٢ معاهدة بين الحكومة البريطانية والحكومة الأثيوبية لتسوية الحدود بين إثيوبيا والسودان ، كما عُقدت معاهدة مع ايطاليا لتسوية الحدود بين السودان وأرتيريا ، كما عُقدت اتفاقية مع الملك ليوبولد ملك بلجيكا لتسوية الحدود بين السودان ودولة الكونغو الحرة .

أحوال السودان
فى الفترة من ١٩١٤ الى ١٩٢٤

ارتبطت قضية السودان منذ عُقدت اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا ـ بالقضية الوطنية المصرية .

وحين قامت الحرب العظمى الأولى فى يونية ١٩١٤ ـ انقسم العالم الى معسكرين ، وإنضمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا والنمسا ضد بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، واليابان .

وعلى الرغم من إحتلال انجلترا لمصر عام ١٨٨٢ ـ لكن كانت مصر من الوجهة الرسمية تابعة للدولة العثمانية .

ومع دخول الدولة العثمانية الحرب ضد انجلترا وحلفائها صدر إعلان بفرض الأحكام العرفية ـ ، وفرض رقابة على الصحف ، وفى ١٨ ديسمبر

١٩١٤ أعلنت انجلترا وضع مصر تحت (الحماية البريطانية) ، وصدر إعلان بخلع الخديو عباس حلمي الثاني وتولية السلطان حسين كامل مكانه واتخذ الحاكم العام ونجت فى السودان عدة إجراءات - فقد دفع العلماء، وشيوخ القبائل، وكبار الأعيان ليعلنوا ولاءهم للحكومة الإنجليزية وليستنكروا موقف تركيا من الحرب . وفى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ أصدر ونجت منشوراً بإعلان الأحكام العرفية في السودان.

وكانت الطريقة الميرغينية وزعيمها (السيد على الميرغنى) أكثر الطرق انتشاراً في السودان ، فاتجهت انجلترا لإيجاد منافس لها ، فسمحت للسيد عبدالرحمن المهدي بالعودة الي جزيرة أبا ، وشجعته على أن يبدأ نشاطه ويجمع حوله أتباعه من الأنصار ، وهكذا وجد فى السودان معسكران - معسكر الختمية أتباع السيد الميرغنى ، ومعسكر المهدية . وبالتالى نجحت انجلترا في خلق التفرقة والتنافس بين السودانيين .

أثر الحركة الوطنية في مصر علي السودان

كانت للحرب العظمى الأولى آثار كبيرة فى إذكاء الحركة الوطنية في مصر ، وأدى هذا لإندلاع ثورة ١٩١٩ فيها ، وقد شددت الإدارة البريطانية الرقابة على المصريين بالسودان من ضباط وموظفين حتى لا تتسرب أنباء الثورة فى مصر إلى السودان - لكن لم تنجح هذه المحاولات.

وجاء تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ مشتملاً على التحفظات الأربعة ومنها مسألة السودان التى لم تشأ انجلترا أن تغير من وضعه بعد أن اعطتها اتفاقية ١٨٩٩ فرصة التحكم فى أمره عن طريق السلطات العجيبة التى منحت للحاكم العام .

ولما صدر دستور ١٩٢٣ في مصر ـ أصرت انجلترا على أن تحذف ما كانت لجنة الدستور قد اقترحته من أن يكون لقب الملك (ملك مصر والسودان).

ورغم أن سعد زغلول الذى ألف الوزارة التى عُرفت (بوزارة الشعب) بعد فوز مرشحى الوفد المصرى بالأغلبية في الانتخابات ـ كرر أكثر من مدة في البرلمان بأن مصر لا تتنازل عن علاقتها بالسودان ـ فإن انجلترا استمرت فى وسائلها لتشويه صورة مصر في السودان والوقيعة بين الشعبين المصرى والسودانى .

ومع ذلك فقد تنبه السودانيون لأساليب الاستعمار وأهدافه، وأدى هذا إلى قيام ثورة ١٩٢٤ بالسودان .

ثورة ١٩٢٤ بالسودان

تُعد هذه الثورة تطوراً طبيعياً للمتغيرات التى طرأت على المجتمع السودانى ، ومن أهم هذه المتغيرات :

١ـ انتشار التعليم ونشأة طبقة مثقفة في السودان .

فقد عمدت الإدارة لإنشاء مدارس لتخريج موظفين ، كذلك يذكر في هذا المجال دور المدارس المصرية الرسمية ، ومدارس الهيئات ، وكلية غوردون التذكارية بالخرطوم . كما أسفرت الحركة الثقافية فى السودان عن إنشاء ناد خاص للمثقفين هو (نادى الخريجين) بأم درمان ، وقد برزت فكرته في عام ١٩١٣ لكن لم يظهر في الوجود الا عام ١٩١٨ .

٢ ـ الحرب العالمية الأولى وأثارها على السودان :

تعددت الوعود أثناء الحرب عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وتلت الحرب قيام (عصبة الأمم) وما جاء في ميثاقها من مبادئ تنصف الشعوب المعتدى عليها.

٣ ـ انتقال ثورة ١٩١٩ في مصر للسودان :

وقد ظهرت أثار ثورة ١٩١٩ المصرية في المظاهرات التى انتشرت في السودان للمطالبة بحقوق السودانيين .

٤ ـ مشروع الجزيرة :

فقد نظر كثيرون من المثقفين السودانيين لهذا المشروع الضخم على أنه استغلال للإقتصاد السودانى لصالح الاقتصاد البريطانى .

٥ ـ إرتماء القيادات الدينية والقبلية في السودان في أحضان الإدارة البريطانية .

فقد نجحت الإدارة البريطانية في كسب هذه القيادات حتي انتهي الأمر (بإعلان هذه القيادات الولاء البريطانى) مما أثار المثقفين السودانيين .

٦ ـ تولى وزارة وطنية الحكم في مصر ١٩٢٤ (وزارة سعد زغلول) وافتتاح أول برلمان مصرى مما جعل السودانيين يتطلعون للحصول على حقوقهم الطبيعية فى بلادهم .

مراحل الثورة :

١ ـ النشرات السرية :

نجحت الإدارة البريطانية في إحتواء صحيفة (حضارة السودان) التى أنشئت عام ١٩١٩ ـ فلجأت القوى الوطنية إلى أسلوب النشرات السرية تعبر فيها عن رأيها .

٢ ـ جمعية الإتحاد السودانى :

برز نشاطها في عام ١٩٢٠ ومن أشهر أعضائها (سليمان كشة)

وقد نشرت وثيقة عُرفت بـ (مطالب الأمة السودانية) بتوقيع الضابط السوداني على عبداللطيف . (1)

ب ـ جمعية اللواء الأبيض :

برز نشاطها في ١٩٢٤ ومن أنشط أعضائها على عبداللطيف (2) وترجع تسمية الجمعية إلى أنها اتخذت شعاراً لها علما من القماش الأبيض رمزاً للسلام رسمت عليه خريطة لوادي النيل من منبعه إلي مصبه .

٣ ـ تعدد المظاهرات :

تعددت المظاهرات والاضطرابات بين الوطنين والسلطة الحاكمة في السودان في عام ١٩٢٤.

من هذه المظاهرات ـ مظاهرة المقابر ـ أثناء تشييع جنازة مأمور مركز أم درمان المصرى .

ومظاهرة طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم في ٩ أغسطس ١٩٢٤ ، ومظاهرة فرقة السكك الحديدية بعطبرة فى ٩ أغسطس ١٩٢٤ ، وقد نجحت السلطات الحاكمة فى السودان فى إخماد هذه الثورات ، واعتقلت على عبداللطيف وغيره من زعماء الثورة وأودعتهم السجون .

إنفراد انجلترا بإدارة السودان
١٩٢٤ ـ ١٩٣٦

عقب اغتيال السير (لى ستاك) في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ بالقاهرة أرسل المندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى انذاراً للحكومة المصرية فى ٢٢

(١) التفاصيل يرجع إلي :
يونان لبيب رزق : أضواء جديدة علي ثورة ١٩٢٤ السودانية (مجلة الهلال ١٩٦٨)
(٢) محمد أنيس : حركة اللواء الأبيض (صحيفة الأهرام القاهرية ٢٩ يولية ١٩٧٣)

نوفمبر ١٩٢٤ حمل فيه الحكومة المصرية مسئولية هذه الجريمة ، وطالب في الإنذار :

أ ـ اعتذار الحكومة المصرية .

ب ـ مواصلة البحث عن الجناة وإنزال العقاب الشديد بهم .

جـ ـ حظر المظاهرات الشعبية .

د ـ دفع تعويض قدرة نصف مليون جنيه .

هـ ـ إصدار الأوامر في خلال أربع وعشرين ساعة بإرجاع جميع الضباط والوحدات المصرية من السودان .

و ـ تبليغ المصالح المختصة بأن حكومة السودان ستزيد مساحة الأراضي المنزرعة في أرض الجزيرة إلي أقصى حد ممكن .

وقد احتجت وزارة سعد باشا على هذه الطلبات ، وقدم استقالة وزارته في يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤ وقبلها الملك وكلف زيور باشا بتشكيل وزارة جديدة .

وقد أوفدت الحكومة المصرية رسولاً خاصا للجيش المصرى بالسودان للإنسحاب بلا مقاومة .

وفي يناير ١٩٢٥ أنشأ حاكم السودان السير جيوفري أرشر (G.Archer) الذى خلف السيرلى ستاك ـ قوة دفاع سودانية تدين بولائها للحاكم العام للسودان ـ لتحل محل القوات المصرية .

وخلال فترة انفراد الإدارة البريطانية بالحكم في السودان عمدت :

١ ـ لتوسيع رقعة زراعة القطن فى أرض الجزيرة وخور الجاش وبركة لانتاج القطن اللازم لمصانع لانكشير .

٢ ـ اتجهت لفصل جنوب السودان عن شماله ، وتوجيه الجنوب إلي أوغنده وغيرها ـ واستخدام اللغة الانجليزية كلغة أساسية للتعامل مع الجنوبين

٣ ـ قمع الحركات الوطنية بشدة وعنف .

٤ ـ تدعيم السلطات القبلية .

السودان
في الفترة من ١٩٣٦ ـ ١٩٥٣

تعددت المفاوضات بين مصر وانجلترا لمحاولة الوصول لإتفاق بين الحكومتين .

جرت مفاوضات في سنة ١٩٢٧ بين ثروت باشا وتشمبرلين ، كما جرت في سنة ١٩٢٩ مفاوضات بين محمد محمود باشا ، وهندرسون، وفي عام ١٩٣٠ جرت مفاوضات بين رئيس الوزراء مصطفي النحاس باشا وهندرسون .

السودان في معاهدة ١٩٣٦ :

في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ تم التوقيع في قاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية علي معاهدة ١٩٣٦ ، وفيما يتعلق بالسودان أتُفق علي أن إدارة السودان ـ تبقي مستمدة من اتفاقيتي ١٩ يناير و١٠ يولية عام ١٨٩٩ أي يعود العمل بإتفاقية الحكم الثنائى .

واتفق علي :

١ ـ عودة الجيش المصري إلى السودان .

٢ ـ يعين المصريون ـ كما يعين البريطانيون في وظائف حكومة السودان

٣ ـ تخويل مفتش الري المصري في السودان ، حق الجلوس بمجلس الحاكم العام ـ عند النظر في الشئون المتعلقة بمهام وظيفته .

٤ ـ لا يكون هناك فرق بين المصريين والإنجليز ـ فيما يتعلق بالتملك .

تأسيس حركة الخريجين السودانية :

شهدت الطبقة المثقفة السودانية أن مصير السودان يقرر دون الرجوع لأهله :

وبدأ نشاط المثقفين السودانيين علي شكل جمعيات أدبية تمثل نشاطها في (نادي الخريجين بأم درمان) .

وقد عقد أول اجتماع للمؤتمر في ١٢ فبراير ١٩٣٨ وقد حدد المؤتمر نشاطه في :

أ ـ المسائل المتعلقة بالإصلاح الاجتماعي والمشاريع الخيرية .

ب ـ المسائل العامة علي الا يتعارض نشاط المؤتمر مع سياسة الحكومة ، بل تعاونها بما يقدمه من أراء ومقترحات وقد اعترفت الحكومة السودانية بالمؤتمر فقط كهيئة شعبية تمثل الخريجين .

لكن تطور الأمر بعد نشوب الحرب العالمية الثانية فقد طالب المؤتمر بما يلي :

١ ـ إصدار تصريح مشترك يمنح السودان حق تقرير مصيره .

٢ ـ تأسيس مجلس أعلى للتعليم .

٣ ـ فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية

٤ ـ تحديد الهجرة إلى السودان

٥ ـ توحيد برامج التعليم في الشمال والجنوب .

٦ ـ قصر الوظائف على السوادنيين إلا ما تدعو الضرورة لشغله بغيرهم .

٧ ـ عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة .

الأحزاب السياسية واتجاهاتها :

تعددت الأحزاب السودانية ويمكن أن نصنفها إلى مجموعتين :

١ ـ الأحزاب الأتحادية ، وتضم حزب الاتحاديين ، والأحرار والأشقاء، وحزب وحدة وادي النيل .

وكانت تنادي بمبدأ الجلاء العاجل عن مصر والسودان ووحدة وادي النيل .

٢ ـ الأحزاب الاستقلالية : وتضم حزب الأمة ، وحزب القوميين .

وكانت تنادى باستقلال السودان

تطور القضية السودانية من ١٩٤٦ إلي ١٩٥٣

جرت عدة محاولات للوصول لحل للقضية السودانية منها:

١ ـ مفاوضات صدقي بيفن ١٩٤٦.

٢ ـ مفاوضات النقراشي ـ كامبل ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ .

٣ ـ عرض قضية السودان على مجلس الأمن ١٩٤٧ : فقد اتجهت حكومة محمود فهمي النقراشي بمصر إلى عرض قضية السودان على مجلس الأمن ، بعد أن فشلت محاولات الوصول الى اتفاق مع بريطانيا عن طريق المفاوضات ـ لكن فشل مجلس الأمن في حل القضية فقد امتنع عن إصدار قرار بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان ـ وأعلن أن على الدولتين أن تقوما بالتفاوض لحل القضية على أن تظل القضية مدرجة بجدول الأعمال .

٤ ـ مباحثات خشبة ـ كمبل ١٩٤٨.

٥ ـ مباحثات صلاح الدين ـ بيفن (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) .

٦ ـ مصر تلغى معاهدة ١٩٣٦ ، واتفاقيتي ١٨٩٩ :

فقد أعلنت الحكومة المصرية فى أكتوبر ١٩٥١ـ بعد أن استنفذت كل الجهود للوصول لحل مع بريطانيا دون جدوي ـ الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي ١٨٩٩ .

لكن بريطانيا قامت بإعلان بطلان هذا الإجراء الذى أتُخذ من جانب واحد .

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ في مصر
واتفاق الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودانيين

بعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ في مصر - رأت الحكومة المصرية أن علاج مشكلة السودان كفيل بحل مشكلة الجلاء - ولما كانت انجلترا تتستر خلف حق السودانيين في تقرير مصيرهم وتتخذ من ذلك حجة لإستمرار سيطرتها علي دفة الحكم والإدارة بالسودان - لذلك رأت حكومة الثورة أن تقدم مذكرة للحكومة البريطانية تعلن فيها رغبتها في أن تتاح الفرصة للسودانيين لتقرير مصيرهم واضطرت الحكومة البريطانية للموافقة ، وانتهي الأمر باتفاق وقع في ١٢ فبراير ١٩٥٣ الحكومتين بشأن الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان ، وقد تقرر في هذا الإتفاق[(١)]

١ - حق الشعب السوداني في تقرير مصيره .

٢ - يهيأ جو محايد ليبدي الشعب السوداني رأيه بكامل حريته .

٣ - تعطي فترة انتقال - لا تتجاوز ثلاث سنوات لتصفية الإدارة الثنائية .

٤ - يعاون الحاكم العام في فترة الانتقال لجنة من خمسة أعضاء (عضو مصري ، وعضو بريطاني ، وأثنين من السودانيين ، وعضو باكستاني تعينه حكومته).

٥ - الاحتفاظ بوحدة السودان كإقليم واحد .

٦ - تشكل لجنة للإنتخابات من سبعة أعضاء (ثلاثة من السودانيين ، وعضو مصري ، وعضو من المملكة المتحدة وعضو من الولايات المتحدة الأمريكية ، وعضو هندي تكون له رئاسة اللجنة) .

---

(١) نص الاتفاق : . .وقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل وعلاقته بمصر ، جـ ٣ الملحق .

٧ ـ تشكل لجنة للسودنة من خمسة أعضاء (عضو مصري وعضو من المملكة المتحدة ، وثلاثة أعضاء سودانيين) .

٨ ـ تنتهي فترة الانتقال عندما يعرب البرلمان السوداني عن رغبته في الشروع في إجراءات تقرير المصير.

وحينئذ يجب أن تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية وتنتخب جمعية تأسيسية تكون مهمتها :

أ ـ تقرير مصير السودان كوحدة لا تتجزأ ـ إما بإرتباط السودان بمصر بأية صورة أو الاستقلال التام .

ب ـ تعد دستوراً للسودان .

وقد نص على أن تحترم الحكومتان المتعاقدتان قرار الجمعية التأسيسية .

وفي ١١ يناير ١٩٥٥ أتمت لجنة السودنة عملها ، وأبلغت دولتى الحكم الثنائي بالرغبة في مزوالة حق تقرير المصير .

وفى ٩ نوفمبر غادرت قوات الدولتين السودان

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ أصدر مجلس النواب السوداني قراراً يقضى بأن الأمر لا يدعو إلى إجراء استفتاء بشأن الحكم القادم في السودان ، وأنه يعتبر جلاء الجيوش الأجنبية عن أرض الوطن ايذانا استقلاله .

وأعلنت مصر على الفور اعترافها بالسودان دولة مستقلة ذات سيادة

وفي ٣١ ديسمبر ١٩٥٥ أقر البرلمان السوداني الدستور وأصبح نافذاً،

وفى ١٩ يناير ١٩٥٦ أصبح السودان المستقل عضوا في جامعة الدول العربية ، وفى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦ أصبح عضواً فى الأمم المتحدة

وهكذا أصبح مصير السودان في يد أبنائه .

بعض المراجع
(عن تاريخ السودان الحديث والمعاصر)

أولا : مراجع عربية أو معربة :

١ – جلال يحيى : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان (١٩٥٩).

٢ – سليمان كشه : اللواء الأبيض (الرطوم ١٩٦١) .

٣ – شوقي الجمل : تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر جـ ٢ (١٩٨٠)

٤ – عبدالكريم السيد : اللواء الأبيض (ثورة ١٩٢٤ ، الخرطوم ١٩٧٠).

٥ – عصمت زلفو : كررى – تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧) .

٦ – على ابراهيم عبده : المنافسه الدولية في أعالي النيل (١٩٥٨)

٧ – كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان – تعريب عبدالعزيز أحمد عرابى ١٩٦٠ .

٨ – محمد حسن عوض : قضية كفاح البطل عبداللطيف (١٩٥٥).

٩ – محمد سعيد القدال : المهدية والحبشة (الخرطوم ١٩٧٣) .

١٠ – محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (١٩٥٠)

١١ – محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان (١٩٤٧) .

١٢ – مكى شبيكة : السودان في قرن (١٩٤٧) .

١٣ – مكى شبيكة : السودان عبر القرون (١٩٦٤) .

١٤ – نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث – ٣ أجزاء .

ثانيا : مراجع أجنبية :

1- Allen, B. M. : Gordon and The Sudan (London 1931)

2 - Budge, E. A. : The Egyptian Sudan 2 Vols (london 1902)

3 - Hoit, P. M. : The Mahdist State in the Sudan (Oxford 1058)

4 - Mac-Machael, Sir : The Sudan (London 1954).

5 - Wingate, F. R. : Mahdiism and the Egyptian Sudan (London 1891)

الفهـــرس

تـم بحمـد الله وتوفيقـه